المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
فرع الأدب

قامت الطالبة بإجراء التعديلات التى طلبتها لجنة المناقشة.

المشرف	مناقش	مناقش

علم المعاني في التفسير الكبير للفخر الرازي وأثره في الدراسات البلاغية

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في علوم البلاغة

إعداد
الطالبة/ فائزة سالم صالح يحيى أحمد

إشراف
الأستاذ الدكتور / علي محمد حسن العماري

المجلد الثاني

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الرابع:

بناء الجمل

بنـــاء الجمـــل

تتخطى الدراسة البلاغية نطاق البحث في المفرد والجملة إلى النظر في الجمل المتتابعة ، لمعرفة خفي المعاني الكامنة وراء ترابطها .

وهذا الفصل يتناول المناسبات القائمة بين المعاني، كما يتناول باب فصل الجمل ووصلها في الكلام ، ويبحث عن الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات ، ويهتم أيضاً بجمل الالتفات، والاعتراض في الكلام ،وتحليل النصوص تحليلاً بلاغياً ، وإقامة الموازنة بين ما تشابه منها في صياغته،وغير ذلك من المباحث المتصلة ببناء الجمل مما سنراه-إن شاء الله-.

المناسـبات والترتيبـات

يعد هذا المبحث من أطول المباحث في تفسير الفخر ، وهو ما يميزه عن غيره من كتب التفسير فيما يتعلق بالمباحث البلاغية .

وعلم المناسبة علم تعرف منه علل الترتيب بين أجزائه ، وثمرته هو معرفة المرتبة العليا التي يستحقها الجزء بما له من ارتباط بسابقه ولاحقه ، ومن تعلق بهما كلحمة النسب (١) . ولم يفرد البلاغيون هذا النوع من العلم بباب خاص؛ لأن مباحثه لم يتحدد لها معاقد مضبوطة ، وكثير منها يدخل تحت باب الفصل والوصل .

وقد استفاد المتأخرون من علماء المناسبة بباب حسن التخلص ، وباب الاستطراد في البلاغة ، وطبقوا عليه آيات كثيرة كما عند (بدر الدين الزركشي) و (جلال الدين السيوطي) (٢) .

وتنقل إلينا الكتب أن أول ظهور هذا العلم كان على يدي عالم جليل يسمى (أبا بكر النيسابوري) (ت ٣٢٤ هـ) ، وقد كان غزير العلم في الشريعة والأدب ، وكان يقرأ القرآن ويبين لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ، وما الحكمة من جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ، وكان يزدري علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة (٣) .

إذن فهو علم شريف لا يتأتى لكل أحد من الناس ، ولا بد فيه من الجمع بين علم الأدب الذي هو جزء من علم العربية وعلم الشريعة .

---

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للبقاعي : ١/ ٧ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الإتقان في علوم القرآن .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين الزركشي : ١/ ٣٦ .

وكان القاضي (أبو بكر بن العربي) يشتكي من قلة حملة هذا العلم للطفه ودقته إذ يقول : (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد ، عمل فيه سورة البقرة ،ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه ،وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه) (١) .

نتأمل قوله : (علم عظيم) ،وقوله : (لم نجد له حملة) .

ولا أعلم من يريد بقوله : (لم يتعرض له إلا عالم واحد) هل هو أبو بكر النيسابورى أم أحد غيره ؟

وللباقلاني دراسة تسبق قول القاضي ابن العربي في كتابه (إعجاز القرآن) يبحث فيها عن المناسبة بين المعاني المختلفة في بعض آيات القرآن ، كما تناول سورتي النمل وغافر ،ووقف فيهما عند مواطن التخلص من معنى إلى آخر ،وبين كيف يتم الانتقال من غرض إلى غرض بطريقة عجيبة يأتلف فيها المختلف ،وتندمج فيها المعاني المتنوعة ،وهو في كل هذا لم يسر على طريقة علمية ،إنما اعتمد على إحساس النفس وإثارة ملكات التفكير عند القارئ ، ويتضح ذلك بوضوح وجلاء عند النظر في كتابه (٢) .

وهكذا ظلت دراسة المناسبات تسير في حدود ضيقة عند مفسرى القرآن على آيات قليلة منه .

وجاء الفخر الرازى واهتم بها اهتماماً كبيراً ،وأكثر منها في تفسيره ، وطبقها على كثير من آي القرآن ،ويعد تفسيره -حسب علمي- أول تفسير

---

(١) المصدر السابق : ٣٦/١ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن : ٢٠٢ ومابعدها .

اهتم بتدوين مناسبات القرآن ، ويرى أن كثيراً من النكات واللطائف تكمن في مثل هذه العلاقات بين الآيات والسور يقول : (إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)(١) ، واللطائف هي الدقائق التي لا تظهر إلا بالتأمل وحسن النظر .

كما أنه كان يدرك عظم هذا العلم ، وأنه لا يتأتى للعامة بل لا بد من توفر القريحة القوية التي لا تتأتى إلا بعد طول ممارسة للعلم ، ورياضة روحية تزكو بها النفس ، وتسمو بها الروح حتى تدرك دقائقه ولطائفه ، وهو هنا يوافق القاضي ابن العربي في أنه علم عزيز جداً ، فيقول : (اعلم أن من آتاه الله قريحة قوية ونصاباً وافياً من العلوم الإلهية الكشفية عرف أنه لا ترتيب أحسن ولا أكمل من ترتيب آيات القرآن)(٢) .

ولهذا فقد أرجع إليها إعجاز القرآن بجانب الفصاحة - كما سنرى في فصل الإعجاز في تفسيره - .

وكان الفخر شديد الإعجاب بهذه المناسبات ، وقيامها على وجه دقيق منتظم ، ولذلك أجده يستحسنها ، ويكثر الثناء عليها في كل تفسيره .

فمثلاً يقول في ربط الآيات الأولى من سورة آل عمران : (فقد ظهر أنه لا يمكن أن يكون كلام أقرب إلى الضبط وإلى حسن الترتيب وجودة التأليف من هذا الكلام)(٣) . ولم ينبغي له أن يصف القرآن بأنه (كلام أقرب إلى الضبط) .

---

(١) التفسير : ١٤٥/١٠ م٥ .
(٢) التفسير : ١٢٤/٢٧ م١٤ .
(٣) التفسير : ١٦٩/٧ م٤ ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ سورة آل عمران : آية ١ .

ويقول كذلك في الآيات نفسها : (ومن تأمل في هذه اللطائف علم أنه لا يعقل كلام أكثر فائدة ولا أحسن ترتيباً ولا أكثر تأثيراً في القلوب من هذه الكلمات) . (١)

هذا وقد تتبعت حديث الفخر عن المناسبات في التفسير فصنفتها على أنواع :

١ - مناسبة بين جزئيات الآية الواحدة .

٢ - مناسبة بين آية وآية .

٣ - مناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة .

٤ - مناسبة بين أول السورة وآخرها .

٥ - مناسبة أول السورة بآخر ما قبلها .

٦ - مناسبة بين سورة وسورة أو عدة سور .

وسأقف - إن شاء الله - عند كل نوع وأبين طريقته في تناوله .

---

(١) التفسير : م٤ /٧ /١٧٩ عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ سورة آل عمران : آية ٥ .

المناسبة بين جزئيات الآية الواحدة :

اعتنى الفخر بالربط بين جزئيات الآية الواحدة ،التي تتكون من ألفاظ وجمل عدة ،تحمل معاني عدة ،وهذا النوع من الصعوبة بمكان ؛لأنه يبحث عن العلاقة القائمة بين الألفاظ والمعاني الجزئية في الجملة الواحدة ،واستخراج الخيط الجامع لهذه المعاني ،وهي في التفسير نوعان :

نوع يبحث عن المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة ألفاظاً وجملاً.

ونوع يبحث عن مناسبة ذيل الآية لصدرها .

النوع الأول :

استطاع الفخر ببصيرته النفاذة أن يربط بين الجمل المتجاورة في الآية الواحدة ،مما تخفى المناسبة بينهما ،كمناسبة الأمر بالغض من الصوت بالأمر بالقصد في المشي في قوله تعالى : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١) ،قال : (هل للأمر بالغض من الصوت مناسبة مع الأمر بالقصد في المشي ؟ فنقول : نعم سواء علمناها نحن أولم نعلمها ،وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ، ولا يصيبه عد ،ولا يعلمه أحد والذى يظهر وجوه :

الأول : هو أن الإنسان لما كان شريفاً تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطراً ،فأقدر الله الإنسان على تحصيلها بالمشي ،فإن عجز عن إدراك مقصوده ينادى مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشياً . . . فإذا كان المشي والصوت مفضيين إلى مقصود واحد لما أرشده إلى أحدهما أرشده إلى الآخر .

---

(١) سورة لقمان : ١٩ .

الثاني : هو أن الإنسان له ثلاثة أشياء : عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فإنه حركة وسكون ، وقول باللسان ، لا يشاركه فيه غيره ، وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه إلا لله ، وقد أشار إليه بقوله : ﴿ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ (١) .. بقي الأمران فقال : ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال ...) (٢).

ومن التأليف بين أجزاء الكلام في الآية الواحدة ما جاء في قوله تعالى (٣) : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ : (... ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحداً ، فإنه هو المصلح لمبهمات جميع العباد ، وهو الذى يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم ، ويعلم حاجتهم ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته ، ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه ... علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه) (٤).

ويربط الفخر هنا بين المعاني ربطاً معنوياً ، دون تمييز لمواقع الجمل ، فقد جاءت كلها أخباراً في خمس جمل ، فالجملة الأولى : ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ وأكدت بما بعدها في قوله : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فالربوبية تعني أنه متوحد في الألوهية ، ثم جاءت الجملة الثالثة أيضاً مؤكدة لما قبلها : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، ثم جاءت جملة : ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ جملة أمر كنتيجة لما قبلها من الأخبار ، فربوبيته وتوحده في الألوهية وخلقه لكل شيء يستدعي عبادته ، ثم جاءت الجملة الأخيرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ خاتمة تخبر عن كمال قدرته.

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٦.

(٢) التفسير : ٢٥/١٥١ م١٣.

(٣) سورة الأنعام : ١٠٢.

(٤) التفسير : ١٣/١٢٦ م٧.

وقد التفت الزمخشري إلى هذه الجمل وذكر أنها أخبار مترادفة يقول : ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ إشارة إلى الموصوف بما تقدم مبتدأ ، وما بعده أخبار مترادفة، وهي : ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي ذلكم الجامع لهذه الصفات ، ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ مسبب عن مضمون الجملة على معنى أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه .... ثم قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يعني وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال) (١).

وأحياناً لا تبدو هناك مناسبة بين جزئيات الآية الواحدة لكن الفخر يربط بينها ويظهر هذه العلاقة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) : (الوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة ، والعبادة نوع من أنواع فعل الخير، لأن فعل الخير ينقسم إلى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لأمر الله ، وإلى الإحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ، ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء ، وحسن القول للناس ، فكأنه سبحانه قال : كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة ، بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة، وهو فعل الخيرات) (٣).

وهكذا تتصاعد المعاني وتتدرج حتى تؤدي المعنى المقصود .

---

(١) الكشاف : ٢ / ٤١ .

(٢) سورة الحج : ٧٧ .

(٣) التفسير : ٢٣ / ٧٢ م١٢ .

وقد يربط الفخر بين آخر الآية والآية التي بعدها ،ويعد هذه المناسبة من أسباب فصاحة الكلام في قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) .

يقول : (... إنه تعالى أثبت الويل لمن كان موصوفاً بصفات ثلاثة ... واحتج بعضهم على أن الامتناع من إيتاء الزكاة يوجب الكفر ،فقال إنه تعالى لما ذكر هذه الصفة ذكر قبلها ما يوجب الكفر ،وهو قوله : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ،وذكر أيضاً بعدها ما يوجب الكفر ،وهو قوله : ﴿ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ فلو لم يكن عدم إيتاء الزكاة كفراً لكان ذكره فيما بين الصفتين الموجبتين للكفر قبحاً ،لأن الكلام إنما يكون فصيحاً إذا كانت المناسبة مرعية بين أجزائه) (٢) .

وفي كل هذا نجد الفخر يعتمد في بيان المناسبة على القرائن المعنوية دون التعرض لعلاقات الجمل اللفظية .

أما النوع الثاني فهو الذى يبحث في علاقة ومناسبة عجز الكلام لأوله كأن يبين صلة أواخر آيتين من سورة الحجرات تقاربتا في المعنى بأوائلهما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة فصلت : من الآية ٦ والآية ٧ .

(٢) التفسير : ٢٧ / ١٠١ م١٤ .

(٣) آية : ١١-١٢ .

يقول : (وإنما ختم الآيتين بذكر التوبة ،فقال في الأولى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ،وقال في الأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ ، لكن في الآية الأولى لما كان الابتداء بالنهي في قوله : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ذكر النفي الذى هو قريب من النهي ، وفي الآية الثانية لما كان الابتداء بالأمر في قوله : ﴿اجْتَنِبُوا﴾ ذكر الارتياب الذى هو قريب من الأمر). (١)

ويربط الفخر هنا بين بنية الكلام واتفاقه من حيث النظم ،ولا يتعرض للمناسبة بين المعاني ، على أن الألوسي قد ربط بين أول الآية وآخرها من ناحية المعنى فذكر في الآية الأولى أنه لما كانت السخرية والتنابز بالألقاب أفحش ذكر التهديد على صيغة النفي : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ ، ولما كان الظن والتجسس والغيبة في الآية الثانية أخفى جاءت الخاتمة على صيغة الأمر. (٢)

ويدخل تحت هذا النوع مشكلات الفواصل التي سأذكرها في مبحث الفواصل والتي تكشف عن المناسبة بين مضمون الآية وفاصلتها .

---

(١) التفسير : ١٣٦/٢٨ م١٤ .
(٢) روح المعاني : ١٦١/٢٦ .

المناسبة بين الآية وما قبلها :

أكثر الأنواع انتشاراً في التفسير ،فقد حرص الفخر على ربط أكثر الآيات بما قبلها قبل الشروع في تفسيرها .

فمن هذا النوع ما يكون الرابط بين الآية وما قبلها خفياً ،لا يظهر بوضوح وجلاء ،وهنا يقف الفخر أمام هذه الآيات ،ويتغلغل في معانيها ، و يبين وجه ارتباطها بما قبلها بطريقة عجيبة .

من ذلك أن الآية قد تقع بين عدة آيات ذات سياق واحد ،فلا تبدو مرتبطة بها ، فيكشف الفخر عن وجه ارتباطها .

مثل ذلك أن الله تعالى - في سورة البقرة - قد عدد على بني إسرائيل أنواع النعم التي أنعم بها عليهم ،فذكرهم بإنجائهم من آل فرعون ،وبغرقه للبحر وبعفوه عنهم بعد اتخاذهم العجل ،وبإنزاله الكتاب عليهم .

ثم قال : * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *.(١)

وقد قال بعض المفسرين إن هاتين الآيتين لا تعدان من النعم فكيف جاءت في سياقها ،وقد رد الفخر عليهم وبين صلتها بما قبلها .

يقول : (اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين : هذه الآية وما بعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم ؛وذلك لأنها أمر بالقتل ،

---

(١) سورة البقرة : ٥٤ - ٥٥ .

والقتل لا يكون نعمة وهذا ضعيف من وجوه :

أحدها : أن الله تعالى نبههم على عظم ذنبهم ، ثم نبههم على ما به يتخلصون من ذلك الذنب العظيم ، وذلك من أعظم النعم في الدين .

وثانيها : أن الله تعالى لما أمرهم بالقتل رفع ذلك الأمر عنهم قبل فنائهم بالكلية فكان ذلك نعمة في حق أولئك الباقين .

وثالثها : أنه تعالى لما بين أن توبة أولئك ما تمت إلا بالقتل مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يقول لهم لا حاجة بكم الآن في التوبة إلى القتل ، بل إن رجعتم عن كفركم وآمنتم قبل الله إيمانكم . .

ورابعها : أن فيه ترغيباً شديداً لأمة محمد صلوات الله وسلامه عليه في التوبة . . .) (١)

وهكذا ظل الفخر يجول بعقله في معنى الآية ، ويستل العلاقة الواحدة تلو الأخرى بعقلية فذة ، لا تخرج الآية عن معناها الصحيح وعن سياقها مع أخواتها ، وهذا ما ميزه في هذا الباب عن غيره كما رأينا وكما سنرى - إن شاء الله .

كما بين الفخر صلة قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (٢) بما قبله ، لأن الآية توهم أن لا مناسبة بينها وبين الآيات السابقة لها ، وقد أسهب في الحديث عن أوجه المناسبة .

يقول : (زعم قوم من قدماء الروافض (٣) أن هذا القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص عنه ، واحتجوا عليه بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ماقبلها ، ولو كان هذا الترتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك ، واعلم أن في بيان المناسبة وجوهاً :

---

(١) التفسير : ٣ / ٨٤ م ٢ . (٢) سورة القيامة : ١٦

(٣) الروافض : فرقة حدث أولها بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، كان مبدؤها إجابة ممن خذله الله تعالى لدعوة من كاد

===

أولها : يحتمل أن يكون الاستعجال المنهي عنه إنما اتفق للرسول عليه السلام عند إنزال هذه الآيات عليه. وهذا كما أن المدرس إذا كان يلقى على تلميذه شيئاً، فأخذ التلميذ يلتفت يميناً وشمالاً، فيقول المدرس في أثناء ذلك الدرس لا تلتفت يميناً وشمالاً، ثم يعود إلى الدرس، فإذا نقل ذلك الدرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السبب يقول إن وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنه حسن الترتيب.

وثانيها : أنه تعالى نقل عن الكفار أنهم يحبون السعادة العاجلة، وذلك هو قوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ ثم بين أن التعجيل مذموم مطلقاً حتى التعجيل في أمور الدين..

وثالثها : أنه تعالى قال: ﴿ بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ فههنا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر التعجيل في القراءة مع جبريل، وكان يجعل العذر فيه خوف النسيان، فكأنه قيل له... اترك هذا التعجيل واعتمد على هداية الله تعالى.

رابعها : كأنه تعالى قال: يا محمد إن غرضك من هذا التعجيل أن تحفظه وتبلغه إليهم، لكن لا حاجة إلى هذا، فإن ﴿ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾...

خامسها : أنه تعالى حكى عن الكافر أنه يقول: أين المفر؟ ثم قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ فالكافر كأنه كان يفر من الله تعالى إلى غيره، فقيل لمحمد إنك في طلب حفظ القرآن، تستعين بالتكرار، وهذا استعانة منك بغير الله فاترك هذه الطريقة، واستعن في هذا الأمر بالله...

=== للإسلام، وهي طائفة تجرى مجرى اليهود والنصارى من الكذب والكفر، تقول بألوهية عليّ بن أبي طالب وألوهية جماعة منهم. (الفصل في الملل والنحل، لابن حزم الظاهري : ٢/٧٨).

وسادسها : ما ذكره القفال وهو أن قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ ليس خطاباً مع الرسول عليه السلام بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله : ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ ..) (١) ثم قال : (وهذا مما لم ترد به الآثار) .

و ينقل إلينا الفخر أن الروافض نفوا المناسبة بين آيات القرآن ، وزعموا أنه سقط من سورة القيامة شيء (٢) وهم من جماعة الشيعة الذين قالوا إن القرآن حرف وأسقط من آياته و بعض سوره .

وهناك من أنكر حسن التخلص، وهو نوع من أنواع المناسبة في القرآن ، كأبي العلاء محمد بن غانم (٣) فقد قال : لم يقع منه في القرآن شيء لما فيه من التكلف . وحسن التخلص هو أن ينتقل مما ابتدىء به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما (٤) . وقال أيضاً : (إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم) (٥) .

ورد على كلامه ابن الأثير ودلل على ترابط القرآن و حسن التخلص فيه بآيات كثيرة (٦) ، كذلك ذكر الزركشي في البرهان بعضاما ذكره ابن الأثير وزاد عليه (٧) .

---

(١) التفسير : ٢٢٣/٣٠ م١٥ .

(٢) ينظر الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ١٤١/٢ .

(٣) أبو العلاء محمد بن غانم كان من شعراء عصره وفضلائه ، وهو من شعراء نظام الملك .

(٤) ينظر تعريفه في الإيضاح ، الخطيب القزويني : ٥٩٦ ، البديع ، ابن أبي الأصبع : ١٦٧ .

(٥) الإتقان في علوم القرآن : ١٤٠/٢ .

(٦) المثل السائر : ١٢٨/٣ ومابعدها .

(٧) ٤٣/١ ومابعدها .

وهذا الطعن في ترتيب كتاب الله فتح للمستشرقين باباً ينفذون منه للنيل من كتاب الله، فقالوا : إن القرآن ليس على سياق واحد في السور، فالمعنى متقطع، والآيات ليست مترابطة، نلمح ذلك بوضوح في كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، وكتابي (مذاهب التفسير الإسلامي) و (العقيدة والشريعة في الإسلام) لجولد تسيهر .(١)

أدع هذا لأقول إن الفخر أكثر من أوجه المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وما قبلها من آيات مع ملاحظة أن أكثر الوجوه متقاربة في المعنى مع فارق ضئيل جداً، تأمل الوجه الأول والوجه الثالث، تجد التشابه واضحاً، ولا عجب فهذه طريقة الفخر في توليد المعنى من المعنى، واستنباط الوجوه الكثيرة حتى الضعيف منها، مثل ما ذكره للقفال من وجه لم ترد به الآثار .

ويظهر أن أبا حيان لم يرض بطريقته هذه في استنباط المعاني فذكر وجهاً يراه مناسباً للمناسبة بين الآية وما قبلها .

يقول : (ذكر أبو عبد الله الرازي في تفسيره أن جماعة من قدماء الروافض زعموا أن القرآن قد غير وبدل وزيد فيه ونقص منه، وأنهم احتجوا بأنه لا مناسبة بين هذه الآية وما قبلها، ولو كان التركيب من الله تعالى ما كان الأمر كذلك، ثم ذكر الرازي مناسبات على زعمه يوقف عليها في كتابه، ويظهر أن المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنه تعالى لما ذكر منكر القيامه والبعث معرضاً عن آيات الله تعالى ومعجزاته، وأنه قاصر شهواته على الفجور، غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلم آيات الله وحفظها وتلقفها

---

(١) ينظر الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره، د. محمد أحمد يوسف القاسم : ٥٠٢ ومابعدها .

والنظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إياها ، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها) (١) .

وهذا الوجه الذى يراه مناسباً يمت إلى الوجه الثاني بسبب .

وقد يتحول الأسلوب عن النمط الذى يسير عليه ، فيبين الفخر مناسبته للسياق وصلته بما قبله .

من ذلك أنه يبين وجه اعتراض قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (٢) واقعة بين قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٤) .

يقول : (واعلم أن في الآية إشكالاً وهو أن قوله : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ كلام الله ، وقوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ كلام غير الله ، فكيف جاز عطف هذا على ما قبله من غير فصل ؟ والجواب: أنه إذا كانت القرينة ظاهرة لم يقبح ، كما أن قوله سبحانه : ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهو كلام الله ، وقوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ كلام غير الله ، وأحدهما معطوف على الآخر . واعلم أن ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ خطاب جماعة لواحد وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول ويحتمل في سببه ما روى أن قريشاً بعثت خمسة رهط

---

(١) البحر المحيط : ٣٨٨/٨ .

(٢) سورة مريم : ٦٤ .

(٣) سورة مريم : ٦٣ .

(٤) سورة مريم : ٦٥ .

إلى يهود المدينة يسألونهم عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم وهل يجدونه في كتابهم فسألوا النصارى فزعموا أنهم لا يعرفونه ، وقالت اليهود نجده في كتابنا وهذا زمانه ، وقد سألنا رحمن اليمامة عن خصال ثلاث فلم يعرف فاسألوه عنهن ، فإن أخبركم بخصلتين منهما فاتبعوه ، فاسألوه عن فتية أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح ، قال فجاءوا فسألوه عن ذلك فلم يدرك كيف يجيب فوعدهم أن يجيبهم بعد ذلك ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً فشق عليه ذلك . . . فنزل جبريل عليه السلام فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أبطأت عني حتى ساء ظني واشتقت إليك ، قال : إنّي كنت أشوق ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال أبو مسلم : (قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ يجوز أن يكون قول أهل الجنة ، والمراد وما نتنزل الجنة إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا أى فى الجنة مستقبلاً وما خلفنا مما كان في الدنيا وما بين ذلك ، أى ما بين الوقتين وما كان ربك نسياً لشيء مما خلق . . .) .(١)

ثم ينقض الفخر قول أبي مسلم بقول للقاضي عبد الجبار يقول فيه : إن قوله مخالف للظاهر من وجوه ثم يذكرها .

وكأن الفخر حين ذكر القول ونقضه أراد أن يبين أن رأيه هو الأرجح ، فهذا القول هو قول الملائكة .

وينقل أبو حيان عن قوم أن قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ متصل بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ثم ضعفه ، ثم ذكر الوجه الذى رآه الفخر محتملاً من أن هذا هو قول جبريل .(٢)

---

(١) التفسير الكبير : ٢١/٢٣٩ - ٢٤٠ م١١ .

(٢) ينظر البحر المحيط : ٦/٢٠٣ .

ونلاحظ أنه يُنظَّر للمناسبة في هذه الآية وماقبلها بصلة قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (١) بما قبله :

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢).

وقد عدت إلى هذه الآية في التفسير لأرى ما يقول في صلتها فوجدته يقول : (أنه لا يصح أن يقول الله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى وفيه قولان :

الأول : التقدير فقل يا محمد إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله .

الثاني : قال أبومسلم الأصفهاني : (الواو في ﴿ وإن الله ﴾ عطف على قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ كأنه قال إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه ، قال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه ومولده ونعته إن الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى) (٣).

وقد ذكر ابن حزم هذه الآية وهو يدلل على أن إعجاز القرآن ليس بالبلاغة ، بل لأنه قرآن وفيه ما يخالف المعهود من كلام الناس ، ومن مخالفة المعهود إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما .

يقول : (ونحن نجد في القرآن إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا في صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير) (٤).

---

(١) سورة مريم : ٣٦ .

(٢) سورة مريم : ٣٥ .

(٣) التفسير : ٢١/٢٢٠ م١١ .

(٤) ينظر الفصل في الملل والأهواء والنحل : ٣/ ٢١ - ٢٢ .

وسبقه ابن وهب في نقد النثر فقد ذكر في باب (القطع والعطف) أن هناك نوعاً من الكلام يكثر في القرآن ، وهو أن يقطع الكلام ثم يأتي فن آخر من القول ، ثم يعطف عليه تمام الكلام الأول (١) ، ودلل بآيات أدخل الفخر بعضها تحت باب الاعتراض كآية المائدة (٢) وغيرها .

وكان الفخر يشير أحياناً إلى خروج الكلام عن سياقه إشارة يسيرة ، كأن يبين صلته بما قبله .

فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) التي جاءت في ثنايا قصة إبراهيم عليه السلام : (لما فرغ من باب التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال : ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا ﴾ وفي المخاطب في هذه الآية وجهان :

أحدهما : أنه قوم إبراهيم ، والآية حكاية من قوم إبراهيم . . .

والثاني : أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ، ووجهه أن الحكايات أكثرها إنما تكون لمقاصد لكنها تنسى لطيب الحكاية ، ولهذا كثيراً ما يقول الحاكي لأي شيء حكيت هذه الحكاية ، فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى . . .) (٤)

---

(١) ص : ٧٢ .

(٢) أي قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة المائدة : ٣ .
ينظر التفسير : ١٤٣/١١ م٦ .

(٣) سورة العنكبوت : ١٨ .

(٤) التفسير : ٤٦/٢٥ م١٣ .

والظاهر أن الفخر يرجح القول الثاني بدلالة أنه يوضحه بالأمثلة وهو هنا لم يلتفت إلى كون الآية خارجة عن السياق ، وإنما بين صلتها بما قبلها ومناسبتها له .

ومن الآيات ما لا يحتاج إلى جهد في استخراج المناسبة ؛ لأن الصلة بين الجزءين واضحة ، وفي هذا النوع تتنوع العلاقات والمناسبات ، فالفخر إما أن يربط بعضها ببعض من الناحية اللفظية والموقع الإعرابي ، وإما أن يكتفي بإيجاد الروابط المعنوية كأن تكون الآية توكيداً ، أو تفسيراً ، أو تفصيلاً أو علة وسبباً ، أو تكون العلاقة علاقة مضادة .

والنوع الأول يتخذ من النحو طريقاً لبيان العلاقات .

مثل أن يربط بين قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١) بما بعدها من آيات وهي من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (٢) إلى قوله تعالى : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (٣) يقول : (اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا ؟ فيه قولان :

القول الأول : أنها متعلقة بما قبلها ، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان : الأول : أنه يجوز أن يكون قوله : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ صفة لأولى الألباب .

الثاني : أن يكون ذلك صفة لقوله : ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ .

---

(١) سورة الرعد : ١٩ .

(٢) سورة الرعد : ٢٠ .

(٣) سورة الرعد : ٢٤ .

القول الثاني : أن يكون قوله : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ مبتدأ ، و﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ خبره . . . واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة شرط وجزاء ، وشرطها مشتمل على قيود ، وجزاؤها يشتمل أيضاً على قيود)(١).

وقد ذكر الزمخشري هذين الوجهين ورجح الوجه الثاني ، يقول : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ مبتدأ ، و﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ، خبره كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ - أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ويجوز أن يكون صفة لأولي الألباب، والأول أوجه)(٢).

ثم يذكر الفخر كيف تترابط أجزاء الجملة ، فهي مكونة من شرط وجزاء وللشرط قيود ، وللجزاء قيود ، أما قيود الشرط فهي تسعة :

القيد الأول : قوله : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾.

القيد الثاني : قوله : ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ .

القيد الثالث : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ .

القيد الرابع : قوله : ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ .

القيد الخامس : لم يذكره الفخر ولكن أشار إليه بقوله : (وهذا القيد الخامس إشارة إلى الخوف والخشية وسوء الحساب) وهذا يعني أن هذا القيد هو قوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾

القيد السادس : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾.

القيد السابع : قوله : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ .

القيد الثامن : قوله : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ .

القيد التاسع : قوله : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ .

---

(١) التفسير : ١٩/ ٤١ م١٥.
(٢) الكشاف : ٢/ ٣٥٧.

ثم يقول : (واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط،أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة :

القيد الأول : قوله : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.

القيد الثاني : قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ .

القيد الثالث : قوله : ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ .

القيد الرابع : قوله : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾.(١)

و ﴿ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ هى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ ولا تعد قيداً مستقلاً ، فهي بدل من عقبى الدار ،بدل كل من كل .(٢)

وهكذا نجد الفخر يتابع هذا الترابط في هذه الآيات ،بل إنه يسميها آية واحدة ،لأنها بترابطها تكوّن معنى واحداً .

وتأتي جمل الصفات متولدة من الجملة الأم ،تحكى صفات من يسارع في الخيرات في قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾.(٣)

يقول : (اعلم أنه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ ثم قال : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ يبين صفات من يسارع في الخيرات ويشعر بذلك،وهي أربعة :

---

(١) التفسير : ١٩/٦١-٤٦ م١٠.

(٢) ينظر روح المعاني ،للألوسي : ١٤٣/١٣.

(٣) سورة المؤمنون : ٥٥-٥٦.

الصفة الأولى : قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ .

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ . . .

واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، لأن الصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد . . . والصفة الثالثة (١) : دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والصفة الرابعة (٢) : دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير) (٣) .

وقد عنى الفخر هنا بتطبيق نظرية النظم التي أخذها من عبد القاهر والتي ذكرها في (نهاية الإيجاز) فقال : (النظم عبارة عن توخي معاني النحويين الكلم) ، فمعناها تعلق الجمل بعضها ببعض ، والمناسبات تهتم بتتابع جزئيات المعنى في الآية ، ثم علاقة الآية بالآية ، وقد تمتد فتبين علاقتها بغيرها من الآيات .

ومن الروابط المعنوية ، أن تكون الآية توكيداً لما قبلها كما في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (٤) يقول : (اعلم أنه تعالى لما أمر اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض ، ثم أمر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض ، أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة تأكيداً للأمر) (٥) .

---

(١) ، (٢) ذكر الفخر الصفة الثانية والمراد بها الثالثة ، وذكر الثالثة وأراد الرابعة وقد صححتها ، والظاهر أنه خطأ في الطباعة .

(٣) التفسير : ٢٣/١٠٧-١٠٨ م١٢ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ .

(٥) التفسير : ٨/١٨٥ م٤ .

أو تكون الآية تفسيراً ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾.(١)

يقول : (أنه تعالى لما ذكر أنه يغني كلاً من سعته ، وأنه واسع أشار إلى ما هو كالتفسير لكونه واسعاً فقال : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ .(٢)

وقد تُفصِّل الآية ما قبلها مما أجمل ، مثل ما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ المَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾.(٣)

يقول : (اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٤) فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم .. ما كانوا ليؤمنوا ..) .(٥)

وقد تكون الآية سبباً لما قبلها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ .(٦)

يقول : (واعلم أنه تعالى لما حكم على أولئك المنكرين بالخسران في الآية الأولى بين في هذه الآية سبب ذلك الخسران) .(٧)

---

(١) سورة النساء : من الآية ١٣١.

(٢) التفسير : ١١/٧٠ م٦.

(٣) سورة الأنعام : من الآية ١١١.

(٤) سورة الأنعام : من الآية ١٠٩.

(٥) التفسير : ١٣/١٥٧ م٧.

(٦) سورة الأنعام : ٢١.

(٧) التفسير : ١٢/١٩١ م٧.

وقد تكون العلاقة المضادة بين موضوعين ، وقد لاحظ الفخر اطراد مثل هذه المناسبات بين الموضوعات في كل القرآن ، والحكمة في ذلك أن الأشياء تتبين بأضدادها .

فالشرك يأتي مع التوحيد يقول في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (١) : (اعلم أنه سبحانه وتعالى لما قرر التوحيد بالدلائل القاهرة القاطعة أردف ذلك بتقبيح ما يضاد التوحيد ، لأن تقبيح ضد الشيء مما يؤكد حسن الشيء ، ولذلك قال الشاعر :

﴿ وبضدها تتبين الأشياء ﴾

وقالوا أيضاً : النعمة مجهولة ، فإذا فقدت عرفت ، والناس لا يعرفون قدر الصحة ، فإذا مرضوا ثم عادت الصحة إليهم عرفوا قدرها ، وكذا القول في جميع النعم ، فلهذا السبب أردف الله تعالى الآية الدالة على التوحيد بهذه الآية) . (٢)

وتأتي آيات الوعد مع آيات الوعيد لحكمة يذكرها الفخر يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣) : (اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد وذلك لفوائد :

أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه . .

ثانيها : أن المؤمن لا بد أن يعتدل خوفه ورجاؤه . .

ثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته . .) . (٤)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٦٥ .

(٢) التفسير : ٢/٢٢٥ م١ .

(٣) سورة البقرة : ٨٢ .

(٤) التفسير : ٣/١٧٤ م٢ .

ويذكر حال المؤمن بعد بيان حال الكافر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾(١) : (... على ما هو عادة القرآن من بيان حال المؤمن بعد بيان حال الكافر ،وذكر الثواب عقيب ذكر العقاب ليتم أمرالترهيب والترغيب)(٢) .

كذلك يذكر الربا بعد ذكر الصدقات ، يقول في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾(٣) : (اعلم أن بين الربا وبين الصدقة مناسبة من جهة التضاد ،وذلك لأن الصدقة عبارة عن تنقيص المال بسبب أمر الله بذلك ، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه ،فكانا متضادين)(٤) .

ويأتي ذكر دلائل الآفاق بعد ذكر دلائل الأنفس .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ... فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴾(٥) : (واعلم أن عادة الله تعالى جارية في القرآن بأنه كلما ذكر الدلائل الموجودة في الأنفس ،فإنه يذكر عقيبها الدلائل الموجودة في الآفاق)(٦) .

---

(١) سورة الطور : ١١ وآية : ١٨ .

(٢) التفسير : ٢٧/٢٤٧ - ٢٤٨ م١٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٧٥ .

(٤) التفسير : ٧/٩١ م٤ .

(٥) سورة عبس : ١٧- ٢٦ .

(٦) التفسير : ٣١/٦٢ م١٦ .

واهتمام الفخر بمثل هذه الروابط بين موضوعات القرآن تفتح الطريق للباحثين إلى النظر في الموضوعات المطردة في القرآن ومعرفة طرق أدائها ، ومناسبتها لسياقها الواردة فيه .

وهكذا فهذه الأنواع التي ذكرتها تمثل أكثر وأبرز ما في التفسير من الروابط .

المناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة :

أى ربط أجزاء السورة بعضها ببعض حتى تصير كالبناء المتلاحم الأجزاء وهذا النوع يوقفنا على الغرض الأساسي الذى بنيت عليه السورة .

وقد اعتنى الفخر بربط نجوم أكثر سور القرآن ، وبيان النسق الذى تسير عليه الآيات في السورة الواحدة .

فمثلاً نراه يربط بين موضوعات سورة البقرة في وحدة كاملة ، حتى بدت لنا على طولها سورة صغيرة يمكن الإحاطة بموضوعاتها .

فيقول عند وصوله إلى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١) : (إن الله سبحانه وتعالى تكلم من أول السورة إلى ههنا في دلائل التوحيد والنبوة ، واستقصى في الرد على اليهود والنصارى ، ومن هنا شرع في بيان الأحكام) (٢) .

ثم سرد الأحكام :

الحكم الأول : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ... ﴾ (٣) .

الحكم الثاني : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (٤) .

الحكم الثالث : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٥) .

الحكم الرابع : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (٦) .

الحكم الخامس : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (٧) .

الحكم السادس : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٨) .

---

(١) آية ١٧٢ .
(٢) التفسير : ٥/٩ م٣ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ١٧٣ .
(٤) سورة البقرة : من الآية ١٧٤ .
(٥) سورة البقرة : من الآية ١٧٧ .
(٦) سورة البقرة : من الآية ١٧٨ .
(٧) سورة البقرة : من الآية : ١٨٠ .
(٨) سورة البقرة : من الآية ١٨٣ .

ثم تتتابع الأحكام فيأتي بعده حكم الاعتكاف، وحكم الأموال، والقتال والحج .

ثم بين الصلة بين ذكر أحكام الحج وقوله تعالى بعده : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ (١) ، يقول : (اعلم أن الله تعالى بين أولاً تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ المَشْعَرِ الحَرَامِ ﴾ ...

ثم بين بعد ذلك الذكر كيفية الدعاء فقال : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ﴾ وما أحسن هذا الترتيب ، فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ، ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله لتنوير القلب وتجلي نور جلاله) (٢) .

ثم تعود السورة ثانية لبيان الأحكام ، فيذكر حكم الإنفاق ، والقتال ، والخمر ، وكمية الإنفاق ، واليتامى ، وفيما يتعلق بالنكاح ، وبالمحيض ، وبالإيمان ، وبالإيلاء والطلاق ، وفي الرضاع ، وفي عدة الوفاة ، وفي خطبة النساء ، وفي المحافظة على الصلوات .

ثم تأتي بعد كل هذه الأحكام القصص بدءاً بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ (٣) يقول الفخر : (واعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ، ليفيد الاعتبار للسامع ، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد ، ومزيد الخضوع والانقياد) (٤) .

---

(١) سورة البقرة : من الآية : ٢٠٠ .

(٢) التفسير : ٥/ ٢٠٢ م٣ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٤٣ .

(٤) التفسير : ٦/ ١٧٤ م٣ .

ثم تلت هذه القصة قصة طالوت، ويختلط بهذه القصة الأمر بالقتال ثم الأمر بالإنفاق، ثم يلي ذلك آية الكرسي: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (١)، يقول: (اعلم أن من عادته سبحانه وتعالى في هذا الكتاب الكريم أنه يخلط هذه الأنواع الثلاثة بعضها بالبعض، أعني علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم القصص، والمقصود من ذكر القصص إما تقرير دلائل التوحيد، وإما المبالغة في إلزام الأحكام والتكاليف، وهذا الطريق هو الطريق الأحسن لإبقاء الإنسان في النوع الواحد، لأنه يوجب الملال، فأما إذا انتقل من نوع من العلوم إلى نوع آخر فكأنه يشرح به الصدر، ويفرح به القلب، فكأنه سافر من بلد إلى آخر، وانتقل من بستان إلى بستان آخر ... ولما ذكر فيما تقدم من علم الأحكام ومن علم القصص وما رآه مصلحة ذكر الآن مايتعلق بعلم التوحيد) (٢).

ثم تعود السورة لسرد ثلاث قصص:

القصة الأولى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ (٣).

القصة الثانية: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾ (٤).

القصة الثالثة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ (٥).

ثم تتبعها آيات الإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة: من الآية ٢٥٥.

(٢) التفسير: ٢/٧ م٤.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٥٨.

(٤) سورة البقرة: من الآية ٢٥٩.

(٥) سورة البقرة: من الآية ٢٦٠.

(٦) سورة البقرة: من الآية ٢٦١.

يقول الفخر : (اعلم أنه سبحانه لما ذكر من بيان أصول العلم بالمبدأ وبالمعاد ومن دلائل صحتهما ما أراد أتبع ذلك ببيان الشرائع والتكاليف) (١) .

ويطول الحديث عنها فيتفرع منها الحديث عن الصدقات ، ثم عن الربا ، ثم عن طريقة حفظ المال وذلك في آية المداينة : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . . ﴾ (٢) ومابعدها .

ثم تُختتم السورة بقوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (٣) فيذكر الفخر وجوهاً في كيفية نظمها منها أنه يقول : (وأقول إنه قد ثبت أن الصفات التي هي كمالات حقيقية ليست إلا القدرة والعلم ، فعبر سبحانه عن كمال القدرة بقوله : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ مِلْكاً وَمُلْكاً ، وعبر عن كمال العلم المحيط بالكليات والجزئيات بقوله : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ وإذا حصل كمال القدرة والعلم ، فكان كل من في السموات والأرض عبيداً مربوبين وجدوا بتخليقه وتكوينه كان ذلك غاية الوعد للمطيعين ، ونهاية الوعيد للمكذبين ، فلهذا السبب ختم الله هذه السورة بهذه الآية) (٤) .

وهكذا رأينا سورة البقرة على طولها بدت كسورة صغيرة ، ذات موضوعات عديدة مترابطة على نظام عجيب .

وسأتناول سورة أخرى تتضح فيها طريقة الفخر في الربط بين موضوعات السورة الواحدة ، حيث يتتبع كل آياتها ، ويبين طريقة ربط بعضها ببعض وطريقة تصاعد معانيها .

---

(١) التفسير : ٤٧/٧ م٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٢ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤ .

(٤) التفسير : ١٣٤/٧ م٤ .

سأعرض لسورة (فصلت) وهي أربع وخمسون آية نزلت في مكة، وقد قامت السورة على رد شبهات الكفار من بدايتها إلى نهايتها، ولذلك قال الفخر عنها عند تفسير آية منها: (فكل من أنصف ولم يتعسف علم أنا إذا فسرنا هذه الآية [١] على الوجه الذى ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مسوقاً نحو غرض واحد) [٢].

بدأت السورة بذكر الكتاب وجلالة قدره: * حم تَنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * [٣].

ثم يعرض القرآن لأقوال الكفار: * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ *.

يقول الفخر: (اعلم أنهم لما وصفوا أنفسهم بهذه الصفات الثلاثة قالوا: * فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ * والمراد فاعمل على دينك إننا عاملون على ديننا ... ولما حكى الله عنهم هذه الشبهة أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجيب عن هذه الشبهة بقوله: * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ * وبيان هذا الجواب كأنه يقول: إني لا أقدر أن أحملكم على الإيمان جبراً وقهراً، فإني بشر مثلكم ولا امتياز بيني وبينكم إلا بمجرد أن الله عز وجل أوحى إليّ) [٤].

وقد وجدت الإمام البقاعي يذكر علة تختلف عما قاله الفخر.

---

(١) الآية هي قوله تعالى: * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ * سورة فصلت: ٤٤.

(٢) التفسير: ١٣٥/٢٧ م١٤.

(٣) آية: ١-٢-٣.

(٤) التفسير: ٩٩/٢٧ م١٤.

يقول : (ولما أخبروا بإعراضهم وعللوا بعدم فهمهم لما يدعو إليه أمره سبحانه بجواب يبين أنهم على محض العناد فقال : ﴿ قُلْ ﴾ أي لهوءلاء الذين عجزوا عن رد شيء من أمرك بشيء يقبله ذو عقل، فادعوا ما ينادى عليهم بالعجز: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لا غير بشر مما لا يرى ، والبشر يرى بعضه بعضاً ويسمعه و يبصره ، فقولكم إنه لا وصول لكم إلى روءيتي ولا إدراك شيء مما أقول مما لا وجه له أصلاً) . (١)

فالبقاعي أكثر تفصيلاً للمناسبة ولمعنى الآية.

ثم يربط الفخر بين جزئيات الآيتين اللتين جاءتا في الرد على شبهتهم الأولى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ . (٢)

يقول : (ثم بين أن خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين : العلم والعمل . أما العلم فالرأس والرئيس فيه معرفة التوحيد ، وذلك لأن الحق هو أن الله واحد وهو المراد من قوله : ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وإذا كان الحق في نفس الأمر ذلك وجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله : ﴿ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ ... فلما أمر بذلك انتقل إلى وظيفة العمل والرأس والرئيس فيه الاستغفار فلهذا السبب قال : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ ... ولما رغب الله تعالى في الخير والطاعة أمر بالتحذير عما لا ينبغي فقال : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ . (٣)

---

(١) نظم الدرر في مناسبة الآيات والسور : ١٧/ ١٤٣-١٤٤ .

(٢) آية : ٦-٧ .

(٣) التفسير : ٢٧/ ٩٩ - ١٠٠ م١٤ - من الآية ٦ والآية ٧ .

والفخر هنا يستل معنى كل جملة ويربطه بما قبله ،فالآية الأولى في الرد على الكفار جاءت في ست جمل جاءت مقول القول قل :

* إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ *

* يُوحَى إِلَيَّ *

* أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ *

* فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ *

* وَاسْتَغْفِرُوهُ *

* وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ *

ثم بين صلة الآية الثانية : * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ... * بالأولى فيقول : (إن العقول والشرائع ناطقة بأن خلاصة السعادات مربوطة بأمرين : التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله ... وأفضل أبواب التعظيم لأمر الله الإقرار بكونه واحداً ... ولما كان أفضل أنواع المعاملة مع الخلق هو إظهار الشفقة عليهم كان الامتناع من الزكاة أخس الأعمال) .(١)

ثم تفرعت من الحجة الأولى التي أمر الله نبيه بأن يرد بها على المشركين حجة أخرى : * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * .

ثم ذكر تعالى خلقه للأرض وللسماء لإثبات ألوهيته ، ثم لما تمت تلك الحجة أوعدهم الله بالعذاب الشديد فقال : * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * وذكر قصة عاد وثمود مع قومهم في ست آيات حتى الآية الثامنة عشرة ، ثم يمتد الكلام ليبين عقوبة الكفار في الآية ،ويتصل بعضه مع بعض حتى الآية الخامسة والعشرين .

---

(١) التفسير : ٢٨/١٠٠ م١٤ .

ثم تأتي شبهة أخرى قال بها الكفار ،فتأتي الآيات بعدها رداً عليها يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) : (اعلم أن الكلام في أول السورة ابتدىء من قوله : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فأجاب الله تعالى عن تلك الشبهة بوجوه من الأجوبة ،واتصل الكلام بعضه بالبعض إلى هذا الموضع ،ثم إنه حكى عنهم شبهة أخرى فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ . ولما ذكر الله تعالى ذلك هددهم بالعذاب الشديد فقال : ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾) (٢)

وبعد هذا الوعيد جاء الوعد الذى هو من خصائص ترتيب القرآن .

يقول الفخر : (واعلم أنه تعالى لما أطنب في الوعيد أردفه بهذا الوعد الشريف ،وهذا ترتيب لطيف مدار كل القرآن عليه) (٤) .

وجاء الوعد في ثلاث آيات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (٥) .

---

(١) آية : ٢٦-٢٧ .

(٢) التفسير : ٢٨ / ١٢٠ م ١٤ .

(٣) المصدر السابق : ٢٨ / ١٢٠-١٢١ .

(٤) المصدر السابق : ٢٨ / ١٢٢ .

(٥) آية : ٣٠-٣١-٣٢ .

فهذا الوعد داخل تحت ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم بالمواظبة على الدعوة إلى الله ، ثم ترقى إلى درجات أخرى في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.(١)

يقول الفخر مبيناً كيف ترابطت الموضوعات من أول السورة إلى هذه الآيات : (واعلم أنا بينا أن الكلام من أول السورة ابتدىء من أن الله حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ فاظهروا من أنفسهم الإصرار الشديد على أديانهم القديمة . . . ثم إنه تعالى أطنب في الجواب عنه وذكر الوجوه الكثيرة وأردفها بالوعد والوعيد ، ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ وأجاب عنها أيضاً بالوجوه الكثيرة ، ثم إنه تعالى بعد الإطناب في الجواب عن تلك الشبهات رغب محمداً صلى الله عليه وسلم في أن لا يترك الدعوة إلى الله ، فابتدأ أولاً بأن قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فلهم الثواب العظيم ، ثم ترقى من تلك الدرجة إلى درجة أخرى وهي أن الدعوة إلى الله من أعظم الدرجات ، فصار الكلام من أول السورة إلى هذا الموضع واقعاً على أحسن وجوه الترتيب . ثم كأن سائلاً سأل فقال : إن الدعوة إلى الله وإن كانت طاعة عظيمة ، إلا أن الصبر على سفاهة هؤلاء الكفار شديد لا طاقة لنا به ، فعند هذا ذكر الله ما يصلح لأن يكون دافعاً لهذا الإشكال فقال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾.(٢)

---

(١) آية : ٣٣-٣٤ .

(٢) التفسير : ٢٨/١٢٨ م١٤ .

ثم تتحدث السورة عن آيات الكون الدالة على قدرة الله تعالى .

فيقول الفخر رابطاً بينها وبين ما قبلها من موضوعات : (اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن أحسن الأعمال والأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى أردفه بذكر الدلائل الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، تنبيهاً على أن الدعوة إلى الله تعالى عبارة عن تقرير الدلائل الدالة على ذات الله وصفاته ، فهذه تنبيهات شريفة مستفادة من تناسق هذه الآيات ،فكان العلم بهذه اللطائف أحسن علوم القرآن) (١) .

فعلم المناسبات فيه من الدقائق ما يجعله أحسن علوم القرآن كما يقول الفخر .

ثم تأتي آية أخرى ترد على شبهة الكفار الأولى في أول السورة وهكذا تتسق آيات السورة من أولها لآخرها نحو غرض واحد وهو الرد على مطاعن الكفار .

وذلك في قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢) .

يقول الفخر : (وقد ظهر في كلامنا في تفسير هذه السورة أن المقصود من هذه السورة هو ذكر الأجوبة عن قولهم : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ فتارة ينبه على فساد هذه الطريقة ،وتارة يذكر الوعد والوعيد لمن لم يؤمن بهذا القرآن ولمن يعرض عنه ،وامتد الكلام إلى هذا الموضع من أول السورة على

---

(١) المصدر السابق : ٢٧/ ٢٩ .

(٢) آية : ٤٤ .

الترتيب الحسن والنظم الكامل ، ثم إنه تعالى ذكر جواباً آخر عن قولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ . . . ﴾ فقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ .(١)

ويعترض الفخر على من قال إن هذه الآية أنزلت رداً على من قال : لو نزل القرآن بلغة العرب ؛ لأن ذلك يقتضي عدم المناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها ، ولأن فهم الآية بعيداً عن سياقها قد يوقع في لبس وتحيف ظالم ، يقول : (وعندى أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن ؛ لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض ، وأنه يوجب أعظم أنواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منتظماً ، فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً ؟ بل الحق عندى أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد ، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ وهذا الكلام أيضاً متعلق به وجواب له ، والتقدير : أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا : كيف أرسلت الكلام العجمى إلى القوم العرب ، ويصح لهم أن يقولوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى من هذا الكلام : ﴿ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ﴾ منه لأننا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه . . . فظهر أنا إذا جعلنا هذا الكلام جواباً عن ذلك الكلام ، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم ، وأما على الوجه الذى يذكره الناس فهو عجيب جداً) .(٢)

وهكذا أخذ الفخر يلح كثيراً على إثبات ترابط السورة وانتظامها في موضوعاتها ، سائرة نحو غرض واحد ، لا تكاد تنحل عقدة منه .

---

(١) التفسير : ٢٨ / ١٣٤ م١٤ .
(٢) المصدر السابق : ٢٨ / ١٣٤ م١٤ .

ثم ختمت السورة بأحوال يوم القيامة وبتهديد المشركين ،فيعمل الفخر على ربطها بأول السورة و بموضوعها .

يقول : (ثم إنه تعالى لما ذكر القيامة أردفه بشيء من أحوال يوم القيامة وهذا الذى ذكره ههنا شديد التعلق أيضاً بما وقع الابتداء به من أول السورة ،وذلك لأن أول السورة يدل على أن شدة نفورهم عن استماع القرآن إنما حصلت من أجل أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى التوحيد . . . بدليل أنه قال في أول السورة : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فذكر في خاتمة السورة وعيد القائلين بالشركاء والأنداد .)(١)

وهكذا نرى اتساق المعاني وائتلاف الأغراض فى السورة الواحدة ،وكأنها في تناسقها بناء هندسى قد أحكم وأتقن حتى صار كلاً لا يتجزأ ، إذ ليس هناك فجوات ولا انحلال بين المعاني والأغراض،فالسورة كلها بناء حى متماسك .

ولا أدرى لماذا اهتم الفخر بالمناسبات بين الأغراض العامة فى السورة دون التعرض لنظم الآيات و تآلف الألفاظ والمعاني الجزئية في كل آية من السورة ؟

وأظن أنه كان يريد أن يبين المناسبات بين الموضوعات التي قد تخفى الصلة بينها ،والتي قد تكون منفذاً للطعن في القرآن ،أما المناسبة بين جزئيات الآية الواحدة فمما يسهل معرفته لكل قارئ .

---

(١) التفسير : ١٣٧/٢٨ م١٤ .

صلة أول السورة بآخرها :

اتفق العلماء على أن ترتيب آيات القرآن في السور توقيفي من الله تعالى ، فجبريل ينزل بالآية ويوقف الرسول على سورتها وموضعها من السورة .

وقد بين الفخر العلاقة بين أول السورة وآخرها في بعض الصور دون بعض، وهذا يثير في النفس سؤالاً لماذا اقتصر الفخر على بعض السور دون بعض مع أنه كان قادراً على إيجاد العلاقة بين أول كل سورة وآخرها ، أو على الأقل في أكثر السور .

ذلك أنني لاحظت أنه يتناول الكشف عن المناسبة هذه في أقل من عشر سور ، والسبب في ذلك كما أظن أنه قد شغل بالمسائل الأخرى كالبحث عن المناسبة بين أكثر الآيات أو المسائل الأخرى من غير البلاغة ، أو أن المناسبة كانت تخفى عليه ولا تظهر ظهوراً بيناً فآثر ترك الحديث عنها .

ومن السور التي اهتم بالصلة بين أولها وآخرها سورة البقرة ، فبعد أن بين صلة أكثر آياتها ، والموضوع الذى بنيت عليه ، أخذ يبين الوشائج التي تربط أول السورة بآخرها ، وأراه يقابل بين آياتها بطريقة تنبئ عن معرفة بدقائق المعاني في الكلمات .

قال : (إنه بدأ في السورة يمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ وهذا هو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ ثم قال ههنا : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ثم قال ههنا : ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ وهو

المراد بقوله في أول السورة : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها)(١).

وقد ترتبط أوائل السورة بآخرها لأنها تشاكلها في اللفظ والمعنى كما في آيتي الكلالة في أول وآخر سورة النساء.

يقول الفخر : (اعلم أنه تعالى تكلم في أول السورة في أحكام الأموال وختم آخرها بذلك ليكون مشاكلاً للأول ، ووسط السورة مشتمل على المناظرة مع الفرق المخالفين للدين)(٢).

ويربط الفخر بين أول آية من سورة النساء بآخر فاصلة في السورة قال تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وقال في آخر السورة ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ ﴾ يقول : (واعلم أن في هذه السورة لطيفة عجيبة وهي أن أولها مشتمل على بيان كمال قدرة الله تعالى ، فإنه قال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وهذا أدل على سعة القدرة وآخرها مشتمل على بيان كمال العلم ، وهو قوله : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُ ﴾ وهذان الوصفان هما اللذان بهما ثبتت الربوبية والألوهية والجلالة والعزة ، وبهما يجب على العبد أن يكون مطيعاً للأوامر والنواهي ، منقاداً لكل التكاليف)(٣).

وهذا يعني أن السورة مرتبطة الأجزاء من أولها لآخرها .

وقد تختم السورة بما افتتحت به من ذكر للقرآن كما في سورة (ق)

---

(١) التفسير : ٧/١٣٨-١٣٩ م٤ .

(٢) التفسير : ١١/١٢٢ م٦ .

(٣) التفسير : ١١/١٢٣-١٢٤ م٦ .

يقول : (إن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ (١) وقال في آخرها : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ (٢) فإن كانت الألفاظ تتفق إلا أن هناك اختلافاً في المعنى ، ففي أول السورة أقسم بالقرآن ، وفي الخاتمة أمر بتبليغ القرآن للناس فأحدهما وعيد والأخرى تذكير .

وهكذا تتنوع المعاني التي تهدف إليها هذه المناسبات ، والتي تمثل خاتمة النظر الدقيق لمناسبات السورة والترابط بين آياتها .

وقد تكون المناسبة بين أول السورة وآخرها مناسبة عكسية ، وذلك في سورة الذاريات يقول : (وأول هذه السورة وآخرها متناسبان حيث قال في أولها : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ (٣) وقال في آخرها : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (٤).

فأولها وعد للمؤمنين وآخرها وعيد للكافرين ، بالإضافة إلى التوافق بين كلمتي : ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ و : ﴿ يُوعَدُونَ ﴾ .

---

(١) سورة ق : ١ .

(٢) سورة ق : من الآية ٤٥ .

(٣) سورة الذاريات : ٥ .

(٤) سورة الذاريات : ٦٠ ، التفسير : ٢٨/١٩٣ م١٤ .

مناسبة أول السورة بآخر ما قبلها :

اهتم الفخر بالمناسبة بين أواخر كثير من السور بأوائل مابعدها ، وبين كيف تتواصل المعاني في السور المتجاورة ، على الرغم من تباعد وقت نزولها ، أو قد تكون إحداهما مكية والأخرى مدنية.

وبيان هذه المناسبات من الفخر وغيره من علماء المناسبة يدل على أن ترتيب القرآن توقيفي من الله تعالى .

وقد اختلف كثير من العلماء في ذلك وتعددت آراؤهم ، فمنهم من قال إن الصحابة تولت ترتيب السبع الطوال والمئين ، ولذلك اختلفت مصاحف السلف في ترتيب السور فمنهم من رتبها حسب النزول كمصحف علي ، المكي ثم المدني ، وكمصحف ابن مسعود جاءت فيه سورة آل عمران بعد البقرة والنساء ، ومنهم من قال : كان جبريل يوقف النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، واتساق السور كاتساق الآيات ، وتأليف الصحابة (رضوان الله عليهم) له على ما كانوا يسمعونه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم تواترت الأقوال بأنه توقيفي .

ومنهم من استدل على ذلك بحديث أخرجه أحمد وأبو داود عن أوس ابن أبي أوس عن حذيفة الثقفي قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف ... الحديث وفيه : (1) (فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : طرأ عليّ حزب من القرآن فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه ، فسألنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزبه ثلاث سور وخمس سور ، وسبع سور ، وتسع سور ، وإحدى عشرة ، وحزب المفصل من : * ق * حتى تختم .

---

(1) مسند الإمام أحمد : ٣٤٣/٤ .

فهذا الحديث يدل على أن ترتيب السور كان على ما هو عليه الآن في المصحف .

ويقول صاحب الإتقان : (وما يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاء ، وكذا الطواسين ، ولم ترتب المسبحات ولاء ، بل فصل بين سورها ، وفصل بين طسم (الشعراء) وطسم (القصص) بـ (طس) مع أنها أقصر منها ، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاء وأخرت (طس) عن القصص) (١) وهذا القول يقطع القول بأنه من ترتيب الصحابة .

ثم يقول : (والذى ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلاّ براءة والأنفال) (٢) .

وأدع ذا لأقول : إن الفخر في بيانه للمناسبات بين أول بعض السور وآخر ما قبلها أراد أن يقول إن القرآن الكريم متسق المباني مترابط المعاني ، وكان يؤكد هذا الترابط في أكثر من موضع فيقول : (إن القرآن كالسورة الواحدة) (٣) أى في ترابط المعاني ، فإذا كانت السورة الواحدة تترابط معانيها ، وتبنى على معنى أو معاني متعددة من بدايتها حتى خاتمتها ، كذلك القرآن وإن كان سوراً منفصلة مختلفة الموضوعات إلا أن بينها رابطة لا تظهر إلا بطول النظر ، وكان الفخر يدرك ذلك جلياً ، ويظهره في كلامه ، حتى إنه يسميه كلمة واحدة (٤) ، و يفسر الكلمة في قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٨٤/١ .

(٢) المصدر السابق والجزء والصفحة .

(٣) قال ذلك وهو يبين جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ فقدره ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ وقال إنه يوافق جواب قسم سورة الذاريات : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ وذلك يدل على أن القرآن كسورة واحدة ، التفسير : ٣٤/٣١ م١٦ .

(٤) سورة الأنعام : من الآية ٦ .

بأنها القرآن قياساً على طريقة العرب في كلامها .

يقول : (... قالوا الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد ..) (١) ثم يقول : (إن القرآن معجز فذكر في هذه الآية أنه تمت كلمة ربك ، والمراد بالكلمة القرآن أى تم القرآن في كونه معجزاً دالاً على صدق محمد ...) (٢) .

وقد حرص الفخر وهو يربط أول السورة بآخر ما قبلها على أن يبين أغراض هذا الوصل وهذه المناسبة ، والمعنى الذى يجمع بينهما .

فقد تقرر أول السورة آخر ما قبلها وتؤكده ، كما في أول سورة التوبة فقد جاءت تأكيداً لآخر سورة الأنفال التي آخرها : ﴿ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٣) وأول التوبة قوله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ (٤) .

يقول الفخر : (إنه تعالى ختم سورة الأنفال بإيجاب أن يوالي المؤمنون بعضهم بعضاً ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية ، ثم إنه تعالى صرح بهذا المعنى في قوله : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلما كان هذا عين ذلك الكلام وتأكيداً له وتقريراً له لزم وقوع الفاصل بينهما) (٥) .

وقد استدل بهذه المناسبة على انفصال السورتين ، والرد على من قال إنهما سورة واحدة ، لأنهما لو كانتا سورة واحدة لما جاء المعنى نفسه تأكيداً وتقريراً ، ولكن بصيغة أخرى .

---

(١) ، (٢) التفسير : ١٣/ ١٦٨ م٧ .

(٣) آية : ٧٥ .

(٤) آية : ١ .

(٥) التفسير : ١٥/ ٢٢٤ م٨ .

وقد تأتي أول السورة تكراراً لمعنى آخر السورة السابقة مع إقامة الدليل، كما في آخر سورة النجم : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ (١) وأول سورة القمر : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (٢) يقول : (أول السورة مناسب لآخر ما قبلها . . . فكأنه أعاد ذلك مع الدليل ، وقد قال : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ وهو حق إذ القمر انشق) (٣).

وتشترك السورتان أيضاً في الحديث عن أحوال يوم القيامة.

وقد يكون أول السورة جواباً عن سؤال يثيره آخر السورة السابقة، كآخر سورة الأحقاف وأول سورة محمد يقول : (أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤) فإن قال قائل : كيف يهلك الفاسق وله أعمال صالحة كإطعام الطعام وصلة الأرحام وغير ذلك مما لا يخلو عنه الإنسان في طول عمره ، فيكون في إهلاكه إهدار عمله ، وقد قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٥) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٦) أي لم يبق لهم عمل -ولم يوجد فلم يمتنع الإهلاك) (٧).

وقد تكون المناسبة لفظية ومعنوية كصلة آخر الطور بأول النجم ، قال تعالى في آخر سورة الطور : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ (٨) وقال في أول سورة النجم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٩).

---

(١) آية ٥٧ - ٥٨ .

(٢) آية : ١ .

(٣) التفسير : ٢٩/٢٩ م١٥ .

(٤) من الآية : ٣٥ .

(٥) سورة الزلزلة : ٧ .

(٦) سورة محمد : ١ .

(٧) التفسير : ٢٨/٣٦ م١٤ .

(٨) آية : ٤٩ .

(٩) آية : ١ .

يقول : (أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها لفظاً ومعنى ،أما اللفظ فلأن ختم ﴿ وَالطُّورِ ﴾ بالنجم ،وافتتاح هذه النجم مع واو القسم ، أما المعنى فكقول الله تعالى لما قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ بين له أن جزاءه في أجزاء مكايدة النبي صلى الله عليه وسلم بالنجم وبعده فقال : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾.(١)

ويقف الفخر الرازي عند أواخر سورة محمد ليبين صلتها الوثيقة بأول سورة الفتح ،ويكشف عن أكثر من مناسبة بينهما .

والآيات هي : ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾(٢) يقول : (والأول(٣) مناسب لآخر ما قبلها من وجوه :

أحدها : أنه تعالى لما قال : ﴿ هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ بين تعالى أنه فتح لهم مكة ،وغنموا ديارهم ،وحصل لهم أضعاف ما أنفقوا ،ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك فلا يكون بخلهم إلاّ على أنفسهم .

---

(١) سورة النجم : ٢ ،التفسير : ٢٨/٢٧٧ م١٤ .

(٢) سورة محمد : ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ .

(٣) ذكر وجوهاً للمقصود بالفتح في قوله تعالى ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ الأول : هو فتح مكة ،وهذا ما يعنيه بالأول هنا أي الوجه الأول .
التفسير : ٢٨/٧٧ م١٤ .

ثانيها : لما قال : ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ وقال : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَونَ ﴾ بين برهانه بفتح مكة فإنهم كانوا هم الأعلون .

ثالثها : لما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾ وكان معناه : لا تسألوا الصلح من عندكم ،بل اصبروا فإنهم يسألون الصلح ، ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية) . (١)

والفخر هنا يجمع بين الوشائج الغائرة في بواطن المعاني ليوجد المناسبة وكان -رحمه الله- ذا قدرة عجيبة في استبطان المعاني .

وقد يبدو التكلف ظاهراً في بيان العلاقة ،كمناسبة آخر سورة الانفطار بأول سورة المطففين .

يقول : (إنه تعالى بين في آخر السورة -أى سورة الانفطار- أن يوم القيامة يوم من صفته أنه لا تملك نفس لنفس شيئاً ،والأمر كله لله ، وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة ،فلهذا أتبعه بقوله : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ (٢) والمراد الزجر عن التطفيف) . (٣)

---

(١) التفسير : ٢٨/٧٧ م١٤ .

(٢) سورة المطففين : ١ .

(٣) التفسير : ٣١/٨٨ م١٦ .

المناسبة بين سورة وسورة أو عدة سور :

راعى الفخر إقامة المناسبة بين السور متتالية كانت أومتباعدة .

ويبدو ذلك واضحاً في السور الأخيرة من القرآن ،وإن كنا نجد لـه نظرات بسيطة في سور أخرى من بقيـة القرآن ،يعنى بالمناسبة بين معاني السور.

ولا أعلم لماذا لم يلتفت إلى بقيـة السور ،وإن كانت المناسبة تبدو أحياناً ظاهرة في بعضها ،كالروابط التي تجمع بين السور الأربع الطوال من القرآن .

وآخذ على الفخر أنه كان يهتم بالبحث عن وجه الشبه الظاهر بين السورتين دون أن يتغلغل في بطون معانيها ليكشف عن مناسبات أرحب وأكثر.

فمثلاً يقول وهو يبين المناسبة بين سورة الرحمن وسورة القمر : (اعلم أولاً أن مناسبة هذه السـورة لما قبلها بوجهين :

أحدهما : أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة : (أى القمر) بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر ، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقد الرجال ،وافتتح هذه السورة (الرحمن) بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم ، فإن شفاء القلوب بالصفاء من الذنوب.

ثانيهما : أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ غير مرة ، وذكر في السورة : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ،وهذه السورة سورة إظهار الرحمة) .(١)

---

(١) التفسير : ٨٣/٢٩ م١٥ .

ثم يسكت الفخر عن الكشف عن مزيد من العلاقات الكامنة في السورة مجملاً لأبرز الوشائج .

وبالتأمل نجد تمام الاقتدار وعظمة القدرة في القمر ،وسعة الرحمة وعمومها في الرحمن ،كما أن سورة القمر تحدثت عن جزاء الكفار في الدنيا وعن أحوال قيام الساعة ، أما الرحمن فقد تحدثت عن مرحلة متتالية فذكرت الجنة وما فيها من نعيم ،كذلك فصلت سورة الرحمن ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء في الآخرة ،ثم إن سورة القمر خصت بمخاطبة بني آدم من مشركي العرب ،أما الرحمن فقد خاطبت الثقلين .

ويقابل الفخر بين سورة الجمعة وسورة المنافقين في أن إحداهما تتحدث عن اليهود والأخرى عن المنافقين يقول : (وجه تعلق هذه السورة بما قبلها -أي سورة المنافقين - هو أن تلك السورة مشتملة على ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ،وذكر من كان يكذبه قلباً ولساناً بضرب المثل كما قال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ﴾ وهذه السورة على ذكر من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لساناً دون القلب) .(١)

ومن يتأمل السورتين يجد بينهما ضروباً من المعاني لا تظهر إلا لمن كانت له قريحة قوية -كما قال الفخر - قادرة على فهم المعاني ،وإيجاد الروابط بينها .

وأراه أكثر اقتداراً في المقابلة بين أدق المعاني الكامنة في سورة الكوثر وسورة الماعون ،فيقسم المعاني في كل سورة ثم يقابل بينها .

---

(١) التفسير : ٣٠/١٢ م١٥٠

يقول : (إن هذه السورة أى (الكوثر) كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة (الماعـون) وصف الله تعالى المنافق بأمـور أربعـة :

أولها : البخـل ....، الثانـي : ترك الصـلاة ...،

الثالث : المراءاة في الصلاة، والرابع : المنع من الزكـاة ...

فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكـر في مقابلة البخل قوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ،أى إنا أعطيناك الكثير فأعط أنت الكثير ولا تبخل ،وذكر في مقابلة : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى دم على الصلاة ،وذكر في مقابلـة : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ قوله : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أى ائت بالصلاة لرضاء ربك لا لمراءاة الناس ، وذكر في مقابلة : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قوله : ﴿وَانْحَرْ﴾.. فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) .(١)

والمقابلة بين ما تحمله الكلمات من معاني من البحوث الجليلة فـي اللغة ،والتي تقتضي بالجمع بين الكلمات التي يلمح أن بينها قدراً من الاشتراك في المعنى، ولذلك قال : (فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) .

ولاحظ الفخر تواصل المعاني في السور المتباعدة ،فجمع بينها ، فقد وقف عند سورة النساء ولاحظ تشابه مطلعها مع مطلع سورة الحج مع اتحـاد ترتيبهما في القرآن يقول في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ .. ﴾ (٢) : (إنه تعالى جعل هذا المطلع مطلعاً لسورتين في القرآن :

---

(١) التفسير : ٣٢/١١٧ م١٦ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١ .

إحداهما : هذه السورة ،وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن .

والثانية : سورة الحج ،وهي أيضاً السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن .

ثم إنه علل الأمر بالتقوى في هذه السورة بما يدل على معرفة المبدأ ، وهو أنه تعالى خلق الخلق من نفس واحدة ... وعلل الأمر بالتقوى في سورة الحج بما يدل على كمال معرفة المعاد وهو قوله : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد ، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد).(١)

وكما قلت سابقاً فقد لاحظ الفخر وهو يجمع بين العلاقات المتباعدة أن القرآن كسورة واحدة مجتمعة أطرافه ،ملتقية موضوعاته ،ويكرر هذا الرأى في مواضع من تفسيره،كأن يقول عند تفسير سورة القيامة : (... إلا أن القرآن كله كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض ،والدليل عليه أنه قد يذكر الشيء في سورة ثم يجيء جوابه في سورة أخرى كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾(٢) ثم جاء جوابه في سورة أخرى وهي قوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾.(٣)

ولا يراعي الفخر وهو يوجد هذه العلاقة ترتيب السور في النزول فسورة " الحجر" أنزلت بعد سورة " ن " فكيف أنزلت آية الجواب عن الشبهة قبل الشبهة؟. أظن أن الفخر قد راعى ترتيب القرآن التوقيفي من الله عند إقامة

---

(١) التفسير : ٩/١٦٤ م٥ .

(٢) سورة الحجر : ٦ .

(٣) سورة القلم : ٣ .

المناسبات بين الآيات دون النظر إلى ترتيب النزول ، واعتبر القرآن وحدة كاملة بعد نزوله من أول سورة الفاتحة حتى سورة الناس . أو أن الفخر وهو يفسر الآية خطر في ذهنه هذا المعنى دون التنبه إلى موقع ترتيب الآية في النزول .

ومن السور المتباعدة التي يبحث عن وجه التلاقي بينها سورة (ق) وسورة (ص) فقد تلاقت في كثير من المعاني .

يقول عند تفسير أول سورة (ق) : (هذه السورة ، وسورة "ص" تشتركان في افتتاح أولهما بالحرف المعجم والقسم بالقرآن ، وقوله * بَل والتعجب ، ويشتركان في شيء آخر ، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان ؛ وذلك لأن في "ص" قال في أولها : * والقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * وقال في آخرها : * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلعَالَمِينَ * وقال في "ق" في أولها : * وَالقُرْآنِ المَجِيدِ * وقال في آخرها : * فَذَكِّرْ بِالقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ * فافتتح بما اختتم به)[(١)] .

وهذه المناسبات مناسبات لفظية ظاهرة ، وبين السورتين أيضاً مناسبات معنوية كشف الفخر عن بعض منها يقول : (... إن في تلك السور "أي ص" صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد ، بقوله تعالى : * أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا *[(٢)] وقوله تعالى : * أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ *[(٣)] وفي هذه السورة "أي ق" إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر ، بقوله تعالى : * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ *[(٤)]

---

(١) التفسير : ٣٠/٢١٤ م١٥ .
(٢) سورة ص : من الآية ٥ .
(٣) سورة ص : من الآية ٦ .
(٤) سورة ق : ٣ .

ولما كان افتتاح السورة في "ص" في تقرير المبدأ قال في آخرها : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (١) وختمه بحكاية بدء خلق آدم ؛ لأنه دليل الوحدانية، ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر ، قال في آخرها : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾. (٢)

ويربط الفخر بين السور التي تفتتح بالقسم بالأسماء دون الحروف ويبين كيف أنها تكاملت في موضوعاتها .

يقول عند تفسير سورة (النجم) : (السورة التي تقدمت أي "الطور" وافتتاحها بالقسم بالأسماء دون الحروف وهي الصافات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها ، والأولى (٣) فيها القسم لإثبات الوحدانية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ (٤) ، وفي الثانية لوقوع الحشر والجزاء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ (٥) ، وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (٦) وفي هذه السورة لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم لتكمل الأصول الثلاثة : الوحدانية ، والحشر ، والنبوة) . (٧)

وتتسع نظرة الفخر لتتعدى السورة والسورتين الى بيان مناسبة السورة الواحدة بما قبلها ومابعدها ، كبيانه لصلة سورة الكوثر بما قبلها ابتداءً من سورة الضحى ، وصلتها بما بعدها حتى سورة الناس ، وكانت

---

(١) آية : ٧١ .
(٢) التفسير : ٢٨/١٤٥ م١٤ ، سورة ق : ٤٤ .
(٣) في النسخة (بالأولى) وهو خطأ مطبعي والصحيح ما أثبته .
(٤) سورة الصافات : ٤ .
(٥) سورة الذاريات : ٥-٦ .
(٦) سورة الطور : ٧-٨ .
(٧) التفسير : ٢٨/٢٧٧ م١٤ .

طريقته في ذلك أنه يبين عناصر كل سورة ، وما فيها من تشريعات للنبي صلى الله عليه وسلم.

يقول : (إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لمابعدها من السورة ، أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة (الضحى) في مدح محمد عليه الصلاة والسلام ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته :

أولها : قوله : * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * ،

وثانيها : قوله : * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى * ،

وثالثها : قوله : * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *

ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا ...

ثم إنه تعالى شرفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف :

أولها : أنه أقسم ببلده ...

وثانيها : أنه أخبر عن خلاص أمته من النار ... ،

وثالثها : وصولهم إلى الثواب ..) (١)

وفعل هكذا في كل من سورة القدر، والزلزلة ، والتكاثر ، والهمزة ، والفيل ، وقريش ، والماعون ثم ربطها بسورة الكوثر يقول : (إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السورة من هذه الوجوه العظيمة قال بعدها : * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * أي : إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السورة المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ،

---

(١) التفسير : ١١٨/٣٢ م١٦.

فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ،وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وإما بالمال ،وهو قوله : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ... فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لمابعدها ...)[١].

وهكذا أخذ الفخر يربط هذه السورة بمابعدها ربطاً قد يتكلف فيه أحياناً .

ولا يراعى الفخر وهو يقيم هذه المناسبات الترتيب في النزول ،إنما يربط كل سورة بما تليها حسب ترتيبها في المصحف .

وهكذا اهتم الفخر بدراسة المعاني وأجناسها وتناسبها وترابطها حتى يأخذ بعضها بحجز بعض كما قال العلماء .

وهناك دعوة لتطبيق علوم القرآن في مجال الدراسات الأدبية لأستاذى الفاضل د. محمد أبوموسى[٢] ،منها علم المناسبة الذى يرى أنه إذا دخل عالم الأدب والشعر - بعد اكتماله في القرآن - أثراه وولّد دراسات جادة ،تبحث عن ترابط القصيدة ،وتتابع المعاني فيها ،وطريقة انتقالها من غرض إلى غرض فى المعنى الواحد ،والبحث عن الكلمات والتراكيب لكل غرض والصلة بينها ... وهكذا ،واضعين نصب أعيننا دراسات الأفذاذ من علماء الأمة في التفسير والبلاغة ،والتي تقوم دراساتهم على التحليل والتفسير والنظر الفاحص في دقائق العلم كالفخر الرازى وغيره .

---

(١) التفسير : ٣٢/١١٩ م١٦ .

(٢) ينظر مقدمة البلاغة القرآنية ،الطبعة الثانية : ٣ ومابعدها .

الفصل والوصــــل

تناول الفخر هذا الباب في (نهاية الإيجاز) فضبط معاقده، وجمله في خمسة فصول، لخص فيها كلام عبد القاهر في هذا المبحث، وأسقط منه وجوهاً، وذكر فيه الأمثلة التي ذكرها عبد القاهر.(١)

ويتسع هذا المبحث في التفسير الكبير، فلا يختص بالجمل التي لا محل لها من الإعراب، ولا بالواو من بين حروف العطف، ما دام هناك سر بلاغي تشير إليه الجملة.

وقد لاحظت أن أكثر أبواب المعاني ضيقة في (نهاية الإيجاز) ثم تتسع عند التطبيق في التفسير.

وسأبدأ في هذا المبحث بوصل الجمل بالواو، فهي تأتي لعطف الخاص على العام، فكأن الجملة الثانية تفصيل وتوضيح للأولى، كما في قوله تعالى: ﴿ قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾.(٢)

يقول: (اعلم أن قوله تعالى: ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ معطوف على قوله: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ ﴾ والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه، فالأول عام في حق كل من استحق العذاب والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها، تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي

---

(١) ينظر نهاية الإيجاز: ٣٢١ ومابعدها.

(٢) سورة الكهف: ٢-٣-٤.

كقوله تعالى : ﴿ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَ مِيكَالَ ﴾ (١) فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى) (٢).

و يمنع الفخر عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية ، فإذا ماجاء في القرآن فلا بد له من تأويل .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين كما بدأكم تعودون ﴾ (٣) : (إنه لقائل أن يقول : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بِالقِسْطِ ﴾ خبر وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أمر ، وعطف الأمر على الخبر لا يجوز ، وجوابه التقدير : قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) (٤).

والفخر هنا مع جمهور النحاة الذين يمنعون عطف الخبر على الإنشاء كابن مالك في كتاب التسهيل ، وابن عصفور في شرح الإيضاح ، لكن سيبويه أجازه وغيره من النحاة (٥) ، ويجيزه البلاغيون لأنه عطف على المعنى وليس اللفظ

ويقبح الفخر عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية ، لكنه يجيزه عند وجود سر بلاغي لهذا العطف حيث يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٦) : (واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة) (٧).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٩٨ .
أسقط من الآية في النسخة (ورسله) وقد أثبتها وهو خطأ من الطباعة.

(٢) التفسير : ٢٠/٧٩ م١١ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٩ .

(٤) التفسير : ١٤/ ٦١ م٧ .

(٥) ينظر مغني اللبيب : ٢/٤٨٢ .

(٦) سورة الأعراف : من الآية ١٩٣ .

(٧) التفسير : ١٥/٩٦ م٨ .

وقد نسب ابن هشام منع هذا العطف للفخر الرازي بعد أن ذكر مذاهب العلماء في هذا العطف، فمنهم من أجازه، ومنهم من منعه، ومنهم من أجازه في الواو يقول: (وأضعف الثلاثة القول الثاني، وقد لهج به الرازي في تفسيره)(١) واستدل ابن هشام على منعه بتأويله للعطف في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾(٢) الذي رد به على من رد قول الشافعي: (يحل أكل متروك التسمية) فقد ذكر أن معنى الواو هنا ليست للعطف إنما لتخالف الجملتين بالاسمية والفعلية، فهي حالية وبذلك يكون المعنى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حالة كونه فسقاً، وإن لم يكن فسقاً فكلوا منه.(٣)

وقد رجعت إلى هذه الآية في التفسير فلم أجده يذكر هذا التأويل ولعله ذكره في كتاب آخر لم أقف عليه.

وقول ابن هشام: (لهج به الرازي في تفسيره) فيه نظر، لأنه منع العطف في التفسير إذا لم يكن هناك سر بلاغي للعطف، وأجازه في كثير من الآيات القرآنية، حين دلت الجملة الاسمية فيها على معنى الثبوت والدوام يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾(٤): (فإن قيل قوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فعل، وقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ اسم وعطف الجملة الاسمية على الفعلية قبيح فما السبب في حصولها ههنا؟ قلنا: الفعل قد يكون

---

(١) مغني اللبيب: ٢/٤٨٥.

(٢) سورة الأنعام: من الآية (١٢١).

(٣) ينظر مغني اللبيب: ٢/٤٨٦.

(٤) سورة النحل: ١٠٥.

لازماً وقد يكون مفارقاً ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ (١) ذكره بلفظ الفعل تنبيهاً على أن ذلك السجن لا يدوم ، وقال فرعون لموسى عليه السلام : ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (٢) ذكره بصيغة الاسم تنبيهاً على الدوام ، وقال أصحابنا إنه قال تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (٣) ولا يجوز أن يقال إن آدم عاصٍ وغاوٍ ، لأن صيغة الفعل لا تفيد الدوام وصيغة الاسم تفيده) (٤).

ودلالة الفعل على اللزوم والمفارقة كما يقول أخذها من عبد القاهر كما سنرى .

وبعد أن قرر الفخر هذه القاعدة وعززها بالأمثلة طبقها على الآية التي هو بصدد شرحها .

يقول الفخر : (وإذا عرفت هذه المقدمة فنقول قوله : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ ذكر ذلك تنبيهاً على أن من أقدم على الكذب فكأنه دخل في الكفر ، ثم قال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ تنبيهاً على أن صفة الكذب فيهم ثابتة راسخة ، وهذا كما تقول : كذبت وأنت كاذب ، فيكون قولك : (وأنت كاذب) زيادة في الوصف بالكذب ومعناه أن عادتك أن تكون كاذباً) (٥) والدوام والثبوت الذى أراده الفخر هو ما يفهم من دلالة اسم الفاعل في الجملة الاسمية.

---

(١) سورة يوسف : ٣٥ .
(٢) سورة الشعراء : من الآية ٢٩ .
(٣) سورة طه : من الآية ١٢١ .
(٤) التفسير : ٢٠/١٢٠ م١٠ .
(٥) المصدر السابق والجزء والصفحة.

ويأتي السكاكي بعده فيذكر أن من محسنات الوصل اتحاد الجملتين في الاسمية والفعلية ، ولا يجيز المخالفة بين الجملتين إلّا إذا كان هناك معنى زائد تحمله الجملتين، كالتجدد في الفعل والثبوت في الاسم.[(١)] وقد لحق السكاكي الفخر بالقول بضرورة وجود سبب لعطف الجملة الاسمية على الفعلية.

وكان يحاول أحياناً أن يجد مخرجاً للآية حتى يمنع عطف الجملة الاسمية على الفعليـة لكنه لا يلبث أن يذكر المعنى المراد من هذا العطف لكونه ظاهراً ، ويستعين على ذلك بقاعدة يذكرها عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل كما قلت سابقاً .

يقول في قوله تعالى : * إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ *[(٢)] : (أن لقائل أن يقول إنه قال أولا : * يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ * ثم قال : * وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ * وعطف الاسم على الفعل قبيح فما السبب في اختيار ذلك ؟ قلنا : قوله : * وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ * معطوف على قوله : * فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى * لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحي من الميت ، لأنّ النامي في حكم الحيوان ، ألا ترى الى قوله : * وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا *.[(٣)]

وفيه وجه آخر وهو أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان ، وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلاً في

---

(١) ينظر مفتاح العلوم : ١١٨.

(٢) سورة الأنعام : من الآية ٩٥.

(٣) سورة الروم : من الآية ١٩.

كتابه : (دلائل الإعجاز) فقال : قوله : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ ﴾ (١) إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله : ﴿ يَرْزُقُكُم ﴾ لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة ، وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ (٢) فقوله : ﴿ بَاسِطٌ ﴾ يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة) (٣) .

وقوله هذا ذكره عبد القاهر عند الحديث عن الفرق بين الخبر إذا كان اسماً وإذا كان فعلاً (٤) .

وهنا أيضاً ذكر الفخر هذه المقدمة التي حرر فيها أصول المسألة التي تحدث عنها ، وهذه عادته التي جرى عليها في أكثر المسائل البلاغية في التفسير ، يحرص على ذكر المقدمة ثم يطبقها على الآية التي يفسرها . يقول بعد ذكر كلام عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل : (إذا ثبت هذا فنقول : الحي أشرف من الميت ، فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ، فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل ، وعن الثاني بصيغة الاسم ، تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي والله أعلم بمراده) (٥) .

وقد ذكر الزمخشري الوجه الأول وهو يبين وجه عطف : ﴿ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ على : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ حيث جعل جملة : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ مبينة لفالق الحب والنوى ؛ لأن فلق الحب النوى ...

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٣ .

(٢) سورة الكهف : من الآية ١٨ .

(٣) التفسير : ١٣ / ٩٨ م٧ .

(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ١٧٥ .

(٥) التفسير : ١٣ / ٩٨ م٧ .

من جنس إخراج الحي من الميت ؛ لأنّ النامي في حكم الحيوان)[١].

وأرى أن الأقرب أن نقول : إن جملة : ﴿ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ لأنهما وردتا في القرآن معطوفتين في عدة مواضع :

في قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[٤] ومجيء أحدهما باسم الفاعل في سورة الأنعام للدلالة على أن العناية به أكثر وأكمل كما قال الفخر.

ويشترط النحاة في عطف الأفعال التماثل في الزمن فالماضي يعطف على الماضي والمضارع يعطف على المضارع . ويجيز الفخر عطف المضارع على الماضي لنكتة بلاغية وذلك حين يراد من المضارع التعبير عن الاستمرار في الفعل ،لا حصوله في الحال أو الاستقبال ،يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٥] : وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على الماضي وهو قوله : ﴿ كَفَرُوا ﴾ والجواب من وجهين :

---

(١) الكشاف : ٢/٣٧ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ٢٧ .

(٣) سورة يونس : من الآية ٣١ .

(٤) سورة الروم : ١٩ .

(٥) سورة الحج : ٢٥ .

الأول : أنه يقال فلان يحسن إلى الفقراء ، ويعين الضعفاء ، لا يراد به حال ولا استقبال ، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته ، فكأنه قيل إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ، ونظيره قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

والثاني : ذكر فيه قولاً لأبي علي الفارسي)[١] .

وكان الفخر حريصاً على أن يذكر الآيات التي تشابه الآية المذكورة في الحكم فنظير عطف المضارع على الماضي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٢] فالذين آمنوا بالله من عادتهم وشأنهم المستمر أن تطمئن قلوبهم عند ذكر الله .

وتأتي الواو لتعطف الجملة على مرادفها في المعنى مع اختلاف اللفظ للتأكيد ، ولتحقيق معنى آخر من أجله عطف هذا المعنى ، فالذين آمنوا بالباطل هم الذين كفروا بالله .

قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾[٣] .

فالعطف في : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ جاءت لبيان قبح المعنى الأول كما يقول الفخر : (إذا كان الإيمان بما سوى الله كفراً به ، فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله ، فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذى هو في قول القائل : قم ولا تقعد ، وأقرب مني ولا تبعد ؟ نقول : نعم فيه فائدة غيرها ، وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الأول كقول القائل : أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول باطل قبيح)[٤] .

---

(١) التفسير الكبير : ٢٣/٥٤ م١٢ .

(٢) سورة الرعد : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة العنكبوت : ٥٢ .

(٤) التفسير الكبير : ٢٥/٨١ م١٣ .

وتعطف آية على آية بينهما آيات ، وهذه الآيات متفرعة من الآية الاولى فقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) معطوف على قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) وبينهما سبع آيات تتحدث عن نقض الميثاق .

يقول الفخر في صلة الآيتين : (واعلم أن وجه الاتصال هو أن الواو في قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ واو عطف ، وهو متصل بقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كأنه قيل : أخذ عليهم الميثاق وذكرهم موسى نعم الله تعالى وأمرهم بمحاربة الجبارين فخالفوا في القول في الميثاق ، وخالفوه في محاربة الجبارين) . (٣)

ولم يبين الفخر صلة هذه الآيات السبع بالآية الاولى ، وكيف كان الاتصال ، وإن كان قد اهتم في باب الوصل والفصل في (نهاية الإيجاز) بعطف الجمل على الجمل وكيف تتواصل وتترابط ، وضرب لذلك مثلاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ ... ﴾ . (٤)

ولم يهتم هنا ببيان مثل هذه الروابط التي تتواصل في الآيات القرآنية . والتي تعنى بالوشائج الداخلية للآية القرآنية .

---

(١) سورة المائدة : ١٢ .

(٢) سورة المائدة : ٢٠ .

(٣) التفسير الكبير : ١١ / ٢٠٠ م٦ .

(٤) سورة القصص : من الآية ٤٤ .

وكما اهتم الفخر بالوصل بين الجمل والعلاقات القائمة بينها اهتم أيضاً بالجمل التي فصلت، وحلل العلاقة بينها .

فقد تفصل الجملة عما قبلها لتأتي تفصيلاً وشرحاً لمجملها .

كما في قوله تعالى : ﴿ ... لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (١) .

يقول الفخر : (واعلم أنهم لما أخبروا عن وقوع الخصومة على سبيل الإجمال أردفوه ببيان سبب تلك الخصومة على سبيل التفصيل فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ (٢) .

وقد يسقط العاطف فتأتي الجملة بعده بمعنى جديد، هذا المعنى يقوي الجملة ويبين أهميته في الكلام .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ... ﴾ (٣) عند بيان فائدة فصل جملة ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ عما قبلها : (حذف العطف وإن كان مضمراً إلا أنه حذف لفائدة وهي أنه لما حذف فإن قوله : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كالكلام المبتدأ به، وكون الكلام مبتدأ به يزيد قوة ووثاقة، لأن الابتداء بالشيء يدل على شدة الاهتمام به وقوة الاعتناء بتقريره، ونظير هذا الموضع في حذف فاء التعقيب : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً .. ﴾ ولم يقل : فقالوا أتتخذنا هزواً) (٤) .

---

(١) سورة ص : من الآية ٢٢ - ٢٣ .

(٢) التفسير الكبير : ١٩٦/٢٦ م١٣ .

(٣) سورة المائدة : من الآية ٦٤ .

(٤) التفسير الكبير : ٤٤/١٢-٤٥ م٦ ـ سورة البقرة : من الآية ٦٧ .

وهذا من باب القطع والاستئناف الذى ذكره الفخر في باب الفصل والوصل وقال فيه : (اعلم أنك قد ترى الجملة حالها مع ما قبلها حال مايقتضي العطف، ثم إنه يجب فيها ترك العطف لأمر عرض ،وأفاد انقطاعها عما قبلها) (١) .

ويضع البلاغيون هذه الآية تحت مبحث كمال الانقطاع حيث أن : * غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ * إنشاء ،وجملة * وَقَالَتِ الْيَهُودُ * خبر ،ولا يعطف الإنشاء على الخبر .

وقال البلاغيون في الآية الثانية إنها استئناف فهي جواب عن سؤال مقدر والتقدير فماذا قالوا بعد أن قال لهم موسى ؟ ولا أعلم لماذا جمع بينهما الفخر مع اختلافهما -كما قلت سابقاً- .

ويكثر الفخر الرازى من ذكر الجمل المستأنفة التي تأتي لتجيب عن سؤال تثيره الجملة السابقة لها .

يقول في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ .. * (٢) : (فإن قيل : ما موقع تحبسونهما ؟ قلنا : هو استئناف كأنه قيل كيف نعمل إن حصلت الريبة فيهما فقيل تحبسونهما) (٣) .

ويأتي الاستئناف جواباً عن سؤال يثيره ما قبله في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... * (٤) : (* تُؤْمِنُونَ * استئناف كأنهم قالوا :كيف نعمل ؟ : فقال : * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ * وهو خبر في معنى الأمر) (٥) .

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٢٨ .
(٢) سورة المائدة: من الآية١٠٦ .
(٣) التفسير الكبير : ١٢/١٢٤ م٦ .
(٤) سورة الصف : ١٠ ومن الآية ١١ .
(٥) التفسير الكبير : ٢٩/٣١٧ م١٥ .

وقد تفصل الجملة عما قبلها لأنها توكيد لها ، فالنهي عن مقاتلة من لم يعتدِ هو أمر بقتال من قاتل وأخرج عن الديار.

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ... ﴾،(١) : (﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ وفيه لطيفة وهي أنه يؤكد قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ .. ﴾).(٢)

وقد تتابع الجمل ولا رابط بينها فتأتي الجمل إما في سياق تعداد النعم ، أو بياناً لما قبله وإيضاحاً لها كما في قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.(٣)

يقول : (.. ولم يذكروا النسق ، وقد يجرى مثل هذا في الكلام يقول أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات . ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ، ويكون المعنى علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه فيكون قوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بياناً لقوله : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾).(٤)

وقد يجمع الفخر الرازي بين الحديث عن فصل الآيات ووصلها بالواو ، فيبين سر مجيئها مفصولة وموصولة في آيات متتابعة ، أو آيات متباعدة متشابهة ، ويكشف عن المعاني التي تهدف الآيات إلى بثها حين تأتي على هذه الطريقة.

---

(١) سورة الممتحنة : ٨ ومن الآية ٩ .

(٢) التفسير الكبير : ٣٠٥/٢٩ م١٥ .

(٣) سورة العلق : ١ - ٥ .

(٤) التفسير الكبير : ١٧/٣٢ م١٦ .

فيبين السر في فصل ووصل آيات أوائل سورة الرحمن : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ .(١)

وقبل أن يذكر ذلك يضبط القاعدة في الفرق بين مجيء العطف وسقوطه في الكلام عامة يقول : (ما الحكمة في ذكر الجمل السابقة من غير واو عاطفة ، ومن هنا ذكرها بالواو العاطفة ؟ نقول : ليتنوع الكلام نوعين ؛ وذلك لأن من يعد النعم على غيره تارة يذكر نسقاً من غير حرف ، فيقول : فلان أنعم عليك كثيراً ، أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، قواك بعد ضعف . وأخرى يذكرها بحرف عاطف ، وذلك العاطف قد يكون واواً ، وقد يكون فاءً ، وقد يكون ثم ، فيقول : فلان أكرمك وأنعم عليك ، وأحسن إليك ، ويقول : رباك فعلمك فأغناك ، ويقول أعطاك ثم أغناك ثم أحوج الناس إليك ، فكذلك هنا ذكر التعديد بالنوعين جميعاً . فإن قيل : زده بياناً وبيّن الفرق بين النوعين في المعنى ، قلنا : الذى يقول بغير حرف كأنه يقصد به بيان النعم الكثيرة فيترك الحرف ليستوعب الكل من غير تطويل كلام ، ولهذا يكون ذلك النوع في أغلب الأمر عند مجاوزة النعم ثلاثاً أو عندما تكون أكثر من نعمتين ، فإن ذكر ذلك عند نعمتين فيقول : فلان أعطاك المال وزوجك البنت فيكون في كلامه إشارة إلى نعم كثيرة ، وإنما اقتصر على النعمتين للأنموذج . والذى يقول بحرف فكأنه يريد التنبيه على استقلال كل نعمة بنفسها وإذهاب توهم البدل والتفسير) .(٢)

---

(١) سورة الرحمن : ١-٧ .

(٢) التفسير : ٨٩/٢٩ م١٥ .

وكلامه هذا شرح لما تضمنه كلام الزمخشري في هذه الآية حيث يقول :

(الرحمن : مبتدأ وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ،وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ،كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثّرك بعد قلة ،فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد فما تنكر من إحسانه) .(١)

وبعد أن يقرر الفخر القاعدة يذكر السر في عدم مجيء العطف في أول السورة فيقول : (ففي هذه السورة ابتدأ الأمر بالإشارة إلى بيان أتم النعم إذ هو المقصود فأتى بما يختص بالكثرة ،ثم إن الإنسان ليس بكامل العلم يعلم مراد المتكلم إذا كان الكلام من أبناء جنسه ، فكيف إذا كان الكلام كلام الله تعالى ،فبدأ الله به على الفائدة الأخرى وإذهاب توهم البدل والتفسير ، والنص على أن كل واحد منها نعمة كاملة) .(٢)

فالنعم الكبيرة التامة جاءت بدون عطف وما عداها من نعم جاءت معطوفة .

وقد ذكر الزمخشري وجهاً أكثر صلة بالمعنى مما ذكره الفخر يقول :

(كيف أخل بالعاطف في الجمل الأولى ثم جيء به بعده ؟ قلت : بكّت بتلك الجمل الأولى واردة على سنن التعديد ليكون كل واحدة من تلك الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه ، . . . ثم رد الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالعاطف) .(٣)

---

(١) الكشاف : ٤٣/٤ .

(٢) التفسير : ٨٩/٢٩ م١٥ .

(٣) الكشاف : ٤٤/٤ .

وقد تأتي آيتان متتاليتان إحداهما وصلت بما قبلها، والأخرى فصلت، فيقف الفخر أمامهما ليبين سر ذلك، في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

يقول الفخر: (إنما تدخل الواو في قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ ﴾ ودخلت في قوله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ﴾ لأن قوله: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ ﴾ عطف هذا التزيين على حالهم وخروجهم بطراً ورئاء، وأما ههنا وهو قوله: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فليس فيه عطف لهذا الكلام على ما قبله بل هو كلام مبتدأ منقطع عما قبله) (٢).

وهكذا نرى الفخر ينظر إلى الآيات السابقة للآية ليعرف مقتضيات العطف وعدمه.

ويتحد لفظ آيتين في سورة واحدة، ولكن تأتي إحداهما موصولة بما قبلها بالواو لأنها جزء منها، والأخرى مفصولة لعدم ارتباطها بما قبلها ولكل سر في ذلك.

قال تعالى في سورة (ق): ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ (٣)
وقال في موضع آخر: ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأنفال: ٤٨-٤٩.
(٢) التفسير الكبير: ١٥/١٨٢ م٨.
(٣) آية: ٢٣.
(٤) آية: ٢٧.

يقول الفخر فيهما : (قال ههنا : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ من غير واو وقال في الآية الأولى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ بالواو العاطفة ،وذلك لأن في الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين ،وأن كل نفس في ذلك الوقت يجيء ومعها سائق ويقول الشهيد ذلك القول ،وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر الواو ،والفاء في قوله : ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ ﴾ لا يناسب قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ مناسبة مقتضية للعطف بالواو) (١).

فقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ معطوف على مجيء كل نفس معا سائق وشهيد ،لأن الآيات في سياق تصوير أحداث ما بعد الموت من النفخ في الصور و مجيء الملكين وقول القرين . .

أما قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ فقد جاءت في سياق أسلوب المقاولة بين الكافر وقرينه، وهذا يقتضي الفصل ،كأن قائلا قال : ما قال قرينه ؟ فقيل : قال ربنا ما أطغيته . ولذلك لا مناسبة بين هذه الآية وماقبلها ﴿ فَأَلْقِيَاهُ ﴾ كما قال الفخر فهي جملة متضمنة لمعنى الشرط ولذلك دخلت الفاء في خبره (٢).

وهذا النوع من الفصل في أساليب المقاولة أشار إليه عبد القاهر في باب الفصل والوصل (٣).

ويذكر القرآن قول الملأ من قوم ثمود في سور متفرقة ،مرة موصولة بالواو ، في سورة المؤمنين ،ومرتين بغير واو كما في سورة الأعراف وسورة هود ، ويقف الفخر ليبين سر هذا الفصل والوصل .

---

(١) التفسير : ٢٨/ ١٦٨ م٤١٤.

(٢) ينظر البحر المحيط : ٨/ ١٢٦.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٢٤٠ - ٢٤١.

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (١) : (فإن قيل ذكر الله مقالة قوم هود في جوابه في سورة الأعراف وسورة هود بغير واو : ﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ (٢) : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ (٣) . وههنا مع الواو فأي فرق بينهما ؟ قلنا : الذي بغير واو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال قومه ؟ فقيل له : كيت وكيت ، وأما الذي مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ، ومعناه أنه اجتمع في هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل) (٤) .

ويتكرر قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في سورة البقرة في ستة مواضع ، ثلاثة منها بالواو ، وثلاثة بغير واو ، فما جاء بالواو دل على أن هذه الأسئلة وقعت في وقت واحد ، فلذلك اقتضت العطف ، وما جاء بغير واو دل على حصولها في أوقات متفرقة .

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾ (٥)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ ... ﴾ (٦)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عن الخَمْرِ ... ﴾ (٧)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ... ﴾ (٨)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن اليَتَامَى ... ﴾ (٩)

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن المَحِيضِ ... ﴾ (١٠)

---

(١) سورة المؤمنون : ٣٣ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٦٦ .

(٣) سورة هود : من الآية ٥٣ ، وقد ذكر الفخر بدل هذه الآية قوله : (قالوا ما نراك إلا بشراً مثلنا) ولا يوجد في سورة هود آية بهذا النص ، وقد صححت وذكرت الآية المرادة .

(٤) التفسير : ٢٣/ ٩٨ م١٢ . (٥) سورة البقرة : من الآية ٢١٥ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ٢١٧ . (٧) سورة البقرة : من الآية ٢١٩ .

(٨) سورة البقرة : من الآية ٢١٩ . (٩) سورة البقرة : من الآية ٢٢٠ .

(١٠) سورة البقرة : من الآية ٢٢٢ .

يقول : (اعلم أنه تعالى جمع في هذه المواضع ستة من الأسئلة فذكر الثلاثة الأول بغير الواو ، وذكر الثلاثة الأخيرة بالواو ، والسبب أن سؤالهم عن تلك الحوادث الأولى وقع في أحوال متفرقة ، فلم يؤت فيها بحرف العطف ؛ لأن كل واحد من تلك السؤالات سؤال مبتدأ ، وسألوا عن المسائل الثلاثة الأخيرة في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع لذلك ، كأنه قيل : ويجمعون لك بين السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن كذا والسؤال عن كذا) .(١)

وقد ذكر السيوطي هذا الوجه ونسبه للكرماني (٢) ذكره في كتابه (العجائب) يقول : (لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقاً ، وعن الحوادث الأخر وقع في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك) .(٣) فيكون الفخر قد تبع فيه الكرماني .

ويتابع الفخر الرازي الآية الواحدة التي تتكرر في سور مختلفة مقترنة بالعاطف مرة وخالية منه مرة أخرى ، ويذكر ما وراء ذلك من دقائق المعنى المتصلة بالسياق ، من ذلك تكرار قوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ في سورة الروم وسورة فاطر ، مرة بالواو ، ومرة بغيرها . قال تعالى في سورة الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ (٤) وقال تعالى في سورة فاطر : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ ﴾ .(٥)

---

(١) التفسير : ٦/ ٦٧ م٣ .

(٢) هو محمود بن حمزة الكرماني ، عالم بالقراءات ، نقل في التفسير آراء مستنكرة وأثنى عليه الجزري ، وذكر بعض كتبه منها (لباب التفسير) المعروف بالعجائب والغرائب ، توفى سنة ٥٠٥هـ ، الاعلام للزركلي ٧/ ١٦٨ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن : ٢/ ١٤٦ .

(٤) من الآية ٩ .

(٥) من الآية ٤٤ .

فالتي بدون واو أخبرت عن شيئين فما قبل الواو ظاهر ومابعدها ظاهر، وماسبقها واو جاءت على سبيل الخبر، وقبل أن يذكر هذا يحرر المسألة كما فعل سابقاً ويدلل عليها بأمثلة يقول: (قال هناك: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ ﴾ من غير واو، وقال ههنا بالواو، فما الفرق ؟ نقول: قول القائل: أما رأيت زيداً كيف أكرمني وأعظم منك، يفيد أن القائل يخبره بأن زيداً أعظم، وإذا قال: أما رأيته كيف أكرمني هو أعظم منك، يفيد أنه تقرر أن كلا المعنيين حاصل عند السامع كأنه رآه أكرمه ورآه أكبر منه، ولا شك أن هذه العبارة الأخيرة تفيد كون الأمر الثاني في الظهور مثل الأول بحيث لا يحتاج إلى إعلام من المتكلم ولا إخبار).

فهذا تحرير للمسألة البلاغية في الفرق بين مجيء العبارة بالواو وبدونها ونلاحظ هنا استعانة الفخر بالشواهد المبسطة لتقرير هذه المسألة، ثم تطبيق الآيات على ضوئها، وهذا مما يكثر في التفسير كما لاحظنا، ثم يقول في سبب الاختلاف: (إذا علمت هذا فنقول: المذكور ههنا كونهم أشد منهم قوة لا غير، ولعل ذلك كان ظاهراً عندهم فقال بالواو أي نظركم كما يقع على عاقبة أمرهم يقع على قوتهم، وأما هناك فالمذكور أشياء كثيرة، فإنه قال: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ﴾ وفي موضع آخر قال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ ﴾ (١) ولعل علمهم لم يحصل بإثارتهم الأرض أو بكثرتهم ولكن نفس القوة ورجحانهم فيما عليهم كان معلوماً عندهم، فإن كل طائفة تعتقد فيمن تقدمهم أنهم أقوى منهم ولا نزاع فيه) (٢).

---

(١) سورة غافر: من الآية ٨٢.

(٢) التفسير الكبير: ٣٦/٢٦م ١٣.

ومن الممكن أن تكون : ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ استئناف إخبار عما كانوا عليه ،وفي الروم جملة ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي بمعنى : وقد كانوا ،فالجملة حال ، فهما مقصدان .(١)

وتمتد نظرة الفخر فلا تقتصر على البحث عما وراء وصل الجمل بالواو وفصلها ،بل ينظر في عطف الجمل بالفاء ويبحث عما وراءها من سر بلاغي ، ويقارنها بنظيراتها مما عطف بالواو .

من ذلك أنه يبين عن سبب مجيء آيتي سورة الزمر ،إحداهما بالواو والأخرى بالفاء في قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ .. ﴾(٢)

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ﴾.(٣)

يقول : (ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء ههنا وعطف مثلها في أول السورة بالواو ؟ والجواب : أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية(٤) أنهم يشمئزون من سماع التوحيد ،ويستبشرون بسماع ذكر الشركاء ،ثم ذكر بفاء

---

(١) ينظر البحر المحيط : ٧/ ٣٢٠ .

(٢) من الآية : ٨ .

(٣) من الآية : ٤٩ .

(٤) يقصد بها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ سورة الزمر : ٤٥ .

التعقيب أنهم إذا وقعوا في الضر والبلاء التجأوا إلى الله وحده ، فإن الفعل الأول مناقضاً للفعل الثاني فذكر فاء التعقيب ليدل على أنهم واقعون في المناقضة في الحال، وأنه ليس بين الأول والثاني فاصل ،مع أن كل واحد منهما مناقض للثاني فهذا هو الفائدة في ذكر فاء التعقيب ههنا ،فأما الآية الأولى فليس المقصود منها بيان وقوعهم في التناقض في الحال ،فلا جرم ذكر الله بحرف الواو) .(١)

لكن الزمخشرى يرى أن الفاء جاءت مسببة عن قوله : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أى يشمئزون عند ذكر الله ويستبشرون عند ذكر آلهتهم، فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأز من ذكره دون من استبشر بذكره.(٢)

وفسر ابن المنير هذه السببية فقال : (تقول زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه ،ثم نقول : زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه ،فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة ،كأن الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء ،فأنت تحكى ما عكس فيه الكافر) .(٣)

هذا العكس هو التناقض الذى قال به الفخر وفهمه من الفاء التي جعلها للتعقيب .

ويرى الفخر أن اختلاف الموضوع يؤدى إلى اختلاف نسق الكلام، فالآيات في الدلائل الآفاقية تتتابع معطوفة بالواو ،وعند ذكر الدلائل النفسية يأتي العطف بالفاء .

---

(١) التفسير : ٢٦/ ٢٨٨ م١٣ .

(٢) ينظر الكشاف : ٣/ ٤٠٢ .

(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (على هامش الكشاف) : ٣/ ٤٠٣ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ .. أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ (١) : (إنه تعالى في الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال : ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ وقال : ﴿ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس، وهذا من جنس، فلم يجعل هذا تبعاً لذلك) (٢).

ثم يقيس ما قاله من اختلاف النسق القرآني عند تغير الموضوع على أواخر سورة (يس) فيقول : (ومثل هذا مراعى في أواخر سورة (يس) حيث قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ ﴾ (٣) ثم لم يعطف الدليل الآفاقي ههنا ، نقول - والله أعلم - ههنا وجد منهم الاستبعاد بقوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات ، ثم نزل كأنه قال : لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك ، وفي سورة (يس) لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى) (٤).

واختلاف نسق الكلام لاختلاف الموضوع مما يقوم عليه كل كلام حسن ؛ لأن لكل موضوع مقدماته التي تناسبه ، ومداخله التي هي أشبه به.

وأحياناً كان الفخر يفرق بين الفاء والواو ، تفريقاً لا يقوم على أصل بلاغي أو لغوي ، بل على نظرات خاصة به يفهمها من إيحاءات الآية.

---

(١) سورة ق : ٧-١٥.

(٢) التفسير : ٢٨ / ١٦١ م ١٤.

(٣) سورة يس : من الآية ٧٧.

(٤) التفسير : ٢٨ / ١٦١ م ١٤.

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (١) : (لم قال في القسم الأول : ﴿ فَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ ﴾ وفي القسم الثاني : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ فذكر الأول بالفاء والثاني بالواو ؟ والجواب : لأن رحمة الله سابقة على غضبه وابتلاءه بالنعم سابق على ابتلائه بإنزال الآلام ، فالفاء تدل على كثرة ذلك القسم ، وقلة الثاني على ما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ . (٢)

وفي القرآن الكريم كثير من الآيات جاءت (بأما) إحداهما معطوفة بالفاء والأخرى بالواو ، ولا ينطبق عليها ما قاله الفخر .

قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾ . (٣)

فالفاء لا تعني كثرة المؤمنين العالمين بأنه الحق من ربهم ؛ لأن القرآن يصف غير المؤمنين دائماً بالكثرة ، كما أن الواو لا تعني قلة الجاحدين ، وقال تعالى أيضاً : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . (٤)

---

(١) سورة الفجر : ١٤-١٥-١٦ .

(٢) سورة إبراهيم : من الآية ٣٤ ، وسورة النحل : من الآية ١٨ .
التفسير : ٣١/ ١٧٢ م١٦ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٦ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ - والآية ١٠٧ .

فالفاء لاتعني فـــــي هذه الآية كثرة من تسوّد وجوههم يوم القيامة ، كما أن الواو لا تعني قلة الذين ابيضّت وجوههم .

ومثله قوله تعالى : * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ .. وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ *[1] وغير هذا كثير جداً في القرآن .

وأقول : إن جملة : * فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ * جملة شرطية متصلة بما قبلها : * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ * بالفاء التي جاءت للترتيب الذكرى ، حيث يترتب على ما قبلها أمور تأتي بعدها ،ثم تأتي آية * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ * جملة شرطية معطوفة على ما قبلها .

وقد تحدث الزمخشرى عن صلة هذه الفاء بما قبلها فيقول : (بم اتصل قوله * فَأَمَّا الإنسَانُ * ؟ قلت : بقوله : * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصَادِ *.[2]

---

(١) سورة هود : من الآية ١٠٦-١٠٨ .
(٢) الكشاف : ٤/٢٥١ .

الاعتـــــــــراض

وقف الفخر عند كثير من جمل الاعتراض في القرآن الكريم ، واهتـــم بذكر قيمتها البلاغية في أداء المعاني ، وصلتها بالكلام المعترضة فيه .

والجملة المعترضة عنده إما أن تفيد التوكيد ، وهو المعنى المشهورة به عند العرب كما قال ابن جني (وهو جار عند العرب مجرى التأكيد) .(١)

أو تفيد معاني أخرى تقوم على التغلغل في معنى الآية .

ومما جاءت جملة الاعتراض مفيدة التوكيد ما في قوله تعالى : * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ * .(٢)

يقول : (في قوله : * أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا * وجهان :

الأول : أنه صفة لقوله : * رَجُلَانِ * .

والثاني : أنه اعتراض وقع في البين يؤكد ما هو المقصود مـــن الكـــلام) .(٣)

كذلك جاءت جملة : * ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ * للتأكيد في قوله تعالـــى : * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَــوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُــرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * .(٤)

---

(١) الخصائص : ١/٣٣٥ .

(٢) سورة المائدة : من الآية ٢٣ .

(٣) التفسير : ١١/٢١٤ م٦ .

(٤) سورة المائدة : ٣ .

يقول : (ومن قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ إلى هنا - أى إلى قوله تعالى : ﴿ رَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ - اعتراض وقع في البين ، والغرض منه تأكيد ما ذكر من معنى التحريم ، فإن تحريم هذه الخبائث من جملة الدين الكامل ...) .(١)

وقد يشرح الفخر معنى التوكيد في الاعتراض ، حيث يقصد به إزالة شبهة راسخة فى العقول .

يقول في قوله تعالى : ﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ :(٢) (اعلم أن هذا الكلام معترض بين ذكر الوارثين وأنصبائهم وبين قوله : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ ومن حق الاعتراض أن يكون ما اعترض مؤكداً ما اعترض بينه ومناسبه ، فنقول : إنه تعالى لما ذكر أنصباء الأولاد وأنصباء الأبوين ، وكانت تلك الأنصباء مختلفة والعقول لا تهتدى إلى كمية تلك التقديرات ، والإنسان ربما خطر بباله أن القسمة لو وقعت على غير هذا الوجه ، وأنهم كانوا يورثون الرجال الأقوياء وما كانوا يورثون الصبيان والنسوان الضعفاء ، فالله تعالى أزال هذه الشبهة بأن قال : إنكم تعلمون أن عقولكم لا تحيط بمصالحكم فربما اعتقدتم في شيء أنه صالح لكم وهو عين المضرة ، وربما اعتقدتم فيه أنه عين المضرة ويكون عين المصلحة ، وأما الإله الحكيم الرحيم فهو العالم بمغيبات الأمور وعواقبها ... وقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ إشارة إلى وجوب الانقياد لهذه القسمة التي قدرها الشرع وقضى بها) .(٣)

---

(١) التفسير : ١٤٣/١١ م٦ .

(٢) سورة النساء : من الآية ١١ .

(٣) التفسير : ٢٢٥/٩ م٥ .

والفخر هنا يكمل ما قال به الزمخشري من أن : (من حق الاعتراض أن يؤكد ما اعترض بينه ويناسبه) فيشرح هذه المناسبة ويبينها بعد أن نقل هذه العبارة من الكشاف.(١)

ولابن عطية تعليل حسن في سبب وجود هذا الاعتراض أحب أن أذكره، وهو أن فيه تأنيساً للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه الصفة.(٢)

وتأتي جملة الاعتراض فتضيف حُسناً إلى الجملة، لأنها تصور أدق ما يتطلبه المعنى، وكأنها تعليق جانبي على مشهد أو تحليل للمعنى.

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾(٣) : (لقائل أن يقول لو كان التنزيل هكذا : ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً كان النظم مستقيماً حسناً فكيف وقع قوله : ﴿ كَأَن لَمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ في البين ؟ وجوابه : ... أنه تعالى حكى عن هذا المنافق سروره وقت نكبة المسلمين، ثم أراد أن يحكي حزنه عند دولة المسلمين بسبب أنه فاته الغنيمة، فقبل أن يذكر هذا الكلام بتمامه ألقى في البين قوله : ﴿ كَأَن لَمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ والمراد التعجب كأنه تعالى يقول : انظروا إلى ما يقول هذا المنافق كأنه ليس بينكم أيها المؤمنون وبينه مودة ولا مخالطة أصلاً، فهذا هو المراد من الكلام، وإن كان كلاماً واقعاً في البين على سبيل الاعتراض، إلَّا أنه في غاية الحسن).(٤)

---

(١) ينظر الكشاف : ٥٠٩/١.
(٢) ينظر المحرر الوجيز : ٥١٨/٣.
(٣) سورة النساء : ٧٣.
(٤) التفسير : ١٨٥/١٠ م٥.

وقد سماها ابن عطية التفاتاً واعتراضاً يقول : (﴿كَأَن لَّمْ يَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ التفاتة بليغة ،واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبيح فعلهم)(١). والالتفات أتى من تغيير نمط الكلام من الغيبة إلى الخطاب،وقد استقبح الراغب الأصفهاني اعتبار الجملة اعتراضاً فقال : (فإنه لا يفصل بين بعض الجملة وبعض ما يتعلق بجملة أخرى)(٢) ؛ وذلك لأنّ ما بعد جملة الاعتراض مقول القول لما قبلها ،ومهما يكن فإن هذه الجملة جاءت لتصور قبح فعلهم وغرابة موقفهم وقت الشدة.

وتأتي جملة الاعتراض لتبين شدة أحوال المنافقين بسبب أعمالهم السيئة كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ﴾.(٣)

ويذكر الفخر في هذه الآية أن من شروط الاعتراض أن يكون لها تعلق بما قبلها بعد أن يستشهد لذلك ببيت من الشعر مشهور عند البلاغيين في هذا الباب .

يقول : (وتلك الآية وقعت في البين ،أي : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كالكلام الأجنبي وهذا يسمى اعتراضاً وهو كقول الشاعر :

إِنَّ الثَّمَانِينَ - وَبُلِّغْتَهَا - قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانْ (٤)

---

(١) المحرر الوجيز : ٤/١٧٤.

(٢) نقلاً من البحر المحيط لأبي حيان : ٢٩٣/٣.

(٣) سورة النساء : ٦١-٦٢ .

(٤) هذا البيت لعَوْف بن مُحَلِّم الشيباني يشكو ضعفه في قصيدة قالها لعبدالله بن طاهر .

فقوله : (وَبُلِّغْتَهَا) كلام أجنبي وقع في البين ،إلا أن هذا الكلام الأجنبي شرطه أن يكون له من بعض الوجوه تعلق بذلك المقصود كما في هذا البيت فإن قوله : (وَبُلِّغْتَهَا) دعاء للمخاطب وتلطف في القول معه ،والآية أيضاً كذلك ،لأن أول الآية وآخرها في شرح قبائح المنافقين وفضائحهم وأنواع كيدهم ومكرهم ، فإن الآية أخبرت بأنه تعالى حكى عنهم في أول الآيـــة أنهم يتحاكمون إلى الطاغوت مع أنهم أمروا بالكفربه ،ويصدون عن الرسول مع أنهم أمروا بطاعته ،فذكر بعد هذا ما يدل على شدة الأحوال عليهم بسبب هذه الأعمال السيئة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ بِمَـــا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى فكيف حال تلك الشدة وحال تلك المصيبة) (١).

وألمح في جملة الاعتراض تهديداً لهؤلاء المنافقين ،وبياناً لعجزهم عن ردها .

وكما اهتم الفخر بإيجاد العلاقة المعنوية بين ما قبل جملة الاعتراض ومابعدها كذلك اهتم بالعلاقة اللفظية بينهما .

فقد تأتي جملة الاعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه للعذر عـــن النسيان ، يقول في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْـــرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ (٢) : (﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ اعتراض وقع بين المعطوف والمعطوف عليه ،والتقدير فإني نسيت الحوت واتخذ سبيله في البحر عجباً ،والسبب في وقوع هذا الاعتراض ما يجرى مجرى العذر والعلة لوقـوع النسيان) (٣).

---

(١) التفسير : ١٠/ ١٦١-١٦٢ م٥.

(٢) سورة الكهف : ٦٣ .

(٣) التفسير : ٢١/ ١٤٨ م١١.

ومثله فيما وقع بين المعطوف والمعطوف عليه ما في قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١).

فقوله : (﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ كلام معترض وسره : (هو أن الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله ، فعليهم أن يحمدوا الله إذا سبحوه)(٢).

وتأتي جملة الاعتراض بين الصفة والموصوف للقطع بجهل الكفار، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٣) يقول الفخر في جملة ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ : (... هو كلام اعتراض في أثناء الكلام وتقديره : وإنه لقسم عظيم لو تعلمون لصدقتم ،فإن قيل فما فائدة الاعتراض ؟ نقول الاهتمام بقطع اعتراض المعترض ،لأنه لما قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾ أراد أن يصفه بالعظمة بقوله عظيم والكفار كانوا يجهلون ذلك ويدعون العلم بأمور النجم، وكانوا يقولون لو كان كذلك فما باله لا يحصل لنا علم وظن فقال : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ لحصل لكم القطع) (٤).

وقد تفرد الفخر بذكر هذا السر لهذا الاعتراض ،فقد أجمع أكثر المفسرين على أن هذه الجملة جاءت لتأكيد وتعظيم جملة القسم الواقعة فيها .

فمثلاً يقول أبو السعود :(﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ اعتراض في اعتراض قصد به المبالغة في تحقيق مضمون الجملة القسمية وتأكيده)(٥).

---

(١) سورة الروم : ١٧ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٠٨ م١٣ .

(٣) سورة الواقعة : ٧٦ .

(٤) التفسير : ٢٩/١٩٠ م١٥ .

(٥) إرشاد العقل السليم : ٨/١٩٩ .

ويقول الألوسي : (* لَوْ تَعْلَمُونَ * معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم)[١] أي التعظيم المستفاد من جملة القسم.

وقد سكت الفخر عن بيان سر الجملة الاعتراضية التي وقعت فيها : * لَوْ تَعْلَمُونَ * وهي : * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * حيث وقعت بين القسم والمقسم عليه : * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * و * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ *.

وكأن الفخر لا يرى فيها اعتراضاً ،وقد وجدت أن ابن عطية لا يعد جملة القسم اعتراضاً ويرى أنها جاءت للتأكيد.

يقول : (* وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ * تأكيد للأمر وتنبيه من المقسم به وليس هذا باعتراض بين الكلامين بل هذا معنى قصد التهمم به ،وإنما الاعتراض قوله : * لَوْ تَعْلَمُونَ *)[٢].

وتقع جملة الاعتراض بين المشبه والمشبه به لقصد تسلية النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : * وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ *[٣]
يقول : (كيف توسط بين المشبه والمشبه به * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ * إلى آخره ؟ - أي إلى قوله تعالى : * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ * - قلنا لما كان ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم اعترض بما هو

---

(١) روح المعاني : ٢٧/١٥٣.
(٢) نقلاً عن البحر المحيط : ٨/٢١٤ ،لجأت إلى هذا النقل لأن تفسير ابن عطية لم يصل إلينا كاملاً وما وصل إلينا حتى سورة النحل فقط.
(٣) سورة الحجر : ٨٧ — ٩٠.

مدار لمعنى التسلية من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم)(١).

وهكذا فإن الفخر أدرك قيمة جملة الاعتراض في الكلام.

---

(١) التفسير : ٢١٧/١٩ م١٠.

الالتفات

يتسع بحث الالتفات في التفسير الكبير ،ويخرج عن الحدود الضيقة التي وضعها له الفخر في (نهاية الإيجاز) ،ويعده قسماً من أقسام النظم يتعلق فيه الكلام بعضه ببعض ، وفيه تظهر قوة الطبع ،وجودة القريحة ،واستقامة الذهن ،حيث تتداخل فيه الجمل فتكوّن بناءً واحداً ،وضم إليه أبواباً أخرى كالمطابقة والمقابلة والمزاوجة وغيرها من الأبواب ، التي ترى فيها الكلام متلاحم الأجزاء .

وهذا لم يذكره عبد القاهر بل أشار إليه ،والفخر مثّل له بهذه الأبواب.

ويذكر الفخر تعريفين للالتفات : الأول يقول : (قيل : إنه العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس ،فالأول قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (١) والثاني قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ (٢).

وهذا التعريف الأول عند الفخر يعود إلى ابن المعتز الذى عرفه بقوله : (وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك) (٣).

والتعريف الثاني : (وقيل : هو تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه فى المعنى ،ليكون تتميماً له على جهة المثل أوغيره كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ (٥).

---

(١) سورة الفاتحة : ٤ ومن الآية ٥ .

(٢) سورة يونس : من الآية ٢٢ . ،نهاية الإيجاز : ٢٨٧ .

(٣) البديع : ٥٨ .

(٤) سورة الإسراء : ٨١ .

(٥) سورة التوبة : من الآية ١٢٧ . نهاية الإيجاز : ٢٨٨ .

وهذا هو التذييل الذى جعله البلاغيون المتأخرون نوعاً من أنواع الإطناب يعرفه الخطيب بقوله : (وهو تعقيب الجملة بجملة تشمل على معناها للتوكيد)[١] ثم بين أنواعه ، فمنه ما لا يخرج مخرج المثل ،ومنه ما يخرج مخرج المثل كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾ .

ولم يذكر أحد من المتقدمين هذا التعريف للالتفات ،وقد وجدت رشيد الدين الوطواط في كتابه : (حدائق السحر في دقائق الشعر) يذكر هذين التعريفين للالتفات. وأكبر الظن أن الفخر نقل منه ذلك حيث يقول : (تكون هذه الصنعة كما يقول بعض أهل العلم - بأن تنتقل بالعبارة من المخاطبة إلى الغيبة أو من المغايبة إلى المخاطبة، وكلا النوعين موجود في القرآن)[٢].

ثم يستشهد بآية الفاتحة ويونس ويضيف إلى الالتفات نوعاً ثالثاً وهو الانتقال من المغايبة إلى المتكلم.

ثم يذكر التعريف الثاني فيقول : (وقال بعض أهل العلم إن الالتفات يكون بأن يقول الكاتب معنى من المعاني ويتمه ،ثم يلتفت إلى هذا المعنى ، فيذكر بعضه إما صراحة أو كناية على سبيل المثل أو الدعاء ،أو أى وجه آخر ومثاله من القرآن : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾.[٣]

وقد جعل التفتازاني هذا النوع من أنواع الالتفات و نقل كل أمثلة الوطواط.

---

(١) الإيضاح ،للخطيب القزويني : ٣٠٩ ،وينظر شروح التلخيص : ٣/٢٤٦ - ٢٤٧.

(٢) ص : ١٣٤.

(٣) حدائق السحر : ١٣٤ - سورة الإسراء : ٨١.

وقد رجعت إلى التفسير فوجدت الفخر يمر على هذه الآيات دون أن يشير إلى أنها من الالتفات .

والالتفات في التفسير هو ما انتقل فيه الأسلوب من طريق إلى آخر من طرق الخطاب .

وسأبدأ بذكره لسر بلاغة الالتفات وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ (١) يقول : (والعدول عن المغايبة إلى النفس فيه فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر مراراً) (٢) ويقصد بالفصاحة هنا البلاغة كما مر بنا في عدة مواضع

وهو هنا لا يحدد انتقالاً من طريق إلى طريق ، بل يستحسن كل انتقال في الكلام ، وتلون في الأسلوب ، وتصرف في مجارى الكلام ولذلك يقول : (ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه) .

ثم يرجع سر التفات الآية إلى وجهين :

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٤٤ م١٣ .

أحدها : أن خلق الأرض ثقيل، والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل أنه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم أنه باختيار الدابة، لأن لها اختياراً ... ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعاً، فإن الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا، إذ الماء لا اختيار له فهو بإرادة الله فقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ .

الثاني : هو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان، متكثرة في كل مكان، فأسنده إلى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر نعمته فيزيد له من رحمته) (١) .

ففي الالتفات تنبيه الإنسان ولفته إلى هذه النعمة.

وأرى أن هذا الوجه أقرب للآية من المعنى الأول، وإن كان الفخر مولعاً بإرجاع السر البلاغي إلى الظواهر الكونية، وهو مجال برع فيه الفخر وتفرد .

وقد رأى الفخر عدم اهتمام العلماء ببيان سر مواقع الالتفات في الكلام البليغ ولذلك أخذ عليهم ذلك، وإن كنت أظن أنه قصد بذلك عبد القاهر الجرجاني الذى لم يتناول الالتفات، ولم يتحدث عنه في كتابيه، وإن كان الزمخشرى قد تحدث عنه وعن أوجه بلاغته في بعض الآيات، ولذلك فالفخر يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٢) : (قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ بعد قوله : ﴿ أَنزَلَ ﴾ يسمى التفاتاً، ويعد ذلك من الفصاحة. واعلم أن أصحاب العربية ادعوا أن ذلك يعد من الفصاحة وما بينوا أنه من أى الوجوه يعد هذا الباب ؟ وأما نحن فقد أطنبنا فيه في تفسير قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ فلا فائدة من الإعادة) (٣) .

---

(١) التفسير : ٢٥/١٤٤ م١٣ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ٩٩ .

(٣) التفسير : ١٣/١١٣ م٧ .

وقد رجعت إلى هذه الآية لأرى ماذا يقصد بوجه البلاغة التي أهمل أصحاب العربية الحديث عنها ، فوجدته يرجع سر الالتفات فيها إلى ثلاثة أوجه الأول للزمخشرى، والثاني للجبائي، والثالث له .

يقول : (الأول : قال صاحب الكشاف: المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجبهم منها ...

الثاني : قال أبو على الجبائي : إن مخاطبته تعالى لعباده هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب ، وكل من أقام الغائب مقام المخاطب حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب .

الثالث : وهو الذى خطر بالبال في الحال ، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام ، وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة يدل على المقت والتبعيد) .(١)

ثم يضرب مثلاً على النوع الأول بسورة الفاتحة فيقول : (فكما في سورة الفاتحة ، فإن قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كله مقام الغيبة ، ثم انتقل منها إلى قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور ، وهذا يوجب علو الدرجة ، وكمال القرب من خدمة رب العالمين .

أما الثاني فكما في قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ خطاب الحضور ، وقوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ مقام الغيبة ، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة ، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد ، وهو اللائق بحال هؤلاء ، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران ، كان اللائق به ما ذكرناه) .(٢)

---

(١)،(٢) التفسير : ٧٢/١٧ م٩٥

فالفخر وإن كان يعنى بوجه بلاغة الالتفات ما يفيده كل وجه من وجوه الانتقال فقد اقتصر في بيان ما يفيده الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة دون غيره من أساليب الانتقال في الالتفات، وقد طبق قوله هذا على عدة آيات في التفسير .

يقول في قوله تعالى : * يا أيُّها الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُم مِن قَبْلِ أن نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً * .(١)

: (وقوله تعالى : * يَا أيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ * خطاب مشافهة ، وقوله : * أَوْ نَلْعَنَهُمْ * خطاب مغايبة فكيف يليق أحدهما بالآخر ؟

الجواب: منهم من حمل ذلك على طريق الالتفات . . . ومنهم من قال هذا تنبيه على أن التهديد حاصل في غيرهم ممن يكذبون من أبناء جنسهم . وعندى فيه احتمال آخر وهو أن اللعن هو الطرد والإبعاد ، وذكر العبد لا يكون إلا بالمغايبة فلما لعنهم ذكرهم بعبارة الغيبة) .(٢)

ووجه الفخر أقرب إلى المعنى، فالله تعالى ناداهم نداء تشريف : * ياأيُّهَا الَّذِينَ آمِنُوا * ، ثم طلب منهم أن يؤمنوا ،ثم أوعدهم فأتى بأسلوب الغيبة طرداً وإبعاداً إن لم يستجيبوا لداعي الله.

وقد يكون في ذكر هذا الوعيد بضمير الغيبة إيهام أنه ليس لهم ،ليبقى التأنيس والاستدعاء إلى الإيمان في الخطاب الأول غير مشوب بمفاجأة الخطاب الذى يوحش السامع وقد يصرفه عن القبول .(٣)

---

(١) سورة النساء : ٤٧ .

(٢) التفسير : ١٠/١٢٦-١٢٧ م٥ .

(٣) ينظر البحر المحيط : ٣/٢٦٨ .

وأعود فأقول : إنه لا يمكن تحديد وجه لكل نوع من طرق الانتقال ؛ لأنّ المعاني تتنوع والأساليب تختلف في مقاماتها ،والسياق هو الذى يولد الوجه البلاغي المناسب له ،وولوع الفخر بوضع البلاغة في أطر وقواعد هي التي جعلته يحدد دلالة الانتقال من الغيبة إلى الخطاب على التعظيم ،ودلالة الانتقال من الخطاب إلى الغيبة على المقت والطرد دون اعتبار معان أخرى.

ثم إنني لاحظت أن هذه الدلالة تتفلت منه في آيات أخرى ، فقد يخرج الكلام من الخطاب إلى الغيبة للدلالة على التعظيم في الآيات التي تتحدث عن نعيم الجنة لا على المقت والطرد كما ذكر ، يقول في قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُم مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾(١): (قال تعالى : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ على سبيل المخاطبة ،ثم قال : ﴿ لَهُم ﴾ ولم يقل " لكم " ما الحكمة فيه ؟ الجواب : هو أنه من باب الالتفات والحكمة الجمع بين الطرفين ،كأنه تعالى يقول : إكرامهم به في حضورهم ،ففي حضورهم الحبور وفي غيبتهم الحور والقصور)(٢).

كذلك قد يأتي الالتفات من الخطاب إلى الغيبة للفت إلى حكمة الله وعظيم قدرته كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. ﴾(٣) يقول الفخر : (إن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة ،والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى ... فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال : إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه)(٤).

---

(١) سورة ق : ٣٤-٣٥.
(٢) التفسير : ٢١/ ١٨١ م١٤.
(٣) سورة النحل : من الآية ٦٩.
(٤) التفسير : ٢٠/ ٧٤ م١٠.

ويذكر الفخر وجوهاً متنوعة لانتقال الالتفات ، ويبين سرها البلاغي، وسأحاول الإلمام بها ، لأنها تمثل أوجه الالتفات التي اتفق عليها المتأخرون بعد..

فقد ينصرف الكلام من الغيبة إلى التكلم ، لزوال شبهة قد تعلق بذهن الإنسان، وللدلالة على قدرته تعالى في هذا الكون .

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾ (١) : (ما حكمة الالتفات في قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾ ، جوابه : أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى ، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان ، فإن الإنسان يقول : أنا الذى ألقى البذرة في الأرض الحرة ، وأسقيها الماء ، وأسعى في تشميسها ، وفاعل السبب فاعل للمسبب، فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائماً لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله : ﴿ فَأَنبَتْنَا ﴾). (٢)

إذن فالالتفات جاء لبيان اختصاصه سبحانه وتعالى بهذا الفعل ، وفي ضمير المتكلم بيان لعظمته سبحانه وتعالى .

ويقف الفخر عند آيات أخرى تشبه الآية السابقة في الانتقال من الغيبة إلى الخطاب وتتحدث عن دلائل الكون .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٣) : (قال :

---

(١) سورة النمل : من الآية ٦٠ .

(٢) التفسير : ٢٠٦/٢٤ م١٢ .

(٣) سورة فاطر : ٩ .

* أَرْسَلَ * إسناداً للفعل إلى الغائب ، وقال : * سُقْنَاهُ * بإسناد الفعل إلى المتكلم ،وكذلك في قوله : * فَأَحْيَيْنَا * ،وذلك لأنه في الأول عرف نفسه بفعل من الأفعال وهو الإرسال ،ثم لما عرف قال أنا الذى عرفتني سقت السحاب وأحييت الأرض ، فنفى الأول كان تعريفاً بالفعل العجيب ،وفي الثاني تذكيراً بالنعمة ،فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء).(١)

وفي الالتفات هنا دلالة على اختصاصه تعالى بهذه الأفعال ، وقدرته الباهرة .

وقد يكون الانتقال من الغيبة إلى الخطاب مفيداً لزيادة الإنكار كما في قوله تعالى : * عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *(٢) : (واعلم أن في الإخبار عما فرط من رسول الله ثم الإقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة الإنكار ،كمن يشكو إلى الناس جانياً جنى عليه ،ثم يقبل على الجاني إذا حمى في الشكاية مواجهاً بالتوبيخ وإلزام الحجة).(٣)

وقد أخذ هذا الوجه من الزمخشري .

وقد يتحول الأسلوب من التكلم إلى الغيبة ثم يعود ثانية إلى التكلم في آية واحدة لبيان العظمة.

يقول الفخر في قوله تعالى : * تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ .. *(٤) : (إنه تعالى قال في أول الآية : * فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ * ثم عدل عن هذا النوع من الكلام إلى المغايبة فقال :

---

(١) التفسير : ٧/٢٦ م١٣.

(٢) سورة عبس : ١-٢-٣.

(٣) التفسير : ٥٧/٣١ م١٦.

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٣.

* مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ * ثم عدل من المغايبة إلى النوع الأول فقال : * وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ * فما الفائدة في العدول عن المخاطبة إلى المغايبة ، ثم عنها إلى المخاطبة مرة أخرى ؟ والجواب : أن قوله : * مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ * أهيب وأكثر وقعاً من أن يقال منهم من كلمنا ، ولذلك قال : * وَكَلَّمَ اللَّهُ موسى تَكْلِيماً * فلهذا المقصود اختار لفظة الغيبة، وأما قوله : * وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ * فإنما اختار لفظ التكلم (١) ؛ لأن الضمير في قوله : * وَآتَيْنَا * ضمير التعظيم ،وتعظيم المؤتى يدل على عظمة الإيتاء) (٢) .

والسبب في كون : * مِنْهُم مَن كَلَّمَ اللَّهُ * أهيب وأكثر وقعاً من (منهم من كلمنا) لأن في ذكر الله عظمة وفخامة وتعظيم لمن كلمهم .

وقد يعدل المتكلم من الخطاب إلى النفس لتأكيد ما احتج به أمام المخاطبين، كما في قوله تعالى : * اتَّبِعُوا مَن لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُهْتَدُونَ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٣).

يقول الفخر : (وفي العدول عن مخاطبة القوم إلى حال نفسه حكمة . . . وهي أنه لو قال مالكم لا تعبدون الذى فطركم ، لم يكن في البيان مثل قوله : * وَمَالِيَ * ؛ لأنه لما قال : * وَمَالِيَ * واحد لا يخفى عليه حال نفسه على كل أحد أنه لا يطلب العلة وبيانها من أحد ؛ لأنه أعلم بحال نفسه ، فهو بيين عدم المانع ، وأما لو قال : مالكم ؟ جاز أن يفهم منه أنه يطلب بيان العلة لكون غيره أعلم بحال نفسه) (٤) .

---

(١) ذكر الفخر في التفسير : (اختار لفظ المخاطبة) وهو خطأ والمناسب للكلام ما ذكرته (اختار لفظ التكلم) .

(٢) التفسير : ٦ / ٢١٨ م٣ .

(٣) سورة يس : ٢١-٢٢ .

(٤) التفسير : ٢٦ / ٥٦ م١٣ .

ويصرف الزمخشري فائدة الالتفات إلى ناحية أخرى وهي أن الرجل قد أراد الملاطفة في النصح يقول : (ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم، ليتلطف بهم ويداريهم ، ولأنه أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه)[1].

وينتقل الأسلوب من التكلم إلى الخطاب لبيان عظمة ما أسند إليه ضمير التكلم وإن جاء على الخطاب .

يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[2] : (قال : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ولم يقل : إنا فتحنا لنغفر لك تعظيماً لأمر الفتح ، وذلك لأن المغفرة وإن كانت عظيمة لكنها عامة)[3].

وهكذا استطاع الفخر أن يكشف عن أسرار كثير من صور انتقال الالتفات ولم يقتصر على الوجهين اللذين ذكرهما في (نهاية الإيجاز) .

وقد لاحظت أنه ذكر كل الأوجه التي اتفق المتأخرون[4] عليها فيما بعد فالأسلوب قد ينتقل -كما مر بنا-

من الغيبة إلى الخطاب	ومن الخطاب إلى الغيبة
ومن الغيبة إلى التكلم	ومن التكلم إلى الغيبة
ومن الخطاب إلى التكلم	ومن التكلم إلى الخطاب

---

(١) الكشاف : ٣/٣١٩.
(٢) سورة الفتح : ١-٢.
(٣) التفسير : ٧٩/٢٨ م١٤.
(٤) ينظر شروح التلخيص : ٤٦٣/١ ومابعدها .

التكـــــــــرار

وقف الفخر أمام كثير من أساليب التكرار في القرآن الكريم ،وبين أسراره البلاغية ،وما يضيفه من حسن للكلام.

وقد وجدت أن التكرار عنده ثلاثة أنواع :

١ - تكرار في اللفظ والمعنى .

٢ - تكرار في المعنى دون اللفظ .

٣ - تكرار في اللفظ دون المعنى .

١ - التكرار في اللفظ والمعنى :

وهذا النوع أكثر ما في التفسير ،وقد ذكر أغراضاً كثيرة له سأكتفي ببعض منها :

فقد يأتي التكرار متلطفاً ليصرف النفس المنغمسة في حمأة الضلال ، وطريق الغواية عما هي عليه ،ويغمتها بما تحب أن تنعت به كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ﴾(١) يقول : (كرر في الآيتين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ ﴾ لأن المقصود التوبيخ على ألطف الوجوه ،وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلال، وأدل على النصح لهم في الدين والإشفاق)(٢).

والسح فيه تأكيد استقلالهم بأهلية الكتاب الذى يستدعى منهم الإيمان بما عداه.

-----

(١) سورة آل عمران : ٩٨ ومن الآية ٩٩.

(٢) التفسير : ١٧٣/٨ م٤.

وفي تكرار : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ إذلال لهم وتحقير لشأنهم وتهويل لما فعلوه في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾ (١).

يقول : (وإنما كرر قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ لتعظيم المذلة لهم وتفظيع ما يستحقون من الجزاء على جهلهم ، والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم، فيقول الرجل لغيره : أخوك الذى ظلمنا ، أخوك الذى أخذ أموالنا أخوك الذى هتك أعراضنا) (٢).

ويرى الزمخشرى أن التكرار جاء هنا مبالغة في رد مقالة الملأ لأشياعهم في قوله تعالى قبله : ﴿ وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ (٣) وفيه أيضاً تسفيه لرأيهم واستهزاء بنصحهم لقومهم لما جرى عليهم (٤).

ويبنى الزمخشرى هنا معنى التكرار على الآية التي قبلها، بينما يفصل الفخر بينهما ويذكر ما يفيده التكرار في الآية ، وما ذكره أقرب إلى مفهوم المعنى مما ذكره الزمخشرى .

وقد جرى الفخر في هذه الآية وفي غيرها على ربط القرآن بطرائق العرب وجريانه على مذاهب القوم في أساليب لغتهم في قوله : (والعرب تكرر مثل هذا) .

وقد يفيد التكرار الحث على تكرير العبادة وغرسها في النفس كما في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٥).

---

(١) سورة الأعراف : ٩٢ .
(٢) التفسير : ١٤/ ١٩٠ م٧ .
(٣) سورة الأعراف : ٩٠ .
(٤) ينظر الكشاف : ٢/ ٩٧ .
(٥) سورة آل عمران : ١٨ .

يقول : (فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة ، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها و بتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها)[1] .

ويذكر أبو حيان أنه قيل إن الأولى شهادة الله والثانية شهادة الملائكة وأولى العلم ثم يقول : (وهذا بعيد جداً لأنه يؤدى إلى قطع الملائكة عن العطف على الله تعالى)[2] لأنه عندئذ لا يكون تكراراً .

و تكرر الجملة للدلالة على بقاء الأمر المراد به ، وأرى الفخر هنا يذكر آراء العلماء ثم يرجح رأيه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ .. وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] : (ذكروا في فائدة تكرير الأمر بالهبوط وجهين :

الأول : قال الجبائي الهبوط الأول غير الثاني ، فالأول من الجنة إلى سماء الدنيا ، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض ...) وقد ضعف هذا الوجه .

الوجه الثاني : أن التكرير لأجل التأكيد .

وعندى فيه وجه ثالث أقوى من هذين الوجهين ، وهو أن آدم وحواء

---

(١) التفسير : ٢٢٣/٧ م٤ .

(٢) البحر المحيط : ٤٠٦/٢ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٣٦ وآية ٣٧-٣٨ .

لما أتيا بالزلة أمراً بالهبوط فتابا بعد الأمر بالهبوط ووقع في قلبهما أن الأمر بالهبوط لما كان بسبب الزلة فبعد التوبة وجب أن لا يبقى الأمر بالهبوط، فأعاد الله تعالى الأمر بالهبوط مرة ثانية ليعلما أن الأمر بالهبوط .. باق بعد التوبة)[١].

وقد أخذ أبوالسعود هذا المعنى ، وأضاف إليه وعبر عن كل ذلك بأسلوب أدبي جيد .

يقول : (كرر الأمر بالهبوط إيذاناً بتحتم مقتضاه وتحققه لا محالة ودفعاً لما عسى يقع في أمنيته عليه السلام من استتباع قبول التوبة للعفو عن ذلك ، وإظهاراً لنوع رأفة به عليه السلام لما بين الأمرين من الفرق النير كيف لا ، والأول مشوب بضرب وسخط مذيل ببيان أن مهبطهم دار بلية وتعاد لا يخلدون فيها ، والثاني مقرون بوعد إيتاء الهدى المؤدى إلى النجاح ..)[٢].

ويرى البعض أن التكرار جاء لاختلاف متعلق كل أمر منهما ، فالأول متعلق بالعداوة، والثاني بإتيان الهدى[٣].

ويدل التكرار في كثير من الآيات على التأكيد ، وهو من أهم أغراضه ، ويعد المحور الأساسي الذى يدور حوله.

ويقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤] : (وقوله : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ ﴾ تأكيد للأول ، وحسنت

---

(١) التفسير : ٣/ ٢٨ م٢ .

(٢) إرشاد العقل السليم : ١/ ٩٢ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ، لابن عطية : ١/ ٢٦٢ ، والكشاف ، للزمخشري : ١/ ٢٧٤ .

(٤) سورة آل عمران : ١٨٨ .

إعادته لطول الكلام كقولك : لا تظن زيداً إذا جاءك وكلمك في كذا فلا تظنه صادقاً)(١).

وأرى أنه ليس من البلاغة أن نكتفي بالقول حسن التكرار لطول الكلام بل لا بد من معرفة السر الذي ينطوي عليه طول الكلام حتى اقتضى التكرار.

ويخرج ابن الأثير هذه الآية من التكرار، لطول الفصل، ولأن أوله يفتقر إلى تمام لا يفهم إلا به.

يقول : (فالأولى في باب الفصاحة أن يعاد لفظ الأول مرة ثانية، ليكون مقارناً لتمام الفصل)(٢).

ويدل التكرار على التأكيد أيضاً في قوله تعالى : * يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً *(٣).

يقول : (إنه تعالى قال أولاً : * اتَّقُوا رَبَّكُمُ * ثم قال بعده : * واتَّقُوا اللَّهَ * ... تأكيد الأمر والحث عليه كقولك للرجل : اعجل اعجل، فيكون أبلغ من قولك اعجل)(٤).

ويذكر الفخر أن آيات الوعيد لم تتكرر في القرآن إلا مرة واحدة، وذلك في سورة النساء، حيث إنها تأتي للتوكيد باتفاق المفسرين.

---

(١) التفسير : ١٣٦/٩ م٥.

(٢) المثل السائر : ١٧/٣.

(٣) سورة النساء : ١ .

(٤) التفسير : ١٧١/٩ م٥.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ (١) وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٢) .

يقول : (اعلم أن هذه الآية مكررة في هذه السورة ،وفي تكرارها فائدتان ،الأولى : أن عمومات الوعيد وعمومات الوعد متعارضة (٣) في القرآن ، وأنه تعالى ما أعاد آية من آيات الوعيد بلفظ واحد مرتين ، وقد أعاد هذه الآية دالة على العفو والمغفرة بلفظ واحد في سورة واحدة ،وقد اتفقوا على أنه لا فائدة في التكرير إلا التأكيد ،فهذا يدل على أنه تعالى خص جانب الوعد والرحمة بمزيد التأكيد ،وذلك يقتضي ترجيح الوعد على الوعيد) (٤) .
وهاتان الآيتان وإن كانتا وعيداً إلا أنهما دلتا على المغفرة والعفو في قوله : ﴿ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ .

ويأتي التكرار لتهويل وتعظيم أمر ما يقع فيه والتخويف منه ،كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (٥) يقول :

---

(١) آية:٤٨ .
(٢) آية : ١١٦ .
(٣) المعارضة هنا بمعنى المقابلة من عارض الشيء بالشيء معارضة أي قابله، ومنه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : (أن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ،وأنه عارضه العام مرتين) قال ابن الأثير : أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن من المعارضة المقابلة . لسان العرب ،لابن منظور : ١٦٧/٧ .
(٤) التفسير : ٤٦/١١ م٦ .
(٥) سورة الروم : ١٢/١٤ .

(وأعاد قوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ،لأن قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيداً للتخويف منه ،واعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهواله) .(١)

وقد يفيد التكرار التوكيد مع المبالغة كما في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.(٢)

يقول : (إن المقصود من هذا التكرير التأكيد والمبالغة في الحث على الإيمان والتقوى) .(٣)

ويذكر الفخر وجوهاً لتكرار قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٤) إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن .

يقول : (ما الحكمة في تكرير هذه الآية وكونه إحدى وثلاثين مرة ؟

نقول : الجواب من وجوه :

الأول : أن فائدة التكرار التقرير .

الثاني : .. فلما ذكر العذاب ثلاث مرات(٥) ذكر الآلاء إحدى وثلاثين مرة لبيان ما فيه من المعنى وثلاثين مرة للتقرير .

الثالث : أن الثلاثين مرة تكرير بعد البيان في المرة الأولى ،لأن الخطاب مع الجن والإنس ...

---

(١) التفسير : ١٠٣/٢٥ م١٣ .

(٢) سورة المائدة : ٩٣ .

(٣) التفسير : ٢٢٤/١٦ م٨ .

(٤) سورة الرحمن : ١٣ وغيرها من الآيات .

(٥) المراد به قوله تعالى في سورة القمر : ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فقد جاءت ثلاث مرات بعد ذكر عذاب قوم نوح وقوم عاد وقوم صالح .

ولا يسمى الفخر هذا تكراراً في كتابه : (نهاية الإيجاز) وهو يتحدث عن فساد طعنهم في القرآن من جهة التكرار والتطويل ، لأن المعنى في كل تكرار يختلف عن غيره - كما يقول - ولا يكون التكرار في اللفظ إنما في المعنى يقول : (وأما ما تكرر في سورة الرحمن من قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فليس بتكرار ، لأنه سبحانه ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقب عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرى ، وإن كان اللفظ واحداً) (١) .

وقد يأتي التكرار في الكلام ويدل على أكثر من معنى ، وهو الذى قال عنه ابن الأثير إنه من التكرار المفيد الذى يدل على معنى واحد والمقصود به غرضان مختلفان (٢) .

واختلاف هذين الفرضين يكون باختلاف السياق السابق لكل جملة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً .. وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (٣) .

يقول : (ما الفائدة في الإعادة ؟ نقول لله جنود الرحمة وجنود العذاب أو جنود الله إنزالهم قد يكون للرحمة ، وقد يكون للعذاب فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين قال تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ وثانياً إنزال العذاب على الكافرين) (٤) .

---

(١) نهاية الإيجاز : ٣٨٨ .

(٢) ينظر المثل السائر : ٣ / ٥ .

(٣) سورة الفتح : من الآية ٣ والآية ٧ .

(٤) التفسير : ٢٨ / ٨٤-٨٥ م١٤ .

وقد فهم هذين المعنيين من سياق الآية السابقة للتكرار ،فالأول جاء بعد ذكر اختصاصه تعالى بإنزال السكينة على قلوب المؤمنين ،والثاني بعد ذكر المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء .

ويتكرر قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (١) ثلاث مرات، ولكل تكرار معناه الخاص المفهوم من سياق الكلام قبله .

يقول : (... إنه تعالى ذكر : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ في حكاية نوح للتعظيم، وفي حكاية ثمود للبيان ،ومن حكاية عاد أعادها مرتين للتعظيم والبيان جميعاً) (٢) .

فالآية ذكرت بعد حكاية نوح تهويلاً وتعظيماً لما حل بهم من العذاب والاستئصال ، وفي ثمود ذكرت قبل القصة فاستفهم بها لبيانها ، أما في حكاية عاد فقد ذكرت مرتين ،استفهم بها في الأولى للبيان ثم لما ذكر عذابهم كررت الجملة للتعظيم وتهويل العذاب .

ولا يجعل الزمخشري وغيره معنى لكل تكرار بل يرى أن فائدته الادكار والاتعاظ عند سماع كل نبأ . (٣)

ونبه الفخر إلى تكرار القصص القرآني ،وما يحققه من أغراض متنوعة في كل مرة ،وفي ذلك دلالة على فصاحة القرآن وحسن بيانه .

من ذلك أنه يبين سر تكرار قصة نوح في سورة يونس وسورة هود

---

(١) سورة القمر : ١٦-١٨-٢١-٣٠ .

(٢) التفسير : ٢٩/٥٨ م١٥ .

(٣) ينظر الكشاف : ٤/٤٠ ، البحر المحيط : ٨/١٨٢ .

فيقول : (إن القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه : ففي السورة الأولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب ،فذكر تعالى قصة نوح في بيانه أن قومه كانوا يكذبونه بسبب أن العذاب ما كان يظهر، ثم في العاقبة ظهر ، فكذا في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم ،وفي هذه السورة -أى سورة هود - ذكر هذه القصة لأجل أن الكفار كانوا يبالغون في الإيحاش فذكر الله تعالى هذه القصة لبيان أن إقدام الكفار على الإيذاء والإيحاش كان حاصلاً في زمان نوح ،إلا أنه عليه السلام لما صبر نال الفتح والظفر . . . ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً عن الفائدة)[(١)] .

وفي كلامه هذا تنبيه على ضرورة التأمل في القصص القرآني المكرر في سور عدة ،وكشف للخصائص الأسلوبية في كل مرة ،ومناسبتها لغرض السورة العام .

ويتحدث الفخر عن تكرار القصص القرآني في (نهاية الإيجاز) والمغزى منه فيذكر أن به تظهر الفصاحة وحسن البيان في القرآن الكريم .

فيقول : (. . . وكان تعالى يسليه بما ينزله عليه من أقاصيص من تقدم من الأنبياء ،ويعيد ذكره بحسب ما يعلمه من الصلاح . . . وأيضاً فلأن ظهور الفصاحة ومزيتها في القصة الواحدة إذا أعيدت أبلغ منها في القصص المتغايرة، فهذا هو الفائدة فيما تكرر في كتاب الله من قصة موسى وفرعون وسائر الأنبياء)[(٢)] .

وهذه هي المعاني التي ذكرها القاضي عبد الجبار نقلاً عن شيخه أبي علي فقد قال : (إن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة بألفاظ مختلفة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال ، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل لا من دلالة المعايب في الكلام)[(٣)] .

---

(١) التفسير : ١٨/٩ - ١٠ م ٩ .

(٢) ص : ٣٨٨ .

(٣) المغني : ٣٩٧/١٦ .

٢ - تكرار في المعنى دون اللفظ :

وقد يأتي التكرار بغير اللفظ ، أي أن المعنى يكرر بألفاظ وتراكيب مختلفة تدل على معنى واحد ، واهتم الفخر بهذا النوع وبين أسرار مجيء التكرار على هذه الهيئة ، ودلالته على المعنى .

ويأتي هذا النوع - غالباً - ليفيد التأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (١).

يقول : (اللعن هو البعد فلما قال : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فما الفائدة في قوله : ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ ﴾ ؟ الجواب: التكرار بعبارتين مختلفتين يدل على غاية التأكيد) (٢).

وقد يأتي التوكيد مع التبكيت كما في قوله تعالى : ﴿ ... وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٣).

يقول : (وأما قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا ﴾ فهو تأكيد بتكرير الشيء بغير اللفظ الأول ، وهو بمنزلة أن يقول الرجل لعبده وقد احتمل منه ذنوباً سلفت منه فعاقبه عند آخرها : هذا بما عصيتني وخالفت أمري ، وهذا بما تجرأت علي واغتررت بحلمي ، هذا بكذا ، فيعد عليه ذنوبه بألفاظ مختلفة تبكيتاً) (٤).

---

(١) سورة هود : ٦٠ .
(٢) التفسير : ١٧/١٨ م٩ .
(٣) سورة البقرة : من الآية ٦١ .
(٤) التفسير : ٣/١١٠ م٢ .

٣ - تكرار في اللفظ دون المعنى :

وقد تتكرر الألفاظ والجمل دون المعنى ، ولا يسميه الفخر تكراراً ؛ لأن المعنى في كل جملة يختلف عن المعنى في الجملة الأخرى ، والعبرة عنده بتكرار المعنى لا اللفظ ، خاصة في القرآن الكريم ، ويتردد ذلك كثيراً في تفسيره فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾.(١)

يقول : (فإن قيل : ما معنى التكرير في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾ ؟ قلنا : هذا ليس بتكرير ؛ لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بالإتيان بالعبادة ، والثاني إخبار بأنه أمر بأن لا يعبد أحداً غير الله).(٢)

وقد تبع الفخر الزمخشري في هذا الوجه فلم يعده تكراراً.(٣)

وخالفهما ابن الأثير واعتبره تكراراً ، وذكره تحت قسم (التكرار في اللفظ والمعنى والمقصود به غرضان مختلفان)(٤) وذكر فيه ما قاله الزمخشري والفخر الرازي .

ورأيه في هذا النوع من التكرار يوافق ما قاله في (نهاية الإيجاز)

---

(١) سورة الزمر : (١١-١٤).

(٢) التفسير : ٢٥٥/٢٦ م١٣.

(٣) ينظر الكشاف : ٣٩٢/٣.

(٤) المثل السائر : ١٠/٣.

: (ليس المعتبر بتكرار اللفظ ، لأنا نعلم أن الحروف والكلمات متكررة في كل الكلام ، وإنما المعتبر بالأغراض والمقاصد فربما كان المشتبه في اللفظ غير مكرر في المعنى ، وربما كان المتباين في اللفظ متكرراً في المعنى) (١) ولذلك دفع أن يكون هناك تكرار في سورة الرحمن وسورة المرسلات وسورة الكافرين ؛ لأن القصد في كل جملة يختلف عن القصد من الجملة الأخرى .

ومما لا يعده الفخر تكراراً في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٢)

يقول في تكرار الأمر بالتقوى : (... لأنه في الأول أراد ألا تتقون مخالفتي وأنا رسول الله ، وفي الثاني ألا تتقون مخالفتي ، ولست آخذ منكم أجراً فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه ، وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيراً ، ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيراً) (٣) .

وكلامه هذا يقرب من أن يكون تكراراً ؛ لأن الغرض الأساسي من هذا التكرار تأكيد وتقرير أمر التقوى في نفوسهم .

وذكر هذا الزمخشري فقال : (وكرره ليؤكد عليهم ويقرره في

---

(١) ص : ٣٨٨ .
(٢) سورة الشعراء : ١٠٥ — ١١٠ .
(٣) التفسير : ٢٤/ ١٥٤ م١٢ .

نفوسهم مع تعليق كل واحدة منها بعلة ، جعل علة الأول كونه أميناً فيما بينهم ، وفي الثاني حسم طمعه عنهم) (١) .

ومعنى حسم طمعه عنهم انتفاء أخذ الأجرة ، فكان كلام الفخر هو كلام الزمخشري في هذه العلة مع اختلاف العبارات ، والفرق أن الفخر لا يسميه تكراراً والزمخشري يسميه تكراراً .

---

(١) الكشاف : ٣/١٢٠ .

الفواصل القرآنيـــة

تتسع دراسة الفواصل عند الفخر في تفسيره ، ويهتم بها اهتماماً بيناً وله رأى فيها . ذلك أنه يرى أن القرآن يعدل من لفظ أى لفظ آخر مراعاة للفاصلة التي كان يسميها : (أواخر الآيات) حتى يتحد النغم ، ثم يحاول أن يستخرج سراً لهذا التحول يقول في قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) : (إنه قال : ﴿ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ولم يقل (يولون الأدبار) وقال في موضع آخر : ﴿ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٢) ، وقال في موضع آخر : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ (٣) فكيف تصحيح الإفراد ، وما الفرق بين المواضع ؟ ... أما الفرق فنقول اقتضاء أواخر الآيــات حسن الإفراد ، فقوله : ﴿ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ إفراد ، إشارة إلى أنهم في التولية كنفس واحدة ، فــلا يتخلف أحد عن الجمع ، ولا يثبت أحد للزحف فهم كانوا في التولية كدبر واحد ، وأما قوله : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ أى كل واحد يوجد به ينبغي أن يثبت ولا يولى دبره فليس المنهى هناك توليتهم بأجمعهم بل المنهى أن يولى واحد منهم دبره ، فكل واحد منهى عن تولية دبره ، فجعل كل واحد برأسه في الخطاب ثم جمع الفعل بقوله : ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمْ ﴾ ولا يتم إلا بقوله : ﴿ الأَدْبَارَ ﴾ (٤) ، فالكلمتان مفردة وجمعاً تؤديان غرضاً واحداً ، وجاءت على هذه الصورة مراعاة لأواخر الآيات ، كما يقول الفخر مع مناسبة كل لفظ لما جاء عليه المعنى .

---

(١) سورة القمر : ٤٥ .

(٢) سورة آل عمران : من الآية ١١١ .

(٣) سورة الأنفال : من الآية ١٥ .

(٤) التفسير : ٦٨/٢٩ م١٥ .

والفخر هنا يربط بين حسن اللفظ وحسن المعنى ، فكما أن القرآن يحسن بحسن اللفظ كذلك يحسن بحسن المعنى ، ويعد ذلك من الإعجاز القرآني .

من ذلك أنه يوجع مجيء الصفة مرة مؤنثة ومرة مذكرة لموصوف واحد مراعاة لأواخر الآيات بعد اعتبار المعنى، يقول في المناسبة بين قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (٢) : (قال ههنا ﴿ مُنقَعِرٍ ﴾ فذكر النخل ، وقال في الحاقة : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ فأنثها . قال المفسرون في تلك السورة كانت أواخر الآيات تقتضي ذلك لقوله : (مستمر - منهمر - منتشر) وهو جواب حسن ، فإن الكلام كما يزين بحسن المعنى يزين بحسن اللفظ، ويمكن أن يقال النخل لفظه لفظ الواحد . . . فيجوز أن يقال فيه نخل منقعر ومنقعرة ومنقعرات ، ونخل خاو وخاوية وخاويات . . فإذا قال قائل منقعر أو خاوٍ أو باسق جرد النظر إلى اللفظ ولم يراع جانب المعنى ، وإذا قال منقعرات أوخاويات أو باسقات جرد النظر إلى المعنى ولم يراع جانب اللفظ ، وإذا قال منقعرة أوخاوية أو باسقة جمع بين الاعتبارين من حيث وحدة اللفظ، وألحق به تاء التأنيث التي في الجماعة . . . فحيث قال (منقعر) كان المختار ذلك ، لأن المنقعر في حقيقة الأمر كالمفعول ، لأنه الذى ورد عليه القعر فهو مقعور . . . والخاوي والباسق فاعل و معناه إخلاء ما هو مفعول من علامة التأنيث أولا كما تقول امرأة كفيل ، وامرأة كفيلة . . . وهذا غاية الإعجاز حيث أتى بلفظ مناسب للألفاظ السابقة واللاحقة من حيث اللفظ ، فكان الدليل يقتضي ذلك ، بخلاف الشاعر الذى يختار اللفظ على المذهب الضعيف لأجل الوزن والقافية) (٣) .

---

(١) سورة القمر : من الآية ٢٠ .

(٢) سورة الحاقة : من الآية ٧ .

(٣) التفسير : ٢٩/ ٤٨-٤٩ م١٥ .

ومذهب الفخر يمثل المذهب الوسط ، فهناك من عد مراعاة أواخر الآى حسناً في ذاته كالفراء ، وهناك من نأى بالقرآن عن أن يراعى فيه اللفظ ، والفخر هنا يرى أن مراعاة الفواصل يحسن بوجود المعنى .

ولذلك ينكر على من يرجع تقديم لفظ على لفظ للمناسبة اللفظية فيقول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ ﴾ (١) : (قدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحرور ، وأخره في مثلين وهو البصر والنور ، وفي مثل هذا يقول المفسرون : إنه لتوخي أواخر الآى ، وهو ضعيف ، لأن توخي الأواخر راجع إلى السجع ، ومعجزة القرآن في المعنى لا في مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملاً له على تغيير المعني ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى) (٢).

فهو يسمى مجيء اللفظ مراعياً للفاصلة ورأس الآية سجعاً إن جاء دون معنى ، لأنه عيب يتبع فيه المعنى اللفظ ، والقرآن خلا من ذلك ، وهذا هو مذهب الأشعرية الذى قال عنه الرماني : (ذهب الأشعرية إلى امتناع أن يقال في القرآن سجع ، وفرقوا بأن السجع هو الذى يقصد في نفسه ، ثم يحال المعنى عليه ، والفواصل التي تتبع المعنى ، ولا تكون مقصودة في نفسها) (٣) والفخر كان أشعرياً لذلك فهو يدافع عن هذا الرأى .

وقد رد كثير من العلماء على ذلك وأجازوا إطلاق السجع والازدواج على القرآن كأبي هلال العسكرى ، وابن سنان الخفاجي ، وابن الأثير (٤)

---

(١) سورة فاطر : ١٩-٢٠-٢١ .

(٢) التفسير : ١٧/٢٦ م١٣ .

(٣) نقلاً عن الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ١٢٥/٢ .

(٤) ينظر الصناعتين : ٢٨٥ ، سر الفصاحة : ١٧٢ ، المثل السائر : ٢٧٣/١ .

وأرى أنه ما دامت كلمة (الفواصل) تؤدي المعنى ،فلا حاجة إلى إطلاق كلمة السجع ،حتى ترتفع بالقرآن عن مشابهة كلام البشر .

ونقل السيوطي عن الشيخ شمس الدين بن الصائغ من كتابه "أحكام الراى في أحكام الآى " وجوهاً كثيرة خرجت فيها الآيات عن أصلها لوجود مناسبة،وقال فيها : (لا يمتنع من توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة، فإن القرآن العظيم كما جاء في الأثر لا تنقضي عجائبه) (١).

ووقف الفخر عند كثير من الفواصل يبين سرها وصلتها بما قبلها ، خاصة تلك التي يتم المعنى قبلها، ولا تمثل جزءاً من معنى الآية ،وقد لاحظت أن له قدرة فائقة على التغلغل في بواطن المعاني ،واستخراج دقائقها مما لا نجده عند غيره من المفسرين السابقين له .

فقد تأتي الفاصلة مؤكدة لمضمون الآية قبلها كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

يقول : (﴿ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكاً لإيتاء الملك ونزعه والإعزاز والإذلال) (٣)

ومثله الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٤).

---

(١) الإتقان في علوم القرآن : ١/٩٩-١٠٠.

(٢) سورة آل عمران : ٢٦.

(٣) التفسير : ٩/٨ م٤.

(٤) سورة البقرة : ٢٦٥.

يقول : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ والمراد من البصير العليم أى هو تعالى عالم بكمية النفقات وكيفيتها ، والأمور الباعثة عليها ، وأنه تعالى مجازيها إن خيراً فخير وإن شراً فشر) .(١)

وهذا النوع يسهل فيه إقامة العلاقات بين الفاصلة و مضمون الآية قبلها ؛ لأنها تظهر واضحة فلا تحتاج إلى إنعام نظر ، وتغلغل في المعاني .

وربما لا تمتد الفاصلة لتؤكد معنى الآية كلها ، بل جزءاً منها ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.(٢)
يقول : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهو تأكيد لما مضى ذكره من قوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ والمعنى : كيف لا يفي بوعد المغفرة وأنه غفور رحيم ﴾ .(٣)

وتأتي الفاصلة : ﴿ وَهُم لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ لتؤكد كلمة : (بَغْتَةً) في الآية ، ويكشف الفخر عن مدى ملاءمة هذه الفاصلة للكلمة ، يقول في قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾.(٤)

: (قوله تعالى : ﴿ وَهُم لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة بحيث لم يدر ، فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة.

والثاني : هو كلام يفيد فائدة مستقلة . .) .(٥)

---

(١) التفسير : ٧ / ٦٢ م٤ .
(٢) سورة الأنفال : ٧٠ .
(٣) التفسير : ١٥ / ٢١٣ م٨ .
(٤) سورة العنكبوت : ٥٣ .
(٥) التفسير : ٢٥ / ٨٢ م١٣ .

والوجه الأول أشد صلة بالمعنى ؛لأن معنى البغتة هو عدم الشعور بحصول الشيء فكانت الفاصلة تأكيداً .

وهذا النوع من الفواصل يدخل تحت (التذييل) وهو نوع من أنواع الإطناب عرفه البلاغيون بأنه (تعقيب الجملة بجملة تشمل على معناها للتوكيد) (١) ويكثر هذا النوع في القرآن الكريم ،وقد تنبه الفخر إلى كثير منه .

وقد يمتد اتصال الفاصلة إلى الآية السابقة لها ،ويكشف الفخر عن وجه الملاءمة بينهما ،وإن كان يبدو أن الفاصلة تناسب الآية التي جاءت في سياقها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِنكُم مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٢) : (واعلم أنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ والمراد ما ذكره في الآية الأولى من قوله : ﴿ إِن يَكُن مِنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ فبين في آخر هذه الآية أن الله مع الصابرين ، والمقصود أن العشرين لو صبروا ووقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم) (٣) .

---

(١) الإيضاح ،للخطيب القزويني : ٣٠٧ .

(٢) سورة الأنفال : ٦٥ - ٦٦ .

(٣) التفسير : ٢٠٣/١٥ م٨ .

وأرى أن لا وجه لاختصاص الفاصلة بالآية الأولى فقط، بل إنها قد تشمل الآيتين ، لأن ذكر صبر المؤمنين وارد في الآيتين .

وربما لا ترتبط الفاصلة بمعنى الآية الواردة فيها ، بل تمتد لترتبط بأوائل السورة ، وهنا تظهر براعة الفخر في البحث عن المناسبات الخفية بين الفواصل والمعاني التي تتناولها السورة ، كما في قوله تعالى :
* مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * (١) ، فالفاصلة : * وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * مرتبطة بأول سورة العنكبوت : * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * (٢) يقول : (قال : * وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما ؛ وذلك لأنه سبق القول في قوله : * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا * وسبق الفعل بقوله : * وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وبقوله : * فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا * وبقوله : * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ * ولا شك أن القول يدرك بالسمع ، والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك ... وهو السميع يسمع ما قالوه ، وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب) (٣) .

ويذكر الفرق بين فاصلة : * يَتَفَكَّرُونَ * و * يَعْقِلُونَ * في الآيتين المتتاليتين في سورة الرعد في قوله تعالى : * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * (٤) ، يقول في

---

(١) سورة العنكبوت : ٥ .

(٢) سورة العنكبوت : ٢-٣ .

(٣) التفسير : ٣٢/٢٥ م١٣ .

(٤) سورة الرعد : ٣-٤ .

سر ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : (واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أو ما يقرب منه بحسب المعنى ، والسبب فيه أن الفلاسفة يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات في الأشكال الكوكبية ، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود ، فلهذا المعنى قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ كأنه تعالى يقول مجال الفكر باق بعد، ولابد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال) (١).

وعلل الفخر مثل هذا التعليل وهو يبين سر مجيء الفاصلة : ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في آية النحل : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) فمن الممكن أن يرتاب مرتاب أن تعاقب الفصول الأربعة هو السبب في إنباتها من تأثير الشمس والقمر والكواكب يقول : (فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاماً وافياً بإفادة هذا المطلوب بل يكون مقام الفكر والتأمل باقياً، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .)(٣)

ولكن ما سر فاصلة : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في آية الرعد ، وهل هناك فرق بينها وبين ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . يذكر الفخر أن لها سراً حين ختمت بها آية الرعد : (واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة ، فإن هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر ، وبينا أن ذلك المؤثر ليس من الكوكب والأفلاك والطبائع ، فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر

---

(١) التفسير : ١٩/ ٦ م١٠.

(٢) آية : ١١.

(٣) التفسير : ١٩/ ٢٤٠ م١٠.

سوى هذه الأشياء وعندها يتم الدليل ، ولا يبقى بعده للفكر مقام البتة فلهذا السبب قال ههنا : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

ويعلل مثل هذا التعليل في آية النحل التي ختمت بـ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾(٢) ، فهو يجعل التفكير حيث يحتاج مضمون الآية إلى كثير من التأمل والنظر ، ويجعل التعقل حين تتم الدلائل ولم يبق إلا مجرد العقل .

لكن عند التأمل وجدت أن ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ جاءت في الآيات التي يكثر فيها تفصيل الدلائل فعند تأمل آية الرعد نجد أنها تتحدث عن الاختلاف في بقاع الأرض رغم تجاورها ، كما تحدثت عن جنات الأرض التي تحتوي على صنوف شتى من الثمرات ذوات تشابه واختلاف ، ثم تمايز هذه الأشجار التي تخرج من مكان واحد وتشرب من ماء واحد . فالآية عامة تتحدث عن وجوه الاختلاف في المخلوقات الواحدة ، وهذا لا يكون إلا من فعل قادر حكيم ولذلك فهي تحتاج إلى نظر وتأمل ثم تعقل .

والآية الثانية من سورة النحل تحدثت عن الاختلاف في المخلوقات المتشابهة ، فالليل لا يجتمع مع القمر ، والشمس لا تلتقي مع القمر والنجوم ، وهذه الآيات تستدعي التبصر ليتم التعقل في نهاية الأمر .

وحين نستقصي آيات القرآن التي ختمت بـ ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ نجد أنها تحتاج إلى نظر وتأمل وتعقل ، كما في آية البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(٣) وغيرها من الآيات .

---

(١) التفسير : ١٩/٨ م١٠ .

(٢) ينظر التفسير : ٣/٢٠ م١٠ .

(٣) آية : ١٦٤ .

أما الآيات التي ختمت بـ ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فإنها أقل تفصيلاً من ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ ومعنى هذا أن التعقل أعلى من التفكر ، ذلك أن العقل كما يقول أستاذي الفاضل الدكتور علي العماري : (مرتبة تالية للفكر ، فالمرحلة الأولى هي التفكير ، وبعد إطالة التفكير وإصابته ينشأ العقل).(١)

وقد ذكر الزركشي أن فاصلة : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ : (لا تقع إلا في سياق إنكار فعل غير مناسب في العقل).(٢)

وذكر الآلوسي أن المراد بـ : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ في آية النحل الإشارة إلى عجائب الدقائق المودعة في العلويات ، والتي لا يعرفها إلا المهرة من علماء الحكمة ويقول : (قطع الآية بقوله سبحانه هنا : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ للإشارة إلى احتياج ذلك إلى التفكر أكثر من غيره).(٣)

وهنا يسمى الفخر إدراك مثل هذه الدقائق بين الفواصل المتشابهة من أسرار علم القرآن فيقول بعد التفريق بين : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ و ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : (فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله تعالى العظيم أن يجعل الوقوف عليها سبباً للفوز بالرحمة والغفران).(٤)

فهو يعد من أوائل الذين اهتموا بمثل هذه الفروق ، واستخراج دقائق المعاني لكل فاصلة ، انظر إلى قوله : (لطائف نفيسة) ثم قوله : (أسرار علم القرآن) تجد أن السبيل إليها لا يتأتى إلا بالغوص وراء معانيها ، كما تجد المعاناة في إخراجها .

---

(١) من أسرار القرآن : ١٤٩ (مخطوط) .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ١/٨٤ .

(٣) روح المعاني : ١٤/١١٠ .

(٤) التفسير : ١٩/٨ م١٠ .

وأريد أن أقف على قول الفخر السابق : (واعلم أن الله تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها : * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * أو ما يقرب منه بحسب المعنى) أقف لأتحقق من قوله هذا فأقول : إن القريب من يتفكرون هو يعقلون يذكرون ، وقد استقصيت كثيراً من الآيات التي تتحدث عن الدلائل الأرضية فوجدتها لا تخرج عن هذه الأفعال الثلاثة وسأعرض بعض الآيات للدلالة على ذلك :

فآيات يتفكرون : آية سورة الرعد السابقة التي تحدثت عن مد الأرض وما فيها من جبال وأنهار وأشجار وليل يعقبه نهار.

وآية سورة النحل التي تحدثت عن أصناف الثمار في الأرض .

ومنها قوله تعالى : * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * .(١)

وتأتي : * تَذَكَّرُونَ * بعد ذكر الدلائل الأرضية في قوله تعالى : * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * (٢)

وقوله تعالى : * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * .(٣)

وقال تعالى : * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * .(٤)

وتأتي كثيراً فاصلة : * يَعْقِلُونَ * بعد ذكر الدلائل الأرضية

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .

(٢) سورة النحل : ١٣ .

(٣) سورة الأعراف : ٥٧ .

(٤) سورة الذاريات : ٤٩ .

في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ . . . لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤).

ويدخل تحتها آية سورة الرعد وآية سورة النحل السابقتي الذكر.

فهذه هي الفواصل التي ختمت بها أكثر الآيات الكونية والأرضية الدالة على قدرته تعالى ، وبهذا أصاب الفخر في قوله : إن الدلائل الأرضية في أكثر الأمر ختمت بمثل هذه الفواصل . وقد رجعت إلى تفسيره لهذه الآيات لأرى هل كان يذكر ما تختص به كل فاصلة من معنى ؟ لكنني لم أجد له أي إشارة في التفريق بينها .

وأقول إن كلامه السابق يفتح المجال لنا لدراسة موضوعات القرآن ورصد الفواصل التي تختتم بها ، ومعرفة مدى ملاءمتها لهذه الموضوعات.

ويرى الفخر أن فاصلة : ﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾ فيها من الاجتهاد والفكر والتأمل ما ليس في : ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ١٦٤.

(٢) سورة النحل : ٦٧ .

(٣) سورة المؤمنون : ٨٠.

(٤) سورة الجاثية : ٥ .

يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١).

ختمت الآية الأولى بـ : ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ : (لأن التكاليف الخمسة المذكورة في الأولى أمور ظاهرة جلية ، فوجب تعقلها وتفهمها ، وأما التكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية فأمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر حتى يقف على موضع الاعتدال فلهذا السبب قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأرى - والله أعلم - أن التكاليف الأولى أهم في الرعاية - فالشرك وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس المحرمة من الأمور التي تحتاج إلى زيادة تعقل ، ومابعدها أقل منها في الخفاء فأمرهم الله بتذكرها كلما نسيت.

كذلك لاحظت أن أكثر التكاليف في الآية الأولى جاءت بصيغة النهي الظاهر والتكاليف الأخرى جاءت بصيغة الأمر ، والمنع فيها ليس ظاهراً ، وهذا يقتضي أن يكون التعقل أعلى درجة من التذكر . والله أعلم.

ويلاحظ الفخر أن الفواصل المتتالية تراعي تدرج المعاني التي تحملها ، فالذكرى تحصل أولاً ثم تؤدي إلى التقوى ، كما في قوله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : ١٥١ - ١٥٢.

(٢) التفسير : ٢٤٨/١٣ م٧.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .(١)

يقول في سر تقدم الفاصلة : (... والسبب فيه أن التذكر متقدم على الاتقاء ، لأنه إذا تذكره وعرفه ووقف على فحواه وأحاط بمعناه حصل الاتقاء والاحتراز) .(٢)

كذلك لما كان لفظ الكفر أعم من لفظ الشرك فقد تقدمت فاصلة ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ على ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ مع مناسبة كل فاصلة لسياقها الواردة فيه ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .(٣)

يقول : (قال في الآية المتقدمة : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ وقال في المتأخر : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ فما الحكمة فيه ؟ فنقول : إنهم أنكروا الرسول ، وما أنزل إليه وهو الكتاب وذلك من نعم الله ، والكافرون كلهم في كفران النعم ، فلهذا قال : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ لأن لفظ الكافر أعم من لفظ الشرك ، والمراد من الكافرين ههنا اليهود والنصارى والمشركون ، وههنا ذكر النور وإطفاءه ، واللائق به الكفر ، لأنه الستر والتغطية ، لأن من يحاول الإطفاء إنما يريد الزوال ، وفي الآية الثانية ذكر الرسول والإرسال ودين الحق ، وذلك منزلة عظيمة للرسول عليه السلام ، وهو اعتراض على الله تعالى ... والاعتراض قريب من الشرك ، ولأن الحاسدين للرسول عليه السلام كان أكثرهم

---

(١) سورة الزمر : ٢٧-٢٨ .

(٢) التفسير : ٢٧٦/٢٦ م١٣ .

(٣) سورة الصف : ٨ - ٩ .

من قريش وهم المشركون ، ولما كان النور أعم من الدين والرسول ، لا جرم قابله بالكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام والإرسال ، والرسول والدين أخص من النور قابله بالمشركين الذين هم أخص من الكافرين * (١) .

ومن الممكن أن نقول : إنه لما كان إطفاء نور الله واقعاً منذ أزل الزمان قوبل بالكفر الواقع أيضاً منذ أزل الزمان ، ولما ذكر الرسول والهدى ناسب ذكر المشركين الذين صدوا عن الدين .

ومهما يكن فتعليل الفخر أشمل وأحسن ، وقد اطلعت على كثير من كتب التفسير في هذه الآية فلم أجد أحداً يذكر المناسبة على هذه الطريقة في الحسن .

ويذكر الفخر الفرق بين * يَفْقَهُونَ * و * يَعْلَمُونَ * حين تأتيان في آيتين متتاليتين ، فهما وإن كانا من باب واحد إلا أن لكل لفظ معنى خاصا به .

يقول في قوله تعالى : * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * (٢) : (فإن قيل : قال في الآية الأولى : * لَا يَفْقَهُونَ * وفي الأخرى : * لَا يَعْلَمُونَ * فما الحكمة فيه ؟ فنقول : ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم ، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم ، ولا يفقهون من فَقِهَ يَفْقَهُ كَعَلِمَ يَعْلَمُ ، ومن فَقُهَ يَفْقُهُ كعَظُمَ يَعْظُمُ ، والأول لحصول الفقه بالتكلف ، والثاني لا بالتكلف ، فالأول علاجي والثاني مزاجي * (٣) .

---

(١) التفسير : ٣١٦/٢٩ - ٣١٧ م١٠ .

(٢) سورة المنافقون : ٧-٨ .

(٣) التفسير : ١٨/٣٠ م١٥ .

ومعنى حصول الفقه بالتكلف ؛لأن الفقه هو فهم الأشياء الدقيقة وإمعان الفكر فيها ،ولا يكون ذلك إلا بتكلف النفس .

أما العلم فهو المعرفة المباشرة للشيء فهو لا يتأتى بالتكلف ، والفخر وإن فرق بينهما إلا أنه لم يبين صلة كل فاصلة بما قبلها .

وأقول : إنه لما اتفق المنافقون على الإضرار بالمؤمنين و منع النفقات عنهم ناسب وصفهم بعدم الفقه؛لأنهم ضروا أنفسهم ؛ولأن توزيع الرزق ليس في أيديهم إنما في يد الله .

والثاني:إبعادهم بإخراج الأعز الأذل وهم لا يعلمون أن القدرة التي يفضل بها الإنسان عن إنسان هي من الله لا منهم.(١)

وقد يقارن الفخر بين ثلاث فواصل جاءت متتالية في معرض الحديث عن آيات الله ،و يبين كيف أن كل فاصلة لاءمت الموضوع الذى ختمت به في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ .

وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.(٢)

يقول : (قال : ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وقال من قبل : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ لِلْعَالِمِينَ ﴾ فنقول : المنام بالليل والابتغاء من فضله

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ، الخطيب الإسكافي : ٤٨٥-٤٨٦ .

(٢) سورة الروم : ٢١-٢٢-٢٣ .

يظن الجاهل أو الغافل أنهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله،فلم يقل آيات للعالمين ؛ولأن الأمرين الأولين وهو اختلاف الألسنة والألوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الأمور المفارقة فالنظر إليهما لا يدوم لزوالهما في بعض الأوقات ،ولا كذلك اختلاف الألسنة والألوان فإنهما يدومان بدوام الإنسان فجعلهما آيات عامة.

وأما قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فاعلم أن من الأشياء ما يعلم من غير تفكر ،ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ،ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج إلى موقف يوقف عليه ،ومرشد يرشد إليه ... لكن خلق الأزواج لا يقع لأحد أنه بالطبع إلا إذا كان جامد الفكر خامد الذكر،فإذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية. وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد ،وقد يحتاج إلى مرشد بغير فكره ، فقال : ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾)(١)

فخلق الأزواج وما أوجد بينهما من المودة الداعية لبقاء النوع مما يدعو الإنسان للتفكر الذى يؤدى للعلم بقدرته كما أن اختلاف الألسنة والألوان من الأمور التي تظهر ويلمسها كل إنسان ففيها آية للعالمين ، ثم إن النوم من نعم الله وهو القادر على دفعها واجتلابها،وكل من له سمع علم ذلك ولم يحتج إلى مرشد يرشده.

ويفرق الفخر بين العقل واللب في فاصلتي آيتين متشابهتين :

في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.(٢)

---

(١) التفسير : ١١٣/٢٥-١١٤ م١٣.

(٢) سورة البقرة : ١٦٤.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾(١) يقول في تفسير هذه الآية الثانية : (إنه تعالى استقصى في هذه الآية الدلائل السماوية ، وحذف الدلائل الخمسة الباقية التي هي الدلائل الأرضية ، وذلك لأن الدلائل السماوية أقهر وأبهر والعجائب فيها أكثر ، وانتقال القلب فيها إلى عظمة الله وكبريائه أشد ، ثم ختم تلك الآية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ لأن العقل له ظاهر وله لب ، ففي أول الأمر يكون عقلاً ، وفي كمال الحال يكون لباً)(٢) .

فالدلائل في الآيات الأولى دلائل عظيمة متنوعة لا يدركها إلا العقلاء ، ودلائل الآية الثانية مقتصرة على خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وفيهما دلالة على غاية الإتقان ، ونهاية الإحكام لا يدركها إلا من كان له لب أي عقل خالص ، واللب كمال العقل كما ذكر الفخر وهذا يدل على أن العقل مرحلة تأتي بعد التفكير ، وبعدها يأتي اللب وهذا يؤيد ما قلته من أن ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تأتي في سياق المشاهد الكونية العجيبة المفصلة .

ويبحث الفخر في فواصل القصص القرآني المتكررة في سور عدة في القرآن ، من ذلك أنه يقارن بين آيتين من قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيفه من الملائكة في سورة هود وسورة الذاريات ، قال تعالى في سورة هود : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾(٣) وقال في سورة الذاريات : ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾(٤) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ .

(٢) التفسير : ١٣٩/٩ م٥ .

(٣) آية : ٧٣ .

(٤) آية : ٣٠ .

يقول : (فإن قيل لم قال ههنا : ﴿ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ وقال في هود : ﴿ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ ؟ نقول : لما بينا أن الحكاية هناك أبسط فذكروا ما يدفع الاستبعاد بقولهم : ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ثم لما صدقت أرشدهم إلى القيام بشكر نعم الله ، وذكروهم بنعمته بقولهم: ﴿ مَجِيدٌ ﴾ فإن الحميد هو الذى يتحقق منه الأفعال الحسنة ، وقولهم : ﴿ مَجِيدٌ ﴾ إشارة إلى أن الفائق العالي الهمة لا يحمده لفعله الجميل ، وإنما يحمده ويسبح له لنفسه ، وههنا لما لم يقولوا : ﴿ أَتَعْجَبِينَ ﴾ إشارة إلى ما يدفع تعجبها من التنبيه على حكمه وعلمه).(١)

فالمعنى في سياق الآية هو الذى حدد الفاصلة واقتضاها فآية هود جاءت مبسوطة، قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . . . ﴾.(٢)

فامرأة إبراهيم قد استبعدت ولادتها استبعاداً شديداً قولاً وفعلاً فذكر الملائكة ما يدفع استبعادها ، وختمت ذلك بوصفه تعالى : ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أى تحمد أفعاله ﴿ مَجِيدٌ ﴾ كثير الخير والاحسان .

أما آية الذاريات فقد قامت على الاختصار قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾(٣) فالآية صورت دهشتها في " صك الوجه " دون التفصيل في الحديث، فلم تستدع جواباً من الملائكة فلذلك ناسب ذكر العلم والحكمة .

---

(١) التفسير : ٢١٥/٢٨ م١٤ .

(٢) آية : ٧١ - ٧٢ ومن الآية ٧٣ .

(٣) آية : ٢٩ - ٣٠ .

وتمتد نظرة الفخر إلى ما قبل الفواصل ،التي قد تتحد لكن السياق قبلها يختلف كما في الآيتين اللتين تتحدثان عن الإرث في الإسلام ،في قوله تعالى : ﴿ ... آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ .

﴿ ... فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾.(١)

يقول : (لم جعل خاتمة الآية الأولى : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ وخاتمة هذه الآية : ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ الجواب : أن لفظ الفرض أقوى وآكد من لفظ الوصية ، فختم شرح ميراث الأولاد بذكر الفريضة ،وختم شرح ميراث الكلالة بالوصية ليدل بذلك على أن الكل وإن كان واجب الرعاية ،إلا أن القسم الأول وهو رعاية حال الأولاد أولى).(٢)

فالفريضة أقوى وآكد من الوصية ،وهي مناسبة لميراث ذوى القرابة الأشد صلة بالإنسان .

ويبين الفخر سر حذف جزئية من الفاصلة الأولى والسادسة من الآيات الستة من سورة الروم والتي تتحدث عن آيات الله في الكون ،فكل آية تنتهي بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ .. ﴾ إلا الآيتين الأولى والسادسة في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾.(٤)

---

(١) سورة النساء : من الآية ١١-١٢ .

(٢) التفسير : ٩/٢٣٤ م٥ .

(٣) آية : ٢٠ .

(٤) آية : ٢٥ .

يقول : (ذكر ستة دلائل وذكر في أربعة منها : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ولم يذكر في الأول وهو قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ ﴾ . ولا في الآخر وهو قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ . أما في الأول فلأن قوله بعده : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم ﴾ (١) أيضاً دليل الأنفس، فخلق الأنفس ، وخلق الأزواج من باب واحد على ما بينا ، غير أنه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير ، فإذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ كان عائداً إليهما ، وأما في قيام السماء والأرض فنقول في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يعقلون (٢) لظهورها ، فلما كان في أول الأمر ظاهراً ففي آخر الأمر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز أحداً عن أحد في ذلك) (٣) .

---

(١) الآية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ : الروم : ٢١ .

(٢) أى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ : الروم : ٢٢ .
وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ : الروم : ٢٤ .

(٣) التفسير : ٢٥/١١٦-١١٧ م١٣ .

مشكلات الفواصل :

كما اهتم الفخر ببيان صلة الفاصلة بما قبلها مما تتضح فيها المناسبة، وقف كذلك عند بعض الفواصل التي لا تبدو صلتها بما قبلها ظاهرة فكشف عن وجه المناسبة بينها.

وقد سميتُ هذا الفصل بمشكلات الفواصل أسوة بالسيوطي (١) الذي أطلق هذا الاسم على مثل هذه الفواصل، وقد اكتفى الفخر بأن يقول فيها: (فيه إشكال)، ومن الآيات التي ذكرها ولا تبدو في الظاهر مناسبة مع معناها وفاصلتها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

يقول: (أما قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ففيه إشكال وهو أنه لما قال: ﴿ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ فكيف يليق أن يقول بعده: ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فإن الغفران إنما يكون عند حصول الإثم، والجواب من وجوه:

أحدها: أن المقتضى للحرمة قائم في الميتة والدم إلا أنه زالت الحرمة بقيام المعارض، فلما كان تناوله تناولاً لما حصل فيه المقتضى للحرمة عبر عنه بالمغفرة، ثم ذكر بعده أنه رحيم يعني لأجل الرحمة عليكم أبحت لكم ذلك.

ثانيها: لعل المضطر يزيد على تناول الحاجة، فهو سبحانه غفور بأن يغفر ذنبه في تناول الزيادة، رحيم حيث أباح في تناول قدر الحاجة.

---

(١) ينظر الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٣١.

(٢) سورة البقرة: ١٧٣.

ثالثها : أنه تعالى لما بين هذه الأحكام عقبها بكونه غفوراً رحيماً ،لأنه غفور للعصاة إذا تابوا رحيم بالمطيعين المستمرين على نهج حكمه سبحانه وتعالى).(١)

وهكذا تتعدد الوجوه وتتباين ليظل معنى الفاصلة متصلاً بما قبله.

وفي موضع آخر يرد على من يرى أن العزة والحكمة لا تتناسبان مع التهديد في ارتكاب الذنب في قوله تعالى : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.(٢)

يقول : (لقائل أن يقول إن في قوله تعالى : ﴿ فإن زَلَلْتُم مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ إشارة إلى ذنبهم وجرمهم ، فكيف يدل قوله : ﴿أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ على الزجر والتهديد ؟ الجواب : إن العزيز لا يمنع من مراده ،وذلك إنما يحصل بكمال القدرة ،وقد ثبت أنه سبحانه وتعالى قادر على جميع الممكنات فكان عزيزاً على الإطلاق ، فصار تقدير الآية : فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله مقتدر عليكم لا يمنعه مانع عنكم ، فلا يفوته ما يريده منكم ،وهذا نهاية في الوعيد ،لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يجمعه من الوعيد بذكر العقاب ،وربما قال الوالد لولده : إن عصيتني فأنت عارف بي ،وأنت تعلم قدرتي عليك وشدة سطوتي ،فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب وغيره).(٣)

ويكشف عن وجه الملاءمة بين الفاصلة : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ومضمون الآية في قوله تعالى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٤) لأن قوله : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يقتضي أن تكون

---

(١) التفسير : ٥/ ١٤ م٣.

(٢) سورة البقرة : ٢٠٩.

(٣) التفسير : ٥/ ٢٨٨ م٣.

(٤) سورة المائدة : ١١٨.

الفاصلة : ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ،ويستعين في ذلك بقول والده يقول :

(سمعت شيخي ووالدي -رحمه الله- يقول : (﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ههنا أولى من ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ،لأن كونه غفوراً رحيماً يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج ،وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة ، فإن كونه عزيزاً يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ،وأنه لا اعتراض عليه لأحد ،فإن كان عزيزاً متعالياً عن جميع جهات الاستحقاق ثم حكم بالمغفرة كان الكرم ههنا أتم مما إذا كان كونه غفوراً رحيماً يوجب المغفرة والرحمة) (١).

وقد يقع في الظن أن التذييل في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) ينبغي أن يكون : " إن الله على كل شيء قدير " لأن صفة القدرة تناسب بسطة الرزق وإمساكه ،ولكن صفة العلم هنا هي الملائمة كل الملاءمة ؛لأنه سبحانه عليم بمقادير الحاجات والأرزاق ،ويبين الفخر وجه هذه المناسبة من عدة وجوه فيقول : (وفي إثبات العلم هنا لطائف :

إحداها : أن الرازق الذي هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجاً وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ...

الثانية : وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ...) (٣).

ويقف الفخر أمام الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (٤) فيبين وجه مناسبة الحلم والمغفرة لتسابيح الأشياء ؛ لأنها لا تبدو ظاهرة واضحة.

---

(١) التفسير : ١٢/١٤٥ م٦.

(٢) سورة العنكبوت : ٦٢.

(٣) التفسير : ٢٥/٩١ م١٣.

(٤) سورة الإسراء : ٤٤.

يقول : (إن القوم كانوا غافلين عن أكثر دلائل التوحيد والعدل ، والنبوة والمعاد ، فكان المراد من قوله : ﴿ وَلَكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وما يدل على أن الأمر كما ذكرناه قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ فذكر الحليم والغفور ، وههنا يدل على أن كونهم بحيث لا يفقهون ذلك التسبيح جرم عظيم صدر عنهم ، وهذا إنما يكون حراماً إذا كان المراد من ذلك التسبيح كونها دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ، ثم إنهم لغفلتهم وجهلهم ماعرفوا وجه دلالة تلك الدلائل . أما لو حملنا هذا التسبيح على أن هذه الجمادات تسبح الله بأقوالها وألفاظها لم يكن عدم الفقه لتلك التسبيحات جرماً ولا ذنباً ، وإذا لم يكن ذلك جرماً ولا ذنباً لم يكن قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ لائقاً بهذا الموضع ، فهذا وجه قوي في نصرة القول الذي اخترناه) (١) .

وهكذا استطاع الفخر أن يكشف ما خفي من مناسبة بين الفاصلة وموضوع الآية بنظرته الثاقبة ، وبما عرف به من قدرة على الجمع بين المعاني المختلفة ، جعلته يخطو خطوات واسعة في هذا الباب مما لا نجده عند من سبقه .

---

(١) التفسير : ٢٠ / ٢٢١ م ١٠ .

التحليلات والموازنات

إن أكثر كتب التحليلات الأدبية والموازنات بين النصوص تدّعي أنها استقت طريقتها من المناهج الأوربية[(١)] ، ولم ينل منهج القدماء أي عناية واهتمام ، ولم يعرف حق المعرفة ، مع أنه سابق لكل هذه النظريات والمناهج المستحدثة .

وللفخر الرازي في تفسيره نظرات تحليلية شاملة جمعت كل ما يتعلق بأحوال وكيفيات اللفظ العربي ، يحكمها حس بلاغي متفرد .

وأجده هنا يستضيء في تحليلاته بمنهج عبد القاهر النظري ويطبق كثيراً مما قرره من أصول بلاغية ، ونظرات أدبية .

وكان الفخر يدرك دقة مثل هذه النظرات ، ويرى أنها تكمن في كل حرف بل في كل حركة ، ولا تظهر واضحة جلية بل يبدو بعضها ويختفي بعضها الآخر، وقدرات البشر تقصر عن الوصول إليها .

نتأمل قوله :[(٢)] (... ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة ، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها ، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً)[(٣)] .

---

(١) هناك على سبيل المثال كتاب " النصوص الأدبية " للدكتور علي عبد الحليم محمود ، عرض لمنهج المستشرق الفرنسي (لانسون) في تحليل النصوص، وسماه المنهج العلمي .
وهناك كتاب (النقد التطبيقي والموازنات) للأستاذ محمد الصادق عفيفي ، اتبع مناهج المحدثين في تناوله لنقد النصوص . وغيرها كثير .

(٢) ذكره وهو يفرق بين صياغة كلام رسل الله مع إبراهيم وكلامهم مع لوط في سورة العنكبوت : آية ٣١-٣٢-٣٣-٣٤ .

(٣) التفسير : ٢٥/٦٣ م١٣ .

وكثيراً ما كان يقف موقف إجلال أمام هذه الأسرار فيقصر نفسه أمام الوصول إلى الدقائق الخبيئة في بواطنها، فمثلاً يقول وهو يفرق بين قوله : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (١) و ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (٢) : (فما الحكمة فيه ؟ قلنا : الحكمة لا بد منها ولا نعلمها كما هي لكن نقول ما يخطر بالبال ...) (٣).

وقد وقف أمام بعض الآيات وحللها تحليلاً تناول دقائق معانيها كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٤).

يقول : (فيه لطائف : "إحداها": توحيد العذاب وجمع الجنات إشارة إلى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب .

"الثانية" : تنكير العذاب وتعريف الجنة بالإضافة إلى المعرف إشارة إلى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها إيصالاً للراحة إلى القلب، ولا يبين النقمة وإنما ينبه عليها تنبيهاً .

"الثالثة" : قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون، وإنما أشار إلى الخلود بقوله : ﴿مُّهِينٌ﴾ وصرح في الثواب بالخلود بقوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ .

---

(١) سورة التغابن : من الآية ١.

(٢) سورة الحديد : من الآية ١.

(٣) التفسير : ٢١/٣٠ ص١٥٠.

(٤) سورة لقمان : ٦-٧-٨-٩.

" الرابعة " : أكد ذلك بقوله : * وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا * ولم يذكره هناك .

" الخامسة ": قال هناك لغيره : * فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ * وقال ههنا بنفسه : * وَعْدَ اللَّهِ * ثم لم يقل أبشركم به ؛ لأن البشارة لا تكون إلا بأعظم ما يكون ، لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله ، وإنما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى : * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * (١) ولولا قوله : * مِّنْهُ * لما عظمت البشارة ، ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير إضافة) (٢) .

والحقيقة أن هذه الآيات تفيض بكثير من المعاني التي تكمن وراء صياغتها ، ولم يلتفت إليها الفخر ، مع أنه كان أقدر على بيان ما فيها من أسرار منها على سبيل المثال السر في استعارة يشترى بدلاً من (يتخذ) وما تعبر عنه من حرصهم على طلب لهو الحديث ، وإقبالهم عليه إقبال المشترى للشيء الراغب فيه ثم ما وراء اسم الإشارة : * أُولَٰئِكَ * للبعيد من التعبير عن حقارتهم .

ثم السبب في مجيء الأفعال متتالية على صيغة المضارع ، وفي تشبيه صممهم بالوقر ، ثم ما في اختلاف الأسلوب من المتكلم إلى الغيبة في قوله : * لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * ، * فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * من إعراض عنهم وانصراف ، وما وراء التبشير بدل الإنذار من العذاب ، وما وراء وصف كل عذاب بصفة تختلف عن الأخرى من حيث الفرق بين : * مُّهِينٌ * و * أَلِيمٍ * وأيهما أقوى في أداء المعنى ... وغيرها من اللطائف التي تدرك العقول البشرية بعضها ولا تصل إلى بعضها الآخر كما يقول الفخر ، ذلك أنه ذكر بعض اللطائف دون أن يذكر سر مجيئها على تلك الهيئة دون غيرها ، كما في الوجه الثالث والوجه الرابع .

---

(١) سورة التوبة : ٢١ .

(٢) التفسير : ١٤٣/٢٥ م١٣ .

ومن تأملاته في الآيات بحثه عن اللطائف القرآنية في قوله تعالى :
﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾.(١)

يقول : (في الآية لطائف :

إحداها : أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله : ﴿ عِبَادِي ﴾ وهذا تشريف عظيم ألا ترى أنه لما أراد أن يشرف محمداً صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج لم يزد على قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ .

ثانيها : أنه لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة : قوله : ﴿ أَنِّي ﴾ ،وثانيها : قوله : ﴿ أَنَا ﴾ ،وثالثها : إدخال حرف الألف واللام على قوله : ﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ولما ذكر العذاب لم يقل أني أنا المعذب،وما وصف به نفسه بذلك بل قال : ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .

وثالثها : أنه أمر رسوله أن يبلغ إليهم هذا المعنى فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها : أنه لما قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي ﴾ كان معناه نبئ كل من كان معترفاً بعبوديتي ،وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع ، فكذلك يدخل فيه المؤمن العاصي ، وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى).(٢)

وأجده يذكر في بعض المواضع دلالات الألفاظ في الآية الواحدة على معناها الذي تحدثت عنه ،فيلاحظ التناسب اللفظي لمعنى الآية ،فالآية التي تدل على الرحمة تشترك ألفاظها وصياغتها في التعبير عن هذا المعنى .

---

(١) سورة الحجر : ٤٩-٥٠.

(٢) التفسير : ١٩/١٩٩ م١٠.

كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾.(١)

يقول : (اعلم أن هذه الآية تدل على الرحمة من وجوه :

الأول أنه سمى المذنب بالعبد والعبودية مفسرة بالحاجة والذلة والمسكنة ، واللائق بالرحيم الكريم إفاضة الخير والرحمة على المسكين المحتاج .

الثاني : أنه تعالى أضافهم إلى نفسه بياء الإضافة فقال : ﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ وشرف الإضافة إليه يفيد الأمن من العذاب .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ﴾ ومعناه أن ضرر تلك الذنوب ما عاد إليه بل هو عائد إليهم . . .

الرابع : أنه قال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ نهاهم عن القنوط فيكون هذا أمراً بالرجاء ، والكريم إذا أمر بالرجاء فلا يليق به إلا الكرم .

الخامس : أنه تعالى قال أولاً : ﴿ يَا عِبَادِيَ ﴾ وكان الأليق أن يقول لا تقنطوا من رحمتي لكنه ترك هذا اللفظ وقال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ لأن قولنا : الله أعظم الأسماء وأجلها ، فالرحمة المضافة إليه يجب أن تكون أعظم أنواع الرحمة .

السادس : أنه لما قال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ كان الواجب أن يقول إنه يغفر الذنوب جميعاً ، ولكنه لم يقل ذلك ، بل أعاد الله وقرن به لفظة : ﴿ إِنَّ ﴾ المفيدة لأعظم وجوه التأكيد ، وكل ذلك يدل على المبالغة في الوعد من الرحمن .(٢)

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

(٢) في النسخة (بالرحمن) وهو خطأ والصحيح (من الرحمن) ، والظاهر أنه خطأ مطبعي وقد صححته .

السابع : أنه لو قال : (يغفر الذنوب) لكان المقصود حاصلاً لكنه أردفه باللفظ الدال على التأكيد فقال جميعاً، وهذا أيضاً من المؤكدات.

الثامن : أنه وصف نفسه بكونه غفوراً ، ولفظ الغفور يفيد المبالغة ...) (١)

وهكذا أخذ ينظر في المعاني ويحللها تحليلاً يكشف عن أدق ماتحمله صياغتها، ويكشف عما يدل عليه كل لفظ من معنى .

وقد تناول آية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢). وحلل ألفاظها من جهة دلالتها على معناها العام.

يقول : (واعلم أن هذه الآية مشتملة على ألفاظ كثيرة كل واحد منها دال على عظمة الله تعالى وعلو كبريائه :

فأولها : قوله : ﴿ وَقِيلَ ﴾ وذلك لأن هذا يدل على أنه سبحانه في الجلال والعلو والعظمة بحيث أنه متى قيل : ﴿ قِيلَ ﴾ لم ينصرف الفعل إلا إليه ، ولم يتوجه الفكر إلا إلى أن ذلك القائل هو هو ، وهذا تنبيه من هذا الوجه على أنه تقرر في العقول أنه لا حاكم في العالمين ... إلّا هو.

وثانيها : قوله : ﴿ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها .

---

(١) التفسير : ٥/٢٧ م١٤٠

(٢) سورة هود : ٤٤ .

ثالثها : أن السماء والأرض من الجمادات فقوله : * يَا أَرْضُ * و * يَاسَمَاءُ * مستعمر بحسب الظاهر ،على أن أمره وتكليفه نافذ (١) في الجمادات فعند هذا يحكم الوهم بأنه لما كان الأمر كذلك فلأن يكون أمره نافذاً على العقلاء كان أولى، وليس مرادى منه أنه تعالى يأمر الجمادات ،فإن ذلك باطل بل المراد أن توجيه صيغة الأمر بحسب الظاهر على هذه الجمادات القوية الشديدة يقرر في الوهم نوع عظمته وجلاله تقريراً كاملاً) (٢).

وقد تناول عبد القاهر هذه الآية في الدلائل وحللها تحليلاً فريداً وهو يتحدث عن الحسن في ارتباط الكلم بعضها مع بعض،وقد وقف أمام ألفاظها وذكر ما أفادته ،ولا يبدو تأثر الفخر بها واضحاً ،وإن كان كلامه عامة لا يخلو من أنه اطلع على تحليلها في (دلائل الإعجاز) ،خاصة وهو يتحدث عما حقق معنى العظمة في الآية ،كما أنه لم يذكرها في (نهاية الإيجاز) .

ننظر إلى ما قاله عبد القاهر ليتضح لنا الأمر.

يقول : (... ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ،ثم في أن كان النداء (بيا) دون (أى) ،نحو (ياأيتها الأرض) ، ثم إضافة (الماء) إلى (الكاف) ، دون أن يقال : (ابلعي الماء) ، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل و : *وَغِيضَ المَاءُ * فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك و تقريره بقوله تعالى : *وَقُضِيَ الأَمْرُ * ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور ، وهو : * اسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ * ثم إضمار (السفينة) قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ،ثم مقابلة * قِيلَ * في الخاتمة بـ *قِيلَ * في الفاتحة ..) (٣).

---

(١) في النسخة : نافذاً ،وهذا خطأ لأنه جواب إنَّ لا اسمها والصحيح ما أثبته.

(٢) التفسير : ٢٤٣/١٧ م ٩ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٤٥-٤٦ .

والفخر أكثر اختصاراً في تحليلها ،وأشمل في بيانه للسر البلاغي ، فمثلاً يقول في قوله تعالى : * يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي * : (فإن الحس يدل على عظمة هذه الأجسام وشدتها وقوتها) ولم يبين لنا الصيغة التي أفادت هذا المعنى .

كذلك تناول السكاكي هذه الآية ،وحللها تحليلاً دقيقاً مسهباً ، فبدأ أولاً بذكر ما فيها من أسرار تتعلق بعلم البيان ،ثم ثنى بما فيها من أسرار تتصل بعلم المعاني .

ويبدو تأثره فيها بعبد القاهر واضحاً ،وإن كان السكاكي قد فاقه في تتبع كل دقائقها ،ولولا طول دراسته لها لذكرتها ،ولكن حسبي منها ماقلت .

واهتم الفخر بالمقارنة بين الآيات المتشابهة في القرآن ونعني بالمتشابه المتماثل في الصياغة ، أي الآيات التي تتفق في بعض ألفاظها وتختلف في بعضها ،كأن يكون في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف ،أو غير ذلك من أوجه الصياغة.

وقد أفرد علماء كثيرون التصنيف في هذا اللون من المقارنات القرآنية، منهم من هو سابق عن الفخر الرازي كالخطيب الإسكافي في (درة التنزيل وغرة التأويل) ،والكرماني في (البرهان في متشابه القرآن) ،ومنهم من هو لاحق له كأبي جعفر بن الزبير في (ملاك التأويل) .

ويكثر هذا النوع في تفسير الفخر ،والاختلاف في المتشابهات عنده إما أن يكون داخلاً في نطاق المفرد ، كأن يختلف حرف عن حرف ،أو فعل عن فعل أو اسم عن اسم في إفراده أو جمعه أو تقديمه أو تأخيره ،وهذا قد وضعته في فصوله الخاصة به.

---

(١) ينظر مفتاح العلوم : ١٧٦- ١٧٨ .

وإما أن تتعدد وجوه الاختلاف في الآيتين المتشابهتين ،وهذا ما سأتناوله، وفي هذا النوع تدق الأسرار ،وتتجلى بلاغة القرآن ،وأراه هنا يوازن بين الآيتين ويستخرج من مطاويهما دقائق اللغة وخوافيها .

من ذلك أنه يبين التفاوت بين قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى في السورة نفسها : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٢) يقول في بيان وجوه الاختلاف بين الآيتين وسر كل تعبير : (أما النوع الأول من التفاوت وهو أنه تعالى ذكر قوله : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ بالفاء في الآية الأولى ،وبالواو في الآية الثانية فما السبب ؟ أن في الآية الأولى إنما ذكر هذه الآية بعد قوله : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق ،وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الأموال ، فلهذا المعنى نهاه الله عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب فقال : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو) ثم يعلل مجيء " لا " في الآية الأولى دون الثانية فيقول : (أما النوع الثاني وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ فالسبب فيه أن مثل هذا الترتيب يبتدئ بالأدنى ثم يترقى إلى الأشرف ،فيقال لا يعجبني أمر الأمير ولا أمر الوزير، وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم، وفي هذه الآية يدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم .

---

(١) سورة التوبة : ٥٥ .

(٢) سورة التوبة : ٨٥ .

(٣) التفسير : ١٥٨/١٦ م٨ .

أما النوع الثالث : وهو أنه قال هناك : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ وههنا قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُم ﴾ فالفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله تعالى محال ، وأنه أينما ورد حرف التعليل فمعناه : (أَنْ) كقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي وما أمروا إلّا بأن يعبدوا الله .

أما النوع الرابع : وهو أنه ذكر في الآية الأولى : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وههنا ذكر : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ وأسقط لفظ الحياة ، تنبيهاً على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى أنها لا تستحق أن تسمى حياة ، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا ، تنبيهاً على كمال دناءتها . فهذه وجوه في الفرق بين هذه الألفاظ ، والعالم بحقائق القرآن هو الله تعالى) .(١)

والفخر في النوع الثالث لا يصل إلى سر التعليل . بأنْ . في الآية الأولى ، واللام في الآية الثانية بل ساوى بينهما ، وقد تعرض الكرماني لهذه الآية واعتبر (أَنْ) زائدة في الآية ولم يبين سر زيادتها (٢) . لكن الإسكافي ذكر وجهاً لطيفاً لهذا الاختلاف ، فقد ذكر أن مفعول الإرادة محذوف في قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ ، لأنّ معناها إنما يريد أن يزيد في نعمائهم بالأموال والأولاد ليعذبهم بها واللام للصيرورة ، والآية الأخرى : ﴿ أن يُعَذِّبَهُم ﴾ جاءت للإخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا فلم تتضمن مفعولاً ، فعديت الإرادة إلى ما آل إليه حالهم من تعذيبهم (٣) .

---

(١) التفسير : ١٦/١٥٨ م٨ .

(٢) ينظر البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .

(٣) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ٢٠٠ .

ويذكر الخطيب الإسكافي والكرماني تعليلاً للفاء والواو في قوله : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ أقرب للمعنى مما ذكره الفخر ، فهما يقولان إن الفعل الذى قبل الفاء يأتي بمعنى الشرط في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ (١) وما بعدها موضع الجزاء ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ ...)

أما الآية التي دخلت عليها الواو فما قبلها أفعال ماضية وهذه الأفعال لا تكون شرطاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) لذلك عطفت الآية بعدها على ما قبلها بالواو) (٣).

أما الفخر فقد عد الفاء للتعقيب ، وجملة الواو لا صلة لما قبلها بها .

ثم إننا نلاحظ أن بقية تعليلات الفخر للاختلاف بين الآيتين أقرب إلى روح التذوق ، فحين جعل الكرماني (لا) زائدة في (أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) جعلها الفخر للدلالة على أن إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم ، ودلل على ذلك بمثل، كذلك يرجع الكرماني حذف الحياة في قوله تعالى : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ دون حذفها في : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ اكتفاءً بذكرها في الآية الأولى (٤) . لكن الفخر يرى أن الحذف جاء للدلالة على خستها حيث إنها لا تستحق أن تسمى حياة . وقد نقل أبوحيان كثيراً من تحليلات الفخر لهذه الآية .

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٥٤ .

(٢) سورة التوبة : من الآية ٨٤ .

(٣) ينظر درة التنزيل : ١٩٩ ، البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .

(٤) البرهان في متشابه القرآن : ٩٧ .

ويفرق الفخر بين قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ (٢) .

يبين الفروق بين الآيتين عند تفسيره لسورة البقرة ، وعند تفسيره لسورة الأعراف ، لكنه يذكر هنا أسراراً ، وهناك أسراراً قد تتفق ، وكثيراً ما تختلف ولا غرابة في ذلك لأن أمثال هذه النكت البلاغية لا تتزاحم ، وبها تظهر علامات التفوق والقدرة على الغوص في تحليل الأساليب الرفيعة ، كما أنني لاحظت الفخر في مواضع كثيرة من تفسيره يقول هذا ما خطر بالبال في الحال ، فالنكت والأسرار تتجدد بتجدد النظر والتأمل .

وسأقابل بين الأسرار المختلفة في كل فرق في كلتا السورتين ، فأذكر ما قاله في سورة البقرة ثم ما قاله في سورة الأعراف ، لتتضح لنا طريقته في استنباط النكات وقربها أو بعدها عن الآية وسياقها .

يقول : (لم قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ وقال في الأعراف : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ ؟ الجواب : أن الله تعالى طرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام : ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ثم أخذ يعدد نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ﴾ أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى :

---

(١) آية : ٥٨ - ٥٩

(٢) آية : ١٦١ - ١٦٢

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة.(١)

لم قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا ﴾ وفي الأعراف: ﴿ اسْكُنُوا ﴾ ؟ الجواب : الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة.(٢)

لم قال في البقرة : ﴿ فَكُلُوا ﴾ بالفاء وفي الأعراف : ﴿ وَكُلُوا ﴾ بالواو ؟ والفرق : أن الدخول حالة مخصوصة ،كما يوجد بعضها ينعدم ، فإنه إنما يكون داخلاً في أول دخوله ، وأما ما بعد ذلك فيكون سكوناً لا دخولاً).(٣)

لم قال في البقرة : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ وفي الأعراف : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ ؟ الجواب : الخطايا جمع(٤) الكثرة ،والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة ،وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة ،وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ﴾ لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة ، وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة).(٥)

---

(١) لم يراع الفخر -كما قلت سابقاً- ترتيب السور في النزول وهو يبحث عن النكات والأسرار البلاغية في الآيات أو يقيم المناسبة بينها، فسورة البقرة وإن كانت في أول القرآن إلا أنها نزلت في المدينة بعد سورة الأعراف التي نزلت في مكة.

(٢) التفسير : ٣ / ٩٨ - ٩٩ م٢.

(٣) التفسير : ١٥ / ٣٨ م٨.

(٤) في التفسير : جميع ،والصواب جمع ،وهو خطأ مطبعي.

(٥) التفسير : ٣ / ٩٩ م٢.

ويختلف السر البلاغي لهذه الكلمة في سورة الأعراف فيقـول :

(إنه قال في سورة البقرة : * خَطَايَاكُمْ * وقال ههنا : *خَطِيئَاتِكُمْ * فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع) . (١)

: (لم ذكر قوله : * رَغَداً * في البقرة وحذفه في الأعراف ؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات ، لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغداً ، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه) . (٢)

ويقول في الأعراف : (إنه ذكر في سورة البقرة : * رَغَداً * وما ذكره هنا ، فالفرق الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ، ولما كان ذلك الأكل ألذ لا جرم ذكر فيه قوله : * رَغَداً * وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون في محل الحاجة الشديدة ، ما لم تكن اللذة فيه متكاملة ، فلا جرم ترك قوله : * رَغَداً * فيه) . (٣)

: (لِمَ ذكر في البقرة : * وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ * وفي الأعراف قدم المؤخر ؟ الجواب : الواو للجمع المطلق ، وأيضاً فالمخاطبون بقوله : * ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ * يحتمل أن يقال إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ماكانوا مذنبين ، فالمذنب لا بد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب مقدماً على الاشتغال بالعبادة ، لأن التوبة عن الذنب مقدمة عن الاشتغال بالعبادات المستقبلة لا محالة . . . وأما الذى لا يكون مذنباً

---

(١) التفسير : ١٥/ ٣٨ م٨ .

(٢) التفسير : ٣/ ٩٩ م٢ .

(٣) التفسير : ١٥/ ٣٨ م٨ .

فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة، ثم يذكر التوبة ثانياً على سبيل هضم النفس ...

ويقول في الأعراف : (... المراد التنبيه على أنه يحسن تقديم كل واحد من هذين الذكرين على الآخر ،ولأنه لما كان المقصود منهما تعظيم الله تعالى وإظهار الخضوع والخشوع لم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير) (١) .

و : (لم قال : * وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * في البقرة مع الواو ،وفي الأعراف : * سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * من غير الواو ؟ الجواب : أما في الأعراف فذكر أمرين :

(أحدهما) : قول الحطة وهو إشارة إلى التوبة ،

(وثانيهما) : دخول الباب سجداً وهو إشارة إلى العبادة ،ثم ذكر جزاءين : أحدهما : في قوله تعالى : * نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ * وهو واقع في مقابلة قول الحطة ،والآخر قوله : * سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * وهو واقع في مقابلة دخول الباب سجداً ، فترك الواو يفيد توزع كل واحد من الجزاءين على كل واحد من الشرطين . وأما في سورة البقرة فيفيد كون مجموع المغفرة والزيادة جزاءً واحداً لمجموع الفعلين ،أعني دخول الباب وقول الحطة. ويذكر في الأعراف سراً مغايراً يقول : (فالفائدة في حذف الواو أنه استئناف ، والتقدير كأن قائلاً قال : وماذا حصل بعد الغفران ؟ فقيل له : "سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ") .

لم قال في البقرة : * فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً * وقال في الأعراف : * فَأَرْسَلْنَا * ؟ الجواب : الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر

---

(١) التفسير : ١٥/٣٨ م٨٠

والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالآخرة) .
ويقول في الموضع الآخر : (الفرق بين قوله : ﴿أَنزَلْنَا﴾ وبين قوله : ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فلأن الإنزال لا يشعر بالكثرة ،والإرسال يشعر بها ،فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً ..) (١) وهنا تقارب بين المعنيين .

وهكذا نلاحظ إما اتفاق الوجوه في ذكر أسرار الدقائق في السورتين أو اختلافهما ،وإن كان يبدو أن ما ذكره في سورة البقرة هو الأقرب إلى سياق الآيات.

وقد ظل يتناول أدق ما بين الآيتين من الاختلاف ويبحث عن سره وأكتفي بما ذكرته ،ومن أراد المزيد فليرجع إلى التفسير في هذين الموضعين .

ونلاحظ أن تعليلاته التي ذكرها في سورة البقرة أشد صلة بالمعنى وأكثر اقتداراً على تذوق الكلمات ،والتعمق في بواطنها للكشف عن المعنى، وهي تفوق تعليلاته التي ذكرها في الآية نفسها في سورة الأعراف.

ويوازن بين قوله تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣) .

ويستعين في بيان هذه الفروق بسياق الآيات السابقة لها يقول :
(قال الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولم يقل وما هذه الحياة ، وقال ههنا : ﴿وَمَا هَذِهِ﴾ فنقول لأن المذكور من قبل

---

(١) التفسير : ٣٨/١٥ م٨ .
(٢) سورة الأنعام : ٣٢ .
(٣) سورة العنكبوت : ٦٤ .

هـهنا أمر الدنيا حيث قال تعالى : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ فقال : (هَذِهِ) ،والمذكور فيها هناك الآخرة حيث قال حكاية عن المكذبين : ﴿ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ ﴾ فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال : ﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ ، وقال هناك : ﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وقال هـهنا : ﴿ إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ فنقول : لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الإشغال بها فأخر الأبعد ،وأما هـهنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها ،اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ،فكان هـهنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو قال هناك : ﴿ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾ وقال هـهنا : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ فنقول : لما كان الحال هناك حال إظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج إلى رادع قوى فقال الآخرة خير ، ولما كان هـهنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج إلى رادع قوى فقال : لا حياة إلا حياة الآخرة ،وهذا كما أن العاقل إذا عرض عليه شيئان فقال في أحدهما : هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحاً فحسب ،ولوقال : هذا جيد وهذا الآخر ليس بشيء يكون ترجيحاً مع المبالغة فكذلك هـهنا . . .

قال هناك : ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ولم يقل هـهنا إلا : ﴿ لَهِيَ الحَيَوَانُ ﴾ ،لأن الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقي عن الشرك ،أما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة . . .

قال في سورة الأنعام : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وقال هـهنا : ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وذلك لأن المثبت هناك كون الآخرة خيراً ،وأنه ظاهر لا يتوقف إلا على العقل ،والمثبت هـهنا أن لا حياة إلا حياة الآخرة ،وهذا لا يعرف إلا بعلم نافع) .(١)

---

(١) التفسير : ٢٥ / ٩٢ - ٩٣ م١٣ .

ويرى الإسكافي وجهاً لطيفاً في تقديم اللهو على اللعب في سورة العنكبوت أحب أن أشير إليه . ذلك أنه نظر إلى وقوعه في أسلوب قصر ، ولذلك كان المراد المبالغة في وصف قصر مدة الدنيا بالإضافة إلى مدة الآخرة ، فكأن المراد من المعنى ما أمد الحياة الدنيا إلا كأمد اللهو واللعب ، وهي أزمنة مقتصرة على شغل النفس بحلاوة ما يستعجل ، ويدل على هذا قوله تعالى بعدها : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوانُ ﴾ وقدم اللهو لأن الأزمنة التي يستغرقها الإنسان في اللهو أكثر من أزمنة استغراقه في اللعب ، ولذلك كان تقديم ما يكثر أوجب من تقديم ما هو دون ذلك.(١)

وطريقة الفخر في ربط سياق الكلام بما قبله طريقة جيدة في دراسة النص ، لأنها تعني النظر الشامل لأجزائه ، والربط بين معانيه ، ومن الممكن أن نستفيد منها في دراسة النصوص الأدبية .

وكما اعتنى الفخر بالنظر في الآيات المتقاربة في اللفظ والمعنى وبين الفروق الدقيقة بينها ، كذلك اهتم بالمقارنة بين الآيات ذات المعنى الواحد ، في السورة الواحدة والتي تختلف في صياغتها .

من ذلك مقارنته بين آيتي سورة العنكبوت اللتين جاءتا متتاليتين ، تتحدثان عن قدرته تعالى على الخلق .

قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.(٢)

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل : ١٢٣ - ١٢٤ .

(٢) آية : ١٩ - ٢٠ .

يقول : (الآية المتقدمة كانت إشارة إلى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه ،وقال في هذه الآية إن لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الأرض لتعلموا بالعلم الفكري . . . وفي الآية مسائل :

الأولى : قال في الآية الأولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه ؟ نقول : العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما تبين ، والرؤية أتم من النظر ،لأن النظر يفضي إلى الرؤية يقال : نظرت فرأيت والمفضى إلى الشيء دون ذلك الشيء . . .

المسألة الثانية : ذكر هذه الآية بصيغة الأمر ،وفي الآية الأولى بصيغة الاستفهام ،لأن العلم الحدسي إن حصل فالأمر به تحصيل الحاصل . . وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الأمر به .

المسألة الثالثة: أبرز اسم الله في الآية الأولى عند البدء حيث قال : ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ ﴾ وأضمره عند الإعادة ،وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الإعادة حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ ﴾ لأن في الآية الأولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند إليه البدء فقال : ﴿ كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ ﴾ ،ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ كما يقول القائل ضرب زيد عمراً ثم ضرب بكراً ، ولا يحتاج إلى إظهار اسم زيد اكتفاء بالأول ،وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسنداً إلى الله فاكتفى به ولم يبرزه . . . وأما إظهاره عند الإنشاء ثانياً حيث قال : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ ﴾ مع أنه كان يكفي أن يقول : ثم ينشيء النشأة الآخرة ،فالحكمة بالغة وهي ما ذكرنا أن مع إقامة البرهان على إمكان الإعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كما له ،ونعوت جلاله يقطع بجواز الإعادة فقال الله مظهراً مبرزاً ،ليقع في ذهن الإنسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه . . .

المسألة الرابعة : في الآية الأولى ذكر بلفظ المستقبل فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ﴾ ،وههنا قال بلفظ الماضي فقال : ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ﴾ ولم يقل كيف يبدأ ،فنقول الدليل الأول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي ، وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق . . .

المسألة الخامسة : قال في هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال في الآية الأولى : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ وفيه فائدتان :

إحداهما : أن الدليل الأول هو الدليل النفسي ، وهو وان كان موجبه العلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق إليه يحصل العلم العام ،لأنه بالنظر إلى نفسه علم نفسه وحاجته إلى الله ووجوده منه ، وبالنظر إلى الآفاق علم حاجة غيره إليه ووجوده منه ،فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال عند الدليل الواحد : ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ وهو اعادته : ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١). وتحليله هنا يعتمد على الناحية العقلية ويبتعد عن الناحية التذوقية الأدبية.

وله موازنة جيدة بين قصة نوح وقصة هود في سورة الأعراف وردتا في آيات متتالية ،وقد تشابهتا في الصياغة ولذلك كانت مجالاً رحباً للمقارنة.

قال تعالى في قصة نوح : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢).

---

(١) التفسير : ٢٥/٤٨-٤٩ م١٣.
(٢) سورة الأعراف : ٥٩ - ٦٢.

وقال تعالى في قصة هود : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ (١).

وقد استوعب هذا التحليل صفحات كثيرة ، وسأكتفي بذكر بعضها يقول : (واعلم أن ألفاظ هذه القصة (٢) موافقة للألفاظ المذكورة في قصة نوح عليه السلام إلا في أشياء :

الأول : في قصة نوح عليه السلام : ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وفي قصة هود : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ والفرق أن نوحاً عليه السلام كان مواظباً على دعواهم وما كان يؤخر الجواب عن شبهاتهم لحظة واحدة ، وأما هود فما كانت مبالغته إلى هذا الحد فلا جرم جاء " فاء التعقيب " في كلام نوح دون هود) (٣).

الثاني : (... إن نوحاً عليه السلام قال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأما هود عليه السلام فقال : ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ ، فنوح عليه السلام قال : ﴿ أَنصَحُ لَكُمْ ﴾ وهو صيغة الفعل ، وهود عليه السلام قال : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ ﴾ وهو صيغة اسم الفاعل ونوح عليه السلام قال : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وهود عليه السلام لم يقل ذلك ، لكنه زاد في كونه أميناً ، والفرق بين الصورتين أن الشيخ عبد القاهر النحوي ذكر في كتاب دلائل الإعجاز (٤)

---

(١) سورة الأعراف : ٦٥ - ٦٨.

(٢) أي قصة هود عليه السلام.

(٣) التفسير : ١٤/ ١٦١ م ٧.

(٤) ينظر دلائل الإعجاز : ١٧٤ في باب الفروق في الخبر إذا كان بالاسم وإذا كان بالفعل.

أن صيغة الفعل تدل على التجدد ساعة فساعة ،وأما صيغة اسم الفاعل فإنها دالة على الثبات والاستمرار على ذلك . وإذا ثبت هذا فنقول : إن القوم كانوا يبالغون في السفاهة على نوح عليه السلام ، ثم إنه في اليوم الثاني كان يعود إليهم ويدعوهم إلى الله ،وقد ذكر الله تعالى عنه ذلك فقال : * رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فلما كان من عادة نوح عليه السلام العود إلى تجديد تلك الدعوة في كل يوم وفي كل ساعة لا جرم ذكره بصيغة الفعل فقال : * وَأَنْصَحُ لَكُمْ * وأما هود عليه السلام فقوله : (١) * وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ * يدل على كونه مثبتاً في تلك النصيحة مستقراً فيها ،أما ليس فيها إعلام بأنه سيعود إلى ذكرها حالاً فحالاً ويوماً فيوماً) .(٢)

فالفخر يهتم بالصياغة وتشابهها سواء اتفقت الموضوعات أو اختلفت ويبحث عن أدق الفروق المعنوية بينها ،ونظراته هذه تفتح لنا مجالات رحبة لدراسة اختلاف الصياغات في تكرار القصص ، لمعرفة ما تبرزه كل قصة من جانب من جوانب العبرة لم يكن في غير هذا الموضع على هذا القدر وذلك لا يكون إلا بعد تحليل القصة في كل موضع تحليلاً دقيقاً يبين خوافي ألفاظها ، وما فيها من معاني لم تذكر في القصة الأخرى ،ثم ربط كل قصة بالسياق العام للسورة ،ومثل هذه الدراسات لا تدرك بالهوينى إنما تحتاج إلى جهد وتخلية بال .

كذلك يقارن الفخر بين قول رسل الله (الملائكة) مع نبي الله إبراهيم عليه السلام ثم مع لوط عليه السلام حيث تتشابه الصياغة قال تعالى :

---

(١) ذكر " أما " ولم يذكر لها جواباً والأصح حذفها ليستقيم الكلام .

(٢) التفسير : ١٤/١٦٢-١٦٣ م٧ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (١).

ويبين الفخر الفروق الدقيقة بين كل تعبير وآخر بطريقة مفصلة تعتمد على الشرح المسهب (٢)، ولولا خشية الإطالة والإملال لذكرتها، ذلك أني كما قلت سابقاً لا أهدف إلى الاستقصاء إنما إلى بيان طريقته في التناول.

ومثل هذا النوع من المقارنات كثيرة في تفسيره، وقد ذكرت أشملها وأوفاها في الرؤية البلاغية، حتى يتبين لنا حسه البلاغي في تذوق كلمات لغة النص، والكشف عن أدق دلالاتها مما يفوق به غيره.

وإن كنا نجد مثل هذه النظرات عند السابقين له، إلا أننا لا نجدها بهذه الطريقة من الاستيعاب والدقة والشمول، ولذلك رأيت أكثر هذه الدقائق مبثوثة في كتب التفسير بعده أو الكتب التي تهتم بالمتشابه في الصياغة في القرآن الكريم.

---

(١) سورة العنكبوت : ٣١ - ٣٣.
(٢) ينظر التفسير : ٢٥/٦٢-٦٤، م١٣.

الفصل الخامس

الإعجاز القرآني في التفسير

الإعجاز في تفسير الفخر الرازى

يتصل إعجاز القرآن بعلم المعاني اتصالاً وثيقاً ،ذلك أن إعجاز القرآن يتحقق بتراكيبه ونظمه ،والنظم كما عرفه عبد القاهر هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم ،و يقصد بمعانى النحو تعلق الكلام بعضه ببعض.(١)

وعلم المعاني يبحث في أحوال اللفظ العربي في هيآته المختلفة كما يقول الخطيب القزويني : (علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال).(٢)

وعلى هذا فإن أحوال اللفظ العربي تتولد من تعلق الكلام بعضه ببعض فيشمل التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والتأكيد والحذف وغير ذلك، وهذه الأبواب هي أبواب علم المعاني .

ولا يعد علم البيان أصلاً في الإعجاز ،لأنه جزء من النظم ، ولا تجرى مباحثه في كل آيات القرآن .

يقول عبد القاهر : (ولا يمكن أن تجعل " الاستعارة " الأصل في الإعجاز وأن يقصر عليها ،لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز في آى معدودة من السور الطوال مخصوصة).(٢)

كما لا يعد علم البديع سبباً في الإعجاز ،لأن البشر يستطيعون أن يحذقوه كما قال الباقلاني.(٣)

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز : ٨١.

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٩١.

(٣) ينظر إعجاز القرآن : ١٢٨.

إذن فالإعجاز يتحقق بعلم المعاني ، ويتصل به اتصالاً وثيقاً ولذلك فقد درست إعجاز القرآن عند الفخر الرازي ، وأنا بصدد الحديث عن مباحث علم المعاني في تفسيره .

تتعدد أوجه الإعجاز عند الفخر في تفسيره ، وقد حاولت لَمَّ أشتاتها المتفرقة في المواضع المختلفة ، والنظر في كل رأى وتحريره . وأول كلام له في الإعجاز جاء في سورة البقرة وهو يفسر قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

فقد بين فيه أن وجه الإعجاز في القرآن يعرف من طريقين :

الأول : أن القرآن كان في مستوى كلام العرب بقدر ينقض العادة .

الثاني : أن القرآن إن لم يكن معجزاً ببلاغته فهو معجز بالصرفة .

وقد جره الوجه الأول إلى الحديث عن وجود وجوه في القرآن تقتضي نقصان بلاغته ، وهيَ مصيبة في كلام البشر لكنها لم تُعب في القرآن ، وبها بلغ النهاية في الفصاحة ، وسأتناول الطريق الأول بالدراسة ثم انتقل إلى الطريق الثاني .

يقول الفخر مبيناً مكانة القرآن من الكلام البليغ : (واعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين :

الأول : أن يقال : إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة : إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء ، أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة ، أو زائداً عليه بقدر ينقض . والقسمان الأولان

---

(١) آية : ٢٣ .

باطلان فتعين الثالث ... وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً هو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزاً) (١) .

ثم تحدث عن الوجوه التي قامت عليها بلاغة العرب وخلا منها القرآن فبلغ النهاية في الفصاحة والبلاغة ، وحصرها في سبعة وجوه .

يقول : (واعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها فدل ذلك على كونه معجزاً .

أحدها : أن فصاحة العرب أكثرها في وصف المشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة ، وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء ، فكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفق العرب عليها في كلامهم) (٢) .

فالقرآن الكريم يخلو من كل هذه الموضوعات التي تعاورها الشعراء وأفاضوا فيها في دواوينهم ، وهذا يعني أن في القرآن موضوعات جديدة لم يعتدها العرب في أشعارهم ، بلغ بها القرآن الغاية التي لا تدرك .

والوجه الثاني : الذى لا يوجد في القرآن ويوجد في كلام العرب الكذب الذى يحسن في الشعر .

يقول : (ثانيها : أنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب في جميعه ، وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيداً ، ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل شعرهما ،

---

(١) ، (٢) التفسير الكبير : ١٢٦/٢ م١ .

ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء القرآن فصيحاً كما ترى) (١) .

ونحن نعرف أن النقاد قديماً قالوا : (أصدق الشعر أكذبه) وليس معنى الكذب في الشعر قلب الحقائق على غير وجهها الصحيح ، إنما الكذب هو التحليق في الخيال والخروج على قيود الحياة ، والخروج على حدود الواقع .

والقرآن الكريم قد فتح أبواباً جديدة لم يعهدها العرب ربطتهم بالواقع ، وحددت منهجاً لحياتهم يسيرون عليه ، عن سلوكهم ونظم حياتهم ، وجادلتهم ببراهين حولت عقول كثير من قساة القلوب . ومن شأن الموضوعات الدينية التي تضفي على الأسلوب إشراقاً وصفاءً عدم المبالغة في الخيال وعدم التكلف .

ثم يذكر الفخر الوجه الثالث لخصائص القرآن ، ويدور حول ما جاء عليه القرآن من علوم البلاغة على درجة لا يتسرب إليه الضعف والفتور الذى يصيب البشر في كلامهم .

يقول : (إن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين والباقي لا يكون كذلك ، وليس كذلك القرآن ، لأنه كله فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته) (٢) .

وأحب أن أشير إلى أن ندرة التراكيب البليغة في كلام البلغاء كان معروفاً عند أكثر علماء الأدب والبلاغة ، فعبد القاهر الجرجاني يشير إلى هذه الندرة فيقول : (إنك أحياناً تجد مواضع الحسن تتلاحق وتكثر في العين

---

(١) ، (٢) التفسير الكبير : ١٢٦/٢ م١ .

فتتبين قدر قائلها ،وأحياناً تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد ،بل أن تغلى ديواناً من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات) (١) .

ويقول الآمدى وهو يوازن بين أبي تمام والبحترى منبهاً على أنه لا يوجد شاعر اتسم كل شعره بالحسن ،والخلو من السقطات ،والفساد في الصياغة : (وغير منكر لفكر نتج من المحاسن ما نتج ،وولد من البدائع ما ولد أن يلحقه الكلال في الأوقات والزلل في الأحيان) (٢) .

ويقول على بن عبد العزيز الجرجاني : (ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدح فيه إما في لفظه ونظمه ، أوترتيبه أوتقسيمه أو معناه أوإعرابه) (٣) .

هذا في كلام البشر أما سور القرآن فإنها تقوم من أولها إلى آخرها على تراكيب بليغة متلاحقة كالأجزاء من الصيغ ،وبصورة مطردة كما يؤكده الفخر .

وهذا الوجه الذى ذكره الفخر سبقه الباقلاني إلى القول به وهو يتحدث عن أوجه إعجاز القرآن يقول : (ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ،والتصرف البديع ،والمعاني اللطيفة ،والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ،والتناسب في البلاغة ،والتشابه في البراعة ،على هذا القول ، وعلى هذا القدر ،وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال) (٤) .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) الموازنة بين الطائيين : ٣٥ .

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤ .

(٤) إعجاز القرآن : ٦٠ .

ويبدو أن الفخر أخذ منه هذا الوجه وغيره من الوجوه التي ذكرها ، لأن الباقلاني اهتم كثيراً بالموازنة بين القرآن وبين غيره من ضروب الكلام لمعرفة الفرق بينهما .

ثم يذكر الفخر الوجه الرابع ، مؤكداً للوجه الثالث ، لأنه يبين فيه اطراد فصاحة القرآن ، واستواءه على نمط واحد من البراعة والحسن يقول :

(ورابعها : أن من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلاً) (١) .

أما الوجه الخامس لخصائص القرآن - كما يراه الفخر فهو :

(أنه اقتصر على إيجاب العبادات ، وتحريم القبائح ، والحث على مكارم الأخلاق ، وترك الدنيا ، واختيار الآخرة ، وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة) (٢) .

وهذا الوجه يمت إلى الوجه الأول بصلة ؛ لأنه يتعلق بموضوعات القرآن ، فإذا كان الوجه الأول يبحث في موضوعات الشعراء التي بها تكون بلاغة العرب فإن هذا الوجه يتصل بالمعاني الجديدة التي وإن كانت تنقص من بلاغة البلغاء فإنها لا تنقص من بلاغة القرآن .

ولكن لماذا يقول الفخر إن أمثال هذه الكلمات ويقصد بها المعاني توجب تقليل الفصاحة ؟

أقول : إن هذه المعاني إذا تناولها الشعراء قللت من بلاغة أشعارهم لأنها جديدة وبالتالي تخلو من الخيال . ترى ذلك في شعر أمية ابن أبي الصلت الذى كان يدور حول المعاني الإلهية ، والحديث عن قصص الأنبياء ، لذلك فشعره شعر ضعيف ، لا يصل في بلاغته إلى شعر امرئ القيس

---

(١) التفسير : ٢/١٢٦ م١ .

في وصف الليل ،ولا النابغة في وصف الناقة ،وسأضرب لذلك مثلاً من شعره -وإن كان هذا من باب الزيادة-.

يقول وهو يصف القمر في السماء :

والشَّهر بَيْن هِلاله و محاقه أجل لعلم الناس كيف يُعَدَّدُ
لا نقص فيه غَيْر أن خَبِئَه قمر وساهور يُسلُّ ويغمدُ
خَرِقٌ يهيم كهاجع في نومه لم يقض ريب نعاسه فيهجَّدُ

فشعره يفقد المتانة والرصانة ،وحسن الصوغ ،وسعة الخيال ؛ لأنه يهتم بالمعاني الدينية التي يستحيل الخيال معها في كلام البشر .

وفي القرآن الكريم معان جديدة لم يعهدها العرب من أحكام وتشريعات ومواعظ و قصص ،جاءت على هيئة عالية من الحسن والجودة والفصاحة.

ثم يذكر الفخر الوجه السادس وهو يتعلق باطراد الفصاحة في كل موضوعات القرآن الكريم ،وانقطاعها عند العرب.

يقول : (إنهم قالوا إن شعر امرىء القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء ،و صفة الخيل ،وشعر النابغة عند الخوف ،وشعر الأعشى عند الطرب ،ووصف الخمر ،وشعر زهير عند الرغبة والرجاء ،وبالجملة فكل شاعر

---

(١) ديوان أمية بن أبي الصلت : ٣٠ .

الشهر : القمر ، الساهور : كالغلاف للقمر يدخل فيه إذا كسف فيما تزعم العرب ، الخرق : المدهوش المتحير ،الهاجع : النائم ليلاً ،الريب : الحاجة ، يهجد : يوقظ من النوم .

يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن ،أما القرآن فإنه جاء فصيحاً في كل الفنون على غاية الفصاحة) .(١)

ومن يتأمل دواوين الشعراء يظهر له ذلك بوضوح ،ويرى كيف تقوى قدرات الشاعر في موضوعات ،ثم تختفي أوتتضاءل في موضوعات أخرى ،أما في القرآن فتعلو البلاغة في كل موضوع يتناوله.

ويعد الباقلاني هذا وجهاً من وجوه الإعجاز حيث يقول : (. . .إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ،على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها ،من ذكر قصص ،ومواعظ ،واحتجاج ،ووعد ووعيد . . . وغير ذلك من الوجوه التي يشمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ،والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور . فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ،ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ،ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين . . . ولذلك ضرب المثل بامرىء القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ،وبزهير إذا رغب) .(٢)

ويبدو تأثر الفخر بالباقلاني واضحاً في هذه الوجوه الستة. حيث ذكرها وهو يتحدث عن وجوه الإعجاز ،فقد ذكر أن من وجوه إعجاز القرآن ما يرجع إلى الجملة وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلامهم ،ومباين للمألوف من خطبائهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز عن أساليب الكلام المعتاد .

وقد وعى الفخر كلام الباقلاني ولخصه على ما رأيناه سابقاً ،ووضعه تحت ما اجتمع في القرآن من وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته ومع ذلك فإنه بلغ الغاية في الفصاحة.

---

(١) التفسير : ١٢٧/٢ م١٠

(٢) إعجاز القرآن : ٦٠-٦١ .

وبعد أن ذكر الفخر الوجه السادس دعمه بآيات قرآنية تدل على علو الفصاحة في سائر أبواب المعاني في القرآن ،وكنت أتمنى أن يفعل ذلك بعد ذكر كل وجه من الوجوه السابقة.

يقول :(.. أما القرآن فقد جاء فصيحاً في كل الفنون في غاية الفصاحة ألا ترى أنه سبحانه وتعالى قال في الترغيب : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾(٢) وقال في الترهيب : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ ... الآيات ﴾(٣) وقال : ﴿ أَأَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم الآية ﴾(٤) وقال : ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾(٥) وقال في الزجر ما لا يبلغه وهم البشر وهو قوله : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾(٦) وقال في الوعظ ما لا مزيد عليه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾(٧) وقال في الإلهيات : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ... الآية ﴾(٨).

وقد وقفت عند عبارته : (أما القرآن فقد جاء فصيحاً في كل الفنون في غاية الفصاحة) ورأيت أن أبين وجه الفصاحة والبلاغة وحسن النظم في بعض الآيات التي ذكرها ،والتي جاءت في شتى المعاني ، بطريقة أتوخى فيها الاختصار ومستفيدة من طريقة الفخر في تحليل الآيات.

---

(١) سورة السجدة : من الآية ١٧.

(٢) سورة الزخرف : من الآية ٧١.

(٣) سورة الإسراء : من الآية ٦٨.

(٤) سورة الملك : ١٦ ومن الآية ١٧.

(٥) سورة إبراهيم : ١٥-١٧.

(٦) سورة العنكبوت : من الآية ٤٠.

(٧) سورة الشعراء : ٢٠٥.

(٨) سورة الرعد : من الآية ٨. التفسير : ١٢٧/٢ م١.

لقد ذكر الفخر آيتين في الترغيب ، تتحدثان عما أعده الله للمؤمنين من نعيم الجنة ، ترغيباً لهم في الطاعات والعمل الصالح ، وكلتاهما على درجة عالية رفيعة من البلاغة .

وهناك عناصر مشتركة بين الآيتين تظهر بوضوح بعد تحليل كل آية ، والنظر في دقائق معانيها ، ووضع اليد على ما اختص به القرآن من بديع النظم ، وحسن البيان ، والعلو في الفصاحة ، والمعنى العام للآيتين واحدة لكن في كل آية دقائق ورقائق تختص بها وتناسب سياقها .

فالآية الأولى : * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ * أتت في سورة السجدة بعد ذكر جزاء المتقين الذين يخرون لله سجداً ، والذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وهذا وصف لجزائهم في الجنة ، وجاءت الجملة القرآنية بصورة النفي (بلَا) دون (مَا) لتدل على امتداد الجهل بما في الجنة وفي تنكير (نَفْسٌ) إفادة العموم والشمول وذلك يشمل كل ما خلقه الله وأودع فيه نفساً ، ثم ما وراءها من علمه المنفرد بالغيب الذى يعجز عنه كل مخلوق أيا كان نوعه ، وفي مجيء أداة الموصول (مَا) دون (الَّذِى) مناسبة لصلتها (أُخْفِيَ) ، ومناسبتها لعدم العلم لأنها تستخدم للمبهم في أمره ، وإيثارها على غيرها من الألفاظ (كغمض واستتر) ، ثم زيادة الترغيب في القيد : * قُرَّةِ أَعْيُنٍ * ، وقرة العين ما تقر العين عنده ولا تلتفت إلى غيره كما قال الفخر في التفسير ، وقد جاءت مجازاً لتدل على السعادة وراحة القلب ، ثم ما وراء إضافة القرة إلى الأعين للدلالة على أن ما خفى في غاية الحسن والكمال .

ونلاحظ ما في هذه الآية من اجتماع دلالات الخفاء في قوله : * فَلَا تَعْلَمُ * * مَا * * أُخْفِيَ * وكأنها ترمى بالسامع في غياهب الحيرة والتشوق إلى ما خفى عنه فتولد فيه التطلع إلى الجنة والرغبة في دخولها .

والآية الثانية التي ذكرها في الترغيب : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ جاءت في سياق ذكر أوصاف الجنة بعد أن يأمر الله المؤمنين بدخولها : ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (١) وهذه الآية تصف كل ما في الجنة من نعيم بألفاظ قليلة موجزة ، نظمت على هيئة خاصة ونظم خاص أصابت به شاكلة المعنى ، فكل لفظ يحمل بين أعطافه قدراً كبيراً من المعنى ، فقوله تعالى ﴿ فِيهَا ﴾ أي في الجنة حيث أضمرت للعلم بها ، ولأن المقام مقام حديث عنها ، ومن شأن الأشياء المعروفة العظيمة القدر ألا يصرح بلفظه إكباراً وتعظيماً له ، وكأن كل النفوس تعرفه فلذلك يضمر ولا يظهر ، ثم يأتي الموصول في ﴿ مَا تَشْتَهِيهِ ﴾ ليعبر عن طول شهوة الإنسان ، وعدم نهايتها ، ففي الجنة إشباع لجميع المشتهيات وهذا ما يرمي إليه الضمير المفعول الذى اتصل بالفعل ، ثم تأتي الجملة المعطوفة ﴿ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾ التي قال عنها الألوسي : إنها تخصيص بعد تعميم ، أى أن ما تلذه الأعين داخل فيما تشتهيه الأنفس ، وقال تعالى : ﴿ تَلَذُّ ﴾ ولم يقل (تلذه) عطفا على ﴿ تَشْتَهِيهِ ﴾ للدلالة - والله أعلم - على أن ما في الجنة من مشاهدات لا تمثل نهاية لذة الأبصار ، لأن هناك لذة للمؤمنين أكبر وهي لذة رؤية الله تعالى . (٢)

وفرق بين هذه الآية وما قبلها مع أن غرضهما واحد ، لأن الآية الأولى تبهم أمر معرفة ما في الجنة من سعادة وقرة أعين بعناصر عدة ﴿ لَا تَعْلَمُ ﴾ ﴿ مَا ﴾ ﴿ أُخْفِيَ ﴾ .

---

(١) سورة الزخرف : ٧٠ .

(٢) ينظر روح المعاني ، للألوسي : ٢٥ / ٩٨ .

وفي الآية الثانية يتضح المعنى قليلاً ليشير إلى ما يجده الإنسان من إشباع ولذة لشهواته ،ولكن تظل غلالة الإبهام تتراءى لتتشوق النفس حيث أضمر المفعول في * تَشْتَهِيهِ * وحذف في * تَلَذُّ * .... وهكذا تتكاثف العناصر اللغوية لتؤدي الغرض الذي سيقت له من ترغيب في العمل الصالح المؤدي إلى الجنة التي هذه صفاتها .

أما في غرض الترهيب فقد ذكر الفخر آيات ثلاث ،تتشابه آيتان منها في الصياغة والمعنى .

الآية الأولى قوله تعالى : * أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * .

والثانية قوله تعالى : * أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * .

فالأولى جاءت في مقام ذكر تفرده تعالى بالتصرف في هذا العالم، وقدرته على تخويف من كفر من عباده بحقائق مخلوقة ، سبقها قوله تعالى : * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُوراً * (١) ثم ذكرت هذه الآية ، وقد بدئت بالاستفهام * أَفَأَمِنتُم * الذي يدل على الإنكار والتوبيخ والتخويف لمن يكذب ويعرض عن الله بعد إذ أنجاه ،فهل تأمنون عذاب الله والحال أنكم أعرضتم ؟ ، وقوله : * مَن فِي السَّمَاءِ * كناية عن الله سبحانه وتعالى وقد حذف لفظ الجلالة للدلالة على أن معرفته ثابتة في العقول ، فلا تخفى قدرته وعظمته ،وفيه أيضاً تهويل وتخويف ،لأن من في السماء بيده زمام كل شيء والإنسان يخاف من عذاب السماء أكثر مما يخاف من عذاب الأرض .

---

(١) سورة الإسراء : ٦٧ .

ثم يأتي المفعول به المؤول ﴿ أَنْ يَخْسِفَ ﴾ والخسف هو انقلاب ظاهر الأرض في باطنها ،وفيه ما فيه من التخويف والتهويل ، وقد قيد الخسف بـ (بِكُمْ) أي مصاحب لذواتكم؛ لأنكم المقصودون ،والخسف لا يشمل الأرض كلها إنما جانب منها ،وفي ذلك دلالة على أن البر والبحر بيد الله ،وخسف جزء من الأرض كفيل بأن يخوفكم ويرهبكم ،والبر نعمة وخسف جزء منه سيهلكهم هلاكاً ،يقول الفخر : (وإنما قال : ﴿ جَانِبَ البَرِّ ﴾ لأنه ذكر البحر في الآية الأولى فهو جانب ، والبر جانب . خبّر الله تعالى أنه كما قدر على أن يغيبهم في الماء ،فهو قادر على أن يغيبهم في الأرض)(١) ثم عطف هذه الجملة على ﴿ أو يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ والحاصب : هي الحجارة الصغيرة ،وإرسال الحاصب من السماء فيه دلالة على الغضب والسخط، وفيه أيضاً تهويل وتخويف لهؤلاء المعاندين ﴿ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ : (يعني لا تجدوا ناصراً ينصركم ويصونكم من عذاب الله)(٢). وفي (ثُمَّ) استبعاد وجود الناصر في ذلك الوقت .

وتأتي الآية الثانية من سورة الملك لتتحدث عن قدرته على إنزال عذابه ﴿ أَأَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الأَرْضَ فَإذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ .

وبدأت أيضاً بالاستفهام الإنكاري ،أي إنكار أن يأمنوا مكر الله ، والحال أنهم عصاة معاندون ،وتتحد صياغة الآية مع سابقتها إلا أن هنا رتب على الخسف أن تمور الأرض ، فالمور من نتائج الخسف ،ومعنى تمور أن ترتج وتضطرب وفي مجيئه بالمضارع استحضار للمور وكأنه حادث ،

---

(١)،(٢) التفسير : ١٢/٢١ م١١٠

فهو أدى للتخويف والتهويل وقد جاء بعد : ﴿ إذا ﴾ التي تدل على المفاجأة ، وقيد الفعل بقوله : ﴿ مَن فِي السَّمَاءِ ﴾ دون سائر الآيات لعدة وجوه ذكرها الفخر ، منها أن السماء موضع عذابه تعالى ، أو أن في ذكرها تفخيم لسلطان الله وتعظيم لقدرته ، أو أن المقصود به الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام (١) .

ثم تأتي (أَمْ) للإضراب ، والانتقال إلى إنكار آخر ، وفرق بينها وبين (أَوْ) في الآية السابقة ، وتتكرر (أَمِنتُمْ) مرة أخرى للتأكيد ، وفيه إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصباً في ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ ثم تتفرع منها جملة ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ والسين تدخل على الفعل للدلالة على وقوعه في المستقبل القريب ، وهو وإن لم يحصل فإن فيه تهديداً وتحذيراً وتهويلاً . وفي قوله : ﴿ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ إخبار عن صدق الرسول وعقوبة الإنذار (٢) كما قال الفخر .

وقد قدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب ؛ لأن الخسف من أحوال الأرض وإنزال الحاصب من أحوال السماء ، وخوف الإنسان من تقلب أحوال الأرض أقرب من خوفه من أحوال السماء ، فذكرت أولاً .

وهذه الآية أكثر دلالة على التخويف والترهيب ففيها خسف للأرض لا لجانب منها ، ثم تكرار (أَمِنتُمْ) مرتين مع الاستفهام .

وفي الزجر ذكر الفخر آية واحدة ووصفها بأنها : (ما لا يبلغه وهم البشر) في قوله تعالى : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ .

---

(١)، (٢) ينظر التفسير : ٣٠ / ٧٠ م١٥ .

هذه الآية تذكر أصناف العذاب التي نزلت على الذين كفروا ولم يذعنوا لأوامر الله ، وقد جاءت في سياق ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم الصادين عن دين الله، ونلاحظ أنها بنيت على التقسيم ، وبدء كل قسم بـ (كُلًّا) وهي تفيد الاستغراق والشمول ، وقد جاءت مفعولاً به مقدماً فأفادت الاهتمام بأمر هؤلاء وذلك أبلغ في مقام الأخذ والانتقام . ثم نتأمل الأفعال : (أَخَذْنَا - أَرْسَلْنَا - خَسَفْنَا - أَغْرَقْنَا) في إضافة الـ (نا) إليها دلالة على عظمته تعالى وقدرته ، ثم نلاحظ اختلاف النسق في * أَخَذَتْهُ * .

وفي ذكر الضمير * مِنْهُم * دون الاسم الصريح دلالة على أنهم ليسوا من المكانة حتى يذكروا ، أو أن عذابهم لا يخفى على أحد . فقوم لوط أرسل عليهم حاصباً ومدين وثمود أخذتهما الصيحة ، وقارون خسف به الأرض ، وفرعون أغرق في البحر ، وفي الجمع بين صنوف العذاب زجر للذين يعصون الله ما أمرهم ، وقد ذكر الفخر كلاماً لطيفاً في سر تنوع العذاب فقال :

(فحصل العذاب بالعناصر الأربعة ، والإنسان مركب منها وبها قوامه ، وبسببها بقاؤه ودوامه ، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سبباً لعدمه ، وما به بقاؤه سبباً لفنائه)(١) .

ثم ذكر الفخر آية واحدة في الوعظ من سورة الشعراء ، وهي قوله تعالى : * أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * وقد جاءت في سياق ذكر إصرار الكفار على الجحود ، وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم ، مع يقينهم بنبوته ، استكباراً وعناداً ، فهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، قال تعالى : * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم

---

(١) التفسير : ٢٥/٦٨ م١٣ .

مَاكَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّاكَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ *.(١)

فالآية جاءت بين آيات فتناهت في الوعظ ،وقد جيء بفعل الرؤية والاستفهام ليكون في معنى أخبر ، إفادة لمعنى التعجب والإنكار ،وأن حق هذه القصة أن يخبر بها كل أحد حتى يتعجب من أمرهم.(٢)

والآية الأخيرة التي ذكرها الفخر في الإلهيات ،وهي قوله تعالى : * اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ *.(٣)

تدل على تفرده بالألهية وإثبات العلم له دقائقه وعظائمه.

وقد بدئت الآية بلفظ الجلالة * اللَّهُ * مقدمة على الفعل * يَعْلَمُ * لبيان اختصاصه وحده بهذا العلم ،فالله وحده يعلم ما في بطون الأرحام. ثم جاءت (مَا) في * مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى * لتدل على أن أمر الحمل مبهم لا يعلمه أحد ،(وكل أنثى) يدخل تحتها كل أنثى على وجه الأرض من إنسان وحيوان ،ثم يمتد علمه ومعرفته لما تنقص به الأرحام وهذا معنى * مَا تَغِيضُ * فغيض الرحم انحباس دم الحيض عنه(٤) ، وكذلك علمه لما تزداد ،وزيادتها فيضان الحيض منها أو ما فيها من أجنة ، وفي مجيء الأفعال مضارعة متوالية (تَحْمِلُ - تَغِيضُ - تَزْدَادُ) دلالة على تكرار هذا الأمر من كل أنثى واستمرار علمه تعالى لهذه الأمور.

---

(١) سورة الشعراء : ١٩٨ - ٢٠٧.

(٢) روح المعاني ،للألوسي : ١٩/ ١٣١.

(٣) سورة الرعد : من الآية ٨.

(٤) ينظر التفسير : ١٩/ ١٦ م١٠.

وهكذا رأينا آيات القرآن هذه دالة على الفصاحة في سائر أبواب المعاني ، وقد فتحت أبواباً وآفاقاً جديدة لا عهد للعرب ولا لبيانهم بها صلة، فهي جديدة في أبوابها ،فلم يكن هناك اعتقاد بالجنة ولم يكن هناك ما ينظم حياة الناس وما يزجرهم عما هم فيه من فوضى وطيش ، فجاءت هذه المعاني الجديدة من نوع خاص غير ما اعتادوه على أعلى درجة من الصياغة - وإن اتحد الغرض- تفيض بمعان لا تنتهي ولا تنضب .

وبعد أن يدلل الفخر بهذه الآيات على الوجه السادس ، يذكر الوجه السابع لخصائص القرآن ،وهو لا يتصل بالوجوه السابقة ؛لأنه يتحدث فيه عن اشتمال القرآن على أصول جميع العلوم .

يقول : (إن القرآن أصل العلوم كلها ،فعلم الكلام كله في القرآن ، وعلم الفقه كله مأخوذ من القرآن ،وكذا علم أصول الفقه ،وعلم النحو واللغة ، وعلم الزهد في الدنيا ،وأخبار الآخرة ،واستعمال مكارم الأخلاق . ومن تأمل كتابنا في دلائل الإعجاز علم أن القرآن قد بلغ في جميع وجوه البلاغة إلى النهاية القصوى) (١) .

ويلتقي الفخر في هذا الوجه مع أبي حامد الغزالي الذى ذهب إلى أن في القرآن جميع العلوم الدينية والدنيوية ، وأنها كامنة في مطاويه ، وقد أشار إلى ذلك في العديد من مؤلفاته فيذكر في إحياء علوم الدين أن في القرآن رموزاً ودلالات على كل ما اختلفت فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، والقرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها (٢) .

---

(١) التفسير : ١٢٧/٢ م١ .
(٢) ينظر إحياء علوم الدين : ٣٤١/١ .

وبعد أن ذكر الفخر الطريق الأول وأسهب في الحديث عنه عرض للطريق الثاني ، وقد بناه على افتراضين :

الأول : أن يكون القرآن معجزاً ببلاغته ، الثاني : أن يكون معجزاً بالصرفة ثم يسلم بهما جميعاً في نهاية حديثه .

يقول : (الطريق الثاني : أن نقول القرآن لا يخلو إما أن يقال إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى حد الإعجاز ،أو لم يكن كذلك ، فإن كان الأول ثبت أنه معجز ، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ،ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة ،فكان ذلك معجزاً ،فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه ،وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب) (١).

الفخر هنا في مقام جدل وإلزام حجة ،فالقرآن إما أن يكون معجزاً بالبلاغة أو بالصرفة ،والقول بالصرفة قائم على تفسيرات ثلاثة ذكرها العلوي :

الأول : يكون المراد أن الله سلب دواعيهم عن المعارضة مع توفر الأسباب .

الثاني : أن يكون المراد أن الله سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بمثله .

الثالث : أن يراد بالصرفة المنع بالإلجاء والقسر (٢).

والصرفة عند الفخر هي أن المعارضة ممكنة لكن الله دفعهم عنها. وقد لاحظت أن الفخر يكرر ما يشبه مقولته السابقة في مواضع عدة من التفسير ، بل

---

(١) التفسير : ١٢٧/٢ م١.

(٢) ينظر الطراز : ٣٩١/٣ - ٣٩٢ .

أن الإعجاز في السور القصار كسورة الكوثر والعصر راجع إلى الصرفة ، وماعداها من سور يكون الإعجاز بالبلاغة .

يقول : (فإن قيل قوله : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ ﴾ (١) يتناول سورة الكوثر ، وسورة العصر ، وسورة قل يا أيها الكافرون ، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ، فإن قلتم إن الإتيان بأمثال هذه السورة خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة ، والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني وقلنا إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز حصل المقصود ، وإن لم يكن الأمر كذلك كان امتناعهم عن المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً ، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز) (٢) فإذا لم يكن الإعجاز بالبلاغة فهو بالصرفة .

وطريقة الفخر هنا تقوم على المجادلة والإقناع وإقامة الحجة على إثبات أن الإعجاز في السور القصار يكون بالصرفة .

ومن الغريب أنه في (نهاية الإيجاز) يعقد فصلاً في وجه الإعجاز في سورة الكوثر ، اختصره من رسالة للزمخشري في هذه السورة ، يسهب الحديث فيه عن وجه إعجازها من الناحية البلاغية . (٣)

كذلك نجده في كتابه هذا يرد مذهب الصرفة وهو يتحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم ، ويدلل على فساده بثلاثة وجوه . (٤)

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٣ .

(٢) التفسير : ٢/١٢٨ م١ .

(٣) ينظر نهاية الإيجاز : ٣٧٥ .

(٤) المصدر السابق : ٨٠ .

أما في التفسير فهو يعرض لهذا المذهب ،ويسلم به على حد مارأينا بل إنه يذكره عند تفسير الآيات التي تدل دلالة واضحة على نفي هذاالمذهب. كقوله في قوله تعالى : ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ :(١) (وللناس فيه قولان : منهم من قال القرآن معجز في نفسه ،ومنهم من قال إنه ليس معجزاً ، إلا أنه لما صرف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته مع أن تلك الدواعي كانت قوية ،كانت هذه الصرفة معجزة . والمختار عندنا في هذا الباب أن نقول القرآن في نفسه إما أن يكون معجزاً أولا يكون ،فإن كان معجزاً فقد حصل المطلوب ،وإن لم يكن معجزاً بل كانوا قادرين على الإتيان بمعارضته وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة ،وما كان لهم عنها صارف ومانع ، وعلى هذا التقدير كان الإتيان بمعارضته واجباً لازماً ، فعدم الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضاً للعادة فيكون معجزاً فهذا هو الطريق الذى نختاره في هذا الباب).(٢)

فهو لا يرى انفراد القرآن بوجه مما قاله الناس ، ولذلك اختار هذين الوجهين ، فهو إما معجز في نفسه ، أو معجز بعدم قدرتهم على المعارضة مع إمكانها وهو ما يعرف بالصرفه ،مع أن سياق الآية التي ذكر فيها هذين الوجهين تدل على اجتماعهم وعجزهم مع بقاء قدرتهم،فهي تحدد طريقاً واحداً للإعجاز يعود إلى القرآن نفسه(٣) ، ولو كان قد سلبهم الله القوى لما ذكر تساندهم وتظاهرهم؛لأن من ليس لهم قدرة لا يكون لاجتماعهم أثر.

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨.

(٢) التفسير : ٢١/٥٥ م١١.

(٣) ينظر البيان في إعجاز القرآن : ٢٣.

وبعد أن ثبت أن هذا رأيه ،وقد ذكره في عدة مواضع من التفسير ، لا يختلف في موضع عن الآخر ، بل إن العبارات تكاد تكون واحدة ،مبنية كلها على الافتراضات.

أحب أن أعرض سؤالاً أتلمس الإجابة عليه ، وهو ما الذى دفع الرازى إلى القول بهذا المذهب مع أنه نقضه في النهاية ،وأصر على أن القرآن معجز بالفصاحة ،وما الذى دفعه أن يكرر ذلك مراراً فيقول : (فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب) .

ويقول : (فهذا هو الطريق الذى نختاره في هذا الباب).

ويقول بعد ذكر الصرف في السور القصار : (... ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ،فإن قلتم إن الإتيان بأمثال هذه السورة خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين ، قلنا فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني) .

أقول : واضح أن الفخر يذهب بهذا الكلام مذهب مجاراة الخصم، وهو نوع من الجدل الملزم في النهاية إلى الحق الذى يراه ،ولعله سلك هذا الطريق قطعاً للشغب ،وحسماً للأمر ، وسداً لباب الشبهة - وهذا ما يوحي به كلامه - فهو قد عاش في عصر استشرت فيه الفتن ،وتشعبت المذاهب ،وكثرت الفرق الكلامية من شيعة و معتزلة ومرجئة وكرامية ،وكانت المعارك الطاحنة تقع بينهم ،وللفخر كثير من المناظرات مع أئمة هذه الفرق ،دفع فيها كل حجة باطلة، وأكثر هؤلاء من أهل الزيغ والضلال،ولا يملكون من الطبع ما يجعلهم يقتنعون بإعجازه بالبلاغة والنظم ،فرمى في وجوههم هذه المقولة.

وقد تنبه بعض العلماء إلى هذا التناقض القائم في التفسير ،وإلى قول الفخر بالبلاغة والصرفة في السور القصار ،فأرجعه إلى أنه طريقة في المجادلة للمنافحة عن الحق .

يقول ابن كثير : (وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأنّ القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق ،وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر،وإنا أعطيناك الكوثر).(١)

وفي موضع آخر من التفسير يستعرض الفخر آراء وأقوال العلماء في أسباب إعجاز القرآن ثم ينقضها كلها ،ويختار الوجه القائل بأنه معجز بفصاحته مستدلاً بنظم الآية التي كان بصدد تفسيرها من سورة هود ،وهي قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٢) يقول : (اختلف الناس في الوجه الذى لأجله كان القرآن معجزاً ، فقال بعضهم : هو الفصاحة ،وقال بعضهم : هو الأسلوب وقال ثالث : هو عدم التناقض ،وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ،وقال سادس : هو اشتماله على الاخبار عن الغيوب . والمختار عندى وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة . واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية ،لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم ،أو الإخبار عن الغيوب ،أو عدم التناقض لم يكن لقوله : ﴿مُفْتَرَيَاتٍ﴾ معنى ،أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك ،لأنّ الفصاحة تظهر بالكلام ، سواء كان الكلام صدقاً أو كذباً ،وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة العالي في الفصاحة)(٣) والفصاحة عند الفخر مرادفة للبلاغة ـ على حد ما بينت في مبحث النظم عنده ـ .

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ١/ ٦١ .

(٢) سورة هود : ١٣ .

(٣) التفسير : ١٧/ ٢٠٣ م٩ .

ومعنى قول الفخر : (لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان صدقاً أو كذباً) أي أن التحدى هنا وقع باللفظ دون المعنى ، لأن الافتراء يوصف به المعنى لا اللفظ والفصاحة تظهر بالقدرة على النظم سواء كان المعنى صدقاً أو كذباً .

ويقصد بقوله : (واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية) علماء منهم عبد القاهر الجرجاني الذى ذكر هذه الآية وقال : (وذاك أنا نعلم أن المعنى " فأتوا بعشر سور تفترونها أنتم" وإذا كان المعنى على ذلك ، فبنا أن ننظر في الافتراء إذا وصف به الكلام ، إلى المعنى يرجع أم الى اللفظ والنظم ، وقد عرفنا أنه لا يرجع إلا إلى المعنى)[1] .

وفي كلام الفخر الأخير : (لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف . . . إسقاط للقول بالصرفة وإقامة الحجة على ذلك ، وهذا يؤيد ما ذهبتُ إليه سابقاً من أن قوله بالصرفة في بعض المواضع مجاراة للخصم .

ولم يحاول أن يبطل أى قول من الأقوال التي ذكرها إلا القول بالصرف ، وفي ذلك دلالة على أنه أكثر الأقوال بعداً عن قيام الإعجاز عليه ، ومناقضاً للقول بأنه معجز بالفصاحة ، لأن الفصاحة تعنى أن يأتوا بمثله في حسن النظم ، والصرفة تعنى أن يأتوا بمثله حتى ولو كان كلاماً ركيكاً وبين الوجهين تناقض وتباين واضح .

واختيار الفصاحة وجهاً للإعجاز هو الرأى الذى استقر عليه في حديثه عن إعجاز القرآن في كتابه (نهاية الإيجاز) بعد أن نقض جميع الوجوه ودلل على فسادها بالحجة والبرهان حيث يقول : (ولما بطلت هذه المذاهب

---

(١) الرسالة الشافية : ٦١٧ .

ولا بد له من أمر معقول حتى يصلح التحدى به ،ويعجز الغير عنه ،ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة ،علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة). (١)

وقد يرجع الفخر الإعجاز إلى فصاحة اللفظ وشرف المعنى وإلى ترتيبات القرآن ،التي رأيناه يتتبعها تتبعاً دقيقاً ، ويحرص على بيان دقائقها في أكثر آيات القرآن ،ويرى ما في تسلسلها و ترابطها من الدقائق واللطائف الخفية ، بل يسميها نظماً ،يقول عند تفسير آخر آيات سورة البقرة : (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ،وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ،ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك ،إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور ، و ليس الأمر في هذا الباب كما قيل :

وَالنَّجْمُ تَسْتَصغِرُ الأَبْصارُ رؤيَتَه
وَالذَّنبُ للطَّرفِ لَا للنَّجم في الصِغَرِ) (٢)

وأظن أنه يقصد بفصاحة اللفظ وشرف المعنى البلاغة القائمة في القرآن ، والتي يسميها دائماً الفصاحة، وهذا خلاف ما قال به عبد القاهر من أن الإعجاز يكون بالنظم على طريقة مخصوصة ،ورفض ما قاله فريق من رجوع المزية إلى اللفظ ،وما قاله آخرون من رجوع المزية إلى المعنى. (٣)

---

(١) ص : ٨٢.
(٢) التفسير : ١٣٩/٧ م٤.
(٣) ينظر دلائل الإعجاز : ٥٧.

وإذا كان عبد القاهر يساوى بين الفصاحة والبلاغة والترتيب فإن الفخر يفرق بينهما، وأراه هنا متأثراً بأبي هاشم الجبائي الذى يجعل النظم في هذين العنصرين يقول القاضى عبد الجبار نقلاً عنه : (قال شيخنا أبوهاشم : إنما يكون الكلام فصيحاً بجزالة لفظه ،ولا بد من اعتبار الأمرين) (١).

ثم يعقب القاضي عبد الجبار على كلامه ويبين أن صورة تركيب الكلام أساس في بلاغة العبارة وفصاحتها فيقول : (اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام ،وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة) (٢).

ثم يرجع الفخر الإعجاز ثانياً إلى الترتيب ونظم الآيات ،أى المناسبات القائمة بين كلمات الآية الواحدة، وما بين الآية وآية أخرى ، ثم ما بين أغراض الكلام في السورة الواحد . . . وهكذا حتى يمتد ليشمل مناسبة سورة مع سورة ،والتي حرص على أن يسميها نظماً .

ويربط الفخر هنا بين المناسبات القرآنية والأسلوب . . . ولكن ما معنى الأسلوب ؟ الإعجاز بالأسلوب يعني اختصاص القرآن بطريقة نظم لا يوجد لها نظير في كلام الناس المعتاد من نثر وشعر.

وقد ذكر الفخر الأسلوب ،ورد إليه الإعجاز ، في موضع من التفسير فقال : (أن يكون "أى الإعجاز" بحسب النظم في الأسلوب ؛وذلك لأن القرآن ليس من جنس الشعر ،ولا من جنس الخطب ولا من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل) (٣).

---

(١) ،(٢) المغني : ١٦/١٩٩.

(٣) التفسير : ٢٦/٢٦٨ م١٣.

ولكن ما وجه الشبه بين المناسبات وبين الأسلوب الذى جعل الفخر يقول عنه : (لعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك) . قد يكون تفرد القرآن بهذه الطريقة من الترابط يشبه أسلوب القرآن أى طريقته التي تفرد بها في النظم ، ولذلك شبهه بها .

وهكذا فالإعجاز عنده يظهر من طريقين :

١ - إعجاز من حيث فصاحة ألفاظه وشرف معانيه .

٢ - من حيث نظم كل جملة مع اختها بالنظر إلى ترتيبها والمناسبة بينهما .

والوجه الأول قد يقصد به الفصاحة القائمة على هذين الأمرين ، ورجحتُ أنه أخذه من الجبائي .

أما الوجه الثاني فلم يقل به أحد قبل الفخر وجهاً للإعجاز القرآني، ويظهر تفرده في ذلك من خلال ربطه بين الآيات والسور ارتباطاً وثيقاً حتى تصير بناء واحداً لا خلل بين أجزائه حتى لقد قال : (إن الإعجاز يكاد ينحصر في هذا المعنى الذى لا يوجد أبداً في كلام البشر)(١).

كما أن معرفة هذه المناسبات مما يخفى على الناظر، فقد يظهر أن المعاني متنافرة بعيدة الأغراض، وبالتأمل الفاحص ، وإعمال الفكر في السابق واللاحق يظهر لنا الترابط والعلاقة.

والرافعي من المحدثين الذين يوافقون الفخر ، في تحقيق الإعجاز من جهة المناسبات القرآنية.

---

(١) نقلاً من (دراسة في إعجاز القرآن) : ٢٤٥ ، بحث ملحق بآخر كتاب (أسرار التكرار في القرآن) للكرماني ، من تأليف محقق الكتاب عبد القادر أحمد عطا .

يقول : (من أعجب ما اتفق في هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه تجرى في مناسبة الوضع وإحكام النظر مجرى ألفاظه على ما بيناه من أمرها ، ولا يعدم المفكروجهاً صحيحاً من القول في ربط كل كلمة بأختها ، وكل آية بضريبتها ، وكل سورة بما إليها ، وهو علم عجيب أكثر منه الفخر الرازى في تفسيره) .(١)

ويأخذ الفخرعلى المفسرين إعراضهم عن التنبه للمناسبات ، التي سماها لطائف لدقتها ، ولحاجتها إلى التأمل ، وهذا شأن أكثر العلماء ، يستشعرون بعظم المسألة العلمية التي يتفردون بالبحث عنها ، ويتهمون غيرهم من أهل العلم بالغفلة وعدم إدراك عظم الحقائق ، فأبو بكر النيسابوري كان يزدرى علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة ، ويقول ابن العربي في هذا العلم : (فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ...) .(٢)

وأدع ذا لأقول إن الفخر يفضل القول بأن القرآن معجز بألفاظه ومعانيه في موضع آخر من التفسير وهو بصدد تفسير قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾.(٣)

يقول : (كون القرآن أحسن الحديث إما أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه أو بحسب معناه .

---

(١) إعجاز القرآن : ٢٤٤ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٣٨ .

(٣) سورة الزمر : من الآية ٢٣ .

القسم الأول : أن يكون أحسن الحديث بحسب لفظه وذلك من وجهين :

الأول : أن يكون ذلك الحسن لأجل الفصاحة والجزالة.

الثاني : أن يكون بحسب النظم في الأسلوب ؛ وذلك لأن القرآن ليس من جنس الرسائل بل هو نوع يخالف الكل مع أن كل ذى طبع سليم يستطيبه ويستلذه .

القسم الثاني : أن يكون كونه أحسن الحديث لأجل المعنى وفيه وجوه :

الأول : أنه كتاب منزه عن التناقض ... ومثل هذا الكتاب إذا خلا عن التناقض كان ذلك من المعجزات.

الوجه الثاني : اشتماله على الغيوب الكثيرة في الماضي والمستقبل) .(١)

في موضع آخر يجمع إلى الإعجاز بالبيان الإعجاز بالإخبار عن الغيوب والإعجاز لاشتماله على العلوم الكثيرة مستنبطاً هذه الوجوه من سياق الآية في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .(٢)

يقول : (... بين الله تعالى أولاً كونه معجزاً من وجوه :

أحدها : أن الأقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والإنجيل ...)

ثانيها : قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك لأن بعض الناس قال : إنا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية

---

(١) التفسير : ٢٦/٢٦٨ م١٣.

(٢) سورة النمل : ٧٦ - ٧٧.

على التوحيد والنبوة وشرح صفات الله تعالى ،وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب . . . ووجدنا ما فيه من الشرائع . .ووجدناه مبرأ من التناقض . . . فكان هدى ورحمة من هذه الجهات .

وثالثها : إنه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه في الفصاحة حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز)[١] ويبطل الفخر مذهب جعل الإعجاز في الإخبار عن الغيوب في كتابه(نهاية الإيجاز) لأن الغيوب لا توجد في كل سورة وكل آية.[٢]

وهكذا ظل الفخر يعدد وجوه الإعجاز في كثير من تفسيره الآيات، كلما تحدث عن المعجز أو التحدى أو عن معنى آية تتحدث عن صفات القرآن وقد تتكاثر عنده فتصل إلى خمسة وجوه كما في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾[٣] فقد ذكر أن القرآن معجز من خمسة وجوه ، البلاغة ،والإخبار عن الغيوب ، والبراءة من النقص ،واشتماله على الأحكام ،واشتماله على أنواع العلوم ،[٤] فهو في أكثر المواضع حريص على أن يجعل البلاغة أو الفصاحة إحدى وجوه الإعجاز، سائراً في ذلك على نهج أكثر علماء العربية .

على أنه أحياناً يرجع الإعجاز إلى وجوه أخرى غير الفصاحة ويفصل القول في ذلك ، نظراً لأن مقام تفسير الآية التي يفسرها يقتضي ذلك كأن يستنبط

---

(١) التفسير : ٢٤/٢١٥-٢١٦ م١٢.

(٢) ينظر نهاية الإيجاز : ٨٢.

(٣) سورة الفرقان : ٦.

(٤) ينظر التفسير : ٢٤/٥١-٥٢ م١٥.

وجهين للإعجاز من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) فيقول : (واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أي الوجوه ، فقال بعضهم إنه معجز لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ومنهم من قال إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ كل شيء ﴾) (٢).

ثم يحقق المسألة ويتحدث عن احتواء القرآن على شتى العلوم الدينية فيقسم ويفرع ويشرح ويستشهد حتى يقول : (فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشرعية ، عقليها ونقليها ، اشتمالا يمنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزاً) (٣).

وقد ذكرت سابقاً أن بعض العلماء قد أطال في الحديث عن العلوم المستنبطة من القرآن كالغزالي ، بل إن بعضهم قد بالغ في ذلك فرأى أن القرآن قد اشتمل على شتى أنواع العلوم ، فالسيوطي يقول : (وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء ، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها) (٤).

وقد لاحظت أن بعض الكتب التي تتحدث عن الإعجاز في القرآن الكريم ، تذكر أن الرازي يرجع الإعجاز في القرآن إلى الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . فيقول الزركشي وهو يعدد أوجه الإعجاز وينسبها إلى من قال بها : (إن وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من

---

(١) سورة يونس : ٣٧ .

(٢) ، (٣) التفسير : ١٧/١٠٠ م٩ - سورة يوسف : من الآية ١١١ .

(٤) الإتقان في علوم القرآن : ٢/١٢٩ .

جميع العيوب وغير ذلك مقترناً بالتحدى ، واختاره الإمام فخر الدين) (١) .

ويقول السيوطي : (وقال الإمام فخر الدين وجه الإعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب) (٢) .

وقول العلماء هذا يخالف ما ذهب إليه الفخر (في نهاية الإيجاز) حيث نقض مذهب الصرفة ، والابتداء بأسلوب ، والتناقض والاختلاف ، واشتماله على الغيوب ، ولم يرتض إلا مذهب الإعجاز بالفصاحة .

لكنه في التفسير ذكر وارتضى وجوهاً متعددة للإعجاز ، فتارة يقصره على وجه واحد ، وتارة على وجهين ، وتارة على ثلاثة . . . وهكذا - كما رأينا - . ولا أعلم لماذا قصر هؤلاء العلماء مذهب الفخر في الإعجاز على هذه الوجوه مع أنه ذكر وجوهاً أخرى كالإعجاز بالمناسبات ، وهو وجه انفرد به في ذلك الوقت ، أو اشتماله على سائر العلوم وغير ذلك من الأوجه التي ذكرها .

وأتساءل هنا ما الذى جعل الفخر يضطرب في تحديده للإعجاز في التفسير على هذه الطريقة ، هل هو مذهبه في مجاراة الخصم على حد ما ذكرت في قوله بالصرفة ، أو أن هناك سبباً أو أسباباً أخرى وراء هذا الاختلاف في الأقوال .

أرى أن هناك أمراً يمكن أن يقال وهو أن تلاميذ الفخر هم الذين كتبوا عنه تفسيره ، فقد كان يمليه عليهم من فوق المنبر ، وكان كبارهم نحو الثلاثمائة فلا يبعد أن تكون كتابتهم عنه مختلفة ، فبعضهم يزيد وبعضهم ينقص ، وقد يحدث تغيير من الذين نقلوا عنهم بعد ذلك ، وبهذا يمكن تعليل هذا الاضطراب في التفسير .

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٩٨ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١١٩ .

الباب الثالث
تأثـر الفخـر وأثـره

الفصل الأول : تأثر الفخر بمن قبله

الفصل الثاني : أثر الفخر فيمن بعده

الفصل الأول
تأثر الفخر بمن قبله

أ – تأثره بعبد القاهر الجرجاني .

ب – تأثره بالزمخشري .

جـ – تأثره ببعض المفسرين .

د – تأثره ببعض النحاة .

أ - تأثره بعبد القاهر الجرجاني

يبدو أثر الإمام عبد القاهر ظاهراً في تفسير الفخر، ذلك أنه - كما نعلم- لخص كتابي عبد القاهر، ورتب أبوابهما وحرر مسائلهما كما يقول في مقدمة كتابه (نهاية الإيجاز) لكنه لم يضف شيئاً إلى ما قاله الشيخ عبد القاهر، مع أن الشيخ كان يدعو دائماً إلى البحث وشق حجب فقه هذه اللغة والتغلغل في أسرارها، واكتفى بتلخيصها ووضعها في أطر وقواعد .

وقد لاحظت أنه لم يعن بنقل أكثر بلاغة عبد القاهر التي ذكرها في النهاية إلى حيز التطبيق في التفسير، فلم أجد له ذكراً إلا في أبواب متعددة. كما أنه أهمل في التفسير تحليل كثير من الآيات التي نقلها عن عبد القاهر في النهاية من الناحية البلاغية في شتى الأبواب ، كما يبدو تأثره به من خلال متابعته للزمخشري الذي بدوره طبق كثيراً مما قرره عبد القاهر.

ذلك أنني أجملت تأثره بعبد القاهر في ثلاثة طرق :

١ - أنه ينقل منه القاعدة ثم يطبقها على الآية .

٢ - يستشهد به في الرد على بعض المسائل .

٣ - يأخذ عنه أخذاً غير مباشر.

١ - لخص الفخر بعض أبواب عبد القاهر، وأثبتها في التفسير، وهذه الأبواب هي :

أ - باب التقديم : اختصر الفخر كلام عبد القاهر هذا الباب، وبين ما يفيده التقديم بعامة.

ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (١) حيث بنى جوابه فيها على ما قاله عبد القاهر .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨ .

يقول : (لو قال : يتربص المطلقات ،لكان ذلك جملة من فعل وفاعل ، فما الحكمة في ترك ذلك وجعل المطلقات مبتدأ ،ثم قوله : ﴿ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ إسناد الفعل إلى الفاعل ، ثم جعل هذه الجملة خبراً عن هذا المبتدأ ،والجواب قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني في كتاب : "دلائل الإعجاز" إنك إذا قدمت الاسم فقلت : " زيد فعل " فهذا يفيد من التأكيد والقوة ما لا يفيده قولك : " فعل زيد " ،وذلك لأن قولك : " زيد فعل " يستعمل في أمرين :

أحدهما : أن يكون لتخصيص ذلك الفاعل بذلك الفعل ،كقولك : أنا أكتب في المهم الفلاني إلى السلطان ، والمراد دعوى الإنسان الانفراد .

الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك ،بل المقصود أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث كذا لإثبات ذلك الفعل كقولهم : هو يعطي الجزيل ،لا يريد الحصر ،بل أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١) ليس المراد تخصيص المخلوقية ،وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ (٢) وقول الشاعر :

هُمَا يَلْبَسَانِ الْمَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ
شَحِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا (٣)

فكل هذه الأمثلة ذكرها عبد القاهر في الدلائل .

---

(١) سورة النحل : ٢٠ .
(٢) سورة المائدة : من الآية ٦١ .
(٣) ورد في التفسير (شجيعان) على خلاف ما أثبت عند عبد القاهر في الدلائل ،وقد صححتها ،والبيت لعمرة بن الخثعمية ترثي ابنها .

ثم إن الذى ظهر لي وترجح عندى أن عبد القاهر لم يقل إن مثل : (زيد فعل) يفيد القصر ،بدليل أنه لما مثل اقتصر في تمثيله على ما كان المسند إليه ضميراً ،فيفيد عندئذ القصر، ولم يأت بمثال واحد للاسم الظاهر المقدم على الفعل لإفادة القصر ،بل كل أمثلته من هذا النوع ،مثل بها لما يفيد التقوية والتوكيد .

وأرى أن الفخر هنا قد ألحق تقديم المسند إليه الاسم بتقديم المسند إليه الضمير في إفادة التوكيد والقصر بدلالة أن أمثلة القرآن والشعر التي ذكرها قدم فيها الضمير على الفعل .

وقد رجعت إلى (نهاية الإيجاز) لأتثبت من الأمر فوجدته لا يفرق بينهما أيضاً يقول : (فإذا قدمت الاسم فقلت : زيد قد فعل ، وأنا فعلت ، اقتضى أن يكون القصد إلى الفاعل يقتضي وجهين :

الأول : أن يكون الغرض تخصيص ذلك الفعل بذلك الفاعل كقولك : أنا كتبت في معنى الأمر الفلاني . . .

الثاني : ألا يكون المقصود هو التخصيص ،بل لأجل أن تقديم ذكر المحدث عنه بحديث آكد لإثبات ذلك الفعل له ،مثل قولهم : (هو يعطى الجزيل) .(٢)

أدعذا لأقول : إن الفخر في تطبيقاته على القرآن يرى أن التقديم لا يخرج عن هذين الفرضين ،فهو يسمى دلالة الاختصاص في أغلب الأحوال دلالة القصر ،ويسمى دلالة تأكيد إثبات الفعل العناية والاهتمام .

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز : ١٢٨ ومابعدها - باب التقديم والتأخير .

(٢) نهاية الإيجاز : ٣٠٧-٣٠٨ .

ثم يذكر الفخر بعد كلامه السابق الذى نقله من عبد القاهر أثر التقديم على النفس آخذاً ذلك أيضاً من عبد القاهر .

يقول الفخر : (والسبب في حصول هذا المعنى عند تقديم ذكر المبتدأ أنك إذا قلت : عبدالله ، فقد أشعرت بأنك تريد الإخبار عنه ، فيحصل فى العقل شوق إلى معرفة ذلك ، فإذا ذكرت ذلك الخبر قَبِلَه العقل قبول العاشق لمعشوقه ،فيكون ذلك أبلغ فى التحقيق ونفي الشبهة)(١) .

وهذا هو ما ذكره عبد القاهر ،يقول : (فإذا قلت : (عبدالله) فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ،فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً " قام " أو قلت " خرج " أو قلت " قدم " فقد علم ما جئت به ، وقد وطأت له ، وقدمت الإعلام فيه ،فدخل على القلب دخول المأنوس به ، وقَبِلَه قبول المهيأ له المطمئن إليه ،وذلك لا محالة أشد لثبوته ،وأنفى للشبهة ، وأمنع للشك ،وأدخل في التحقيق) (٢) .

---

(١) التفسير : ٦/٩٣ م٣ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٣٢ .

التوكيـــد :

لخص الفخر كلام عبد القاهر في باب (إنَّ) ومواقعها في الكلام، وقد ذكر ذلك وهو يتحدث عن (إنَّ) نحوياً عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) فبعد أن حقق في أصلها، وذكر رأى البصريين والكوفيين فيها تحدث عن عملها بلاغياً عند عبد القاهر، دون أن يطبق ما قاله على فائدة (إنَّ) في الآية. بدأ حديثه عنها بقصة المبرد مع الكندى - التي ذكرتها سابقاً في مبحث التوكيد -، ثم ذكر خصائصها مدعماً ذلك بالأمثلة المتعددة من القرآن والشعر، فمن خصائصها أنها تكون جواباً عن سؤال يقول الفخر : (واحتج عبد القاهر على صحة قوله - أى المبرد - بأنها إنما تذكر جواباً لسؤال السائل بأنَّ قد رأيناهم قد ألزموها الجملة من المبتدأ والخبر إذا كان جواباً للقسم نحو : والله إنَّ زيداً منطلق، ويدل عليه في التنزيل قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) ...

ثم بعد أن ذكر أمثلة متعددة قال إنها تأتي أيضاً إذا كان الخبر على خلاف ظن السامع يقول : (وقال عبد القاهر : والتحقيق أنها للتأكيد، وإذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه لم يحتج هناك إلى (إنَّ) وإنما يحتاج إليها إذا كان السامع ظن الخلاف، ولذلك تراها تزداد حسناً إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله كقول أبي نواس :

عَلَيْكَ بِالْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ   إِنَّ غِنَى نَفْسِكِ فِي الْيَأْسِ

---

(١) سورة البقرة : ٦ .

(٢) سورة الكهف: ٨٣ ومن الآية ٨٤. التفسير : ٢ / ٤١ م ١ .

وإنما حسن موقعها لأنّ الغالب من الناس لا يحملون أنفسهم على اليأس).[1]

وذكر أن من خصائصها أيضاً ،أنها تجيء إذا ظن المتكلم في الذى وجد أنه لا يوجد وضرب على ذلك أمثلة.

والفخر في كل هذا ينقل عن عبد القاهر ،ويلخص أفكاره ،لكنه لم يطبق هذه الدواعي على الآيات القرآنية ،ولم يهتم بذكر دواعي للتوكيد غيرها إلا قليلاً -كما رأيناه في مبحث التوكيد -.

---

(١) التفسير : ٢/ ٤١ م١٠

العطـــف :

يمنع الفخر عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية ،لكنه يجيزه إذا كان هناك أسرار تعبر عنها الجملة معتمداً في ذلك على قول عبد القاهـــر الجرجاني في أن الاسم يدل على الثبوت،والفعل على التجدد والحدوث.

يقول في تفسير العطف في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (١) : (... هنا عطف الاسم على الفعل ،لأن قوله : ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ جملة فعلية ،وقولـــه : ﴿ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ جملة اسمية ،واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسميـــة على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة ،وتلك الفائدة هي أن صيغة الفعل مشعرة بالتجدد والحدوث حالاً بعد حال ،وصيغة الاسم مشعرة بالدوام والثبات والاستمرار) (٢).

فهذا ملخص كلام عبد القاهر في دلالة الاسم ودلالة الفعل يقول :
(إن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجـدده شيئاً بعد شيء ،وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبـت به شيئاً بعد شيء) (٣).

وينسب إليه هذا الكلام صراحة في موضع بين فيه سر عطف الجملـة الاسمية على الفعلية عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ (٤) : (عطف الاسم على

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٣.
(٢) التفسير : ١٥/٩٦ م٨.
(٣) دلائل الإعجاز : ١٧٤.
(٤) سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .

الفعل قبيح فما السبب في اختيار ذلك ؟ ... إن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان ،وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ،وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلاً في كتاب (دلائل الإعجاز) فقال قوله : ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ﴾ (١) إنما ذكر بلفظ الفعل وهو قوله : ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ لأنّ صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة ،وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (٢) فقوله : ﴿بَاسِطٌ﴾ يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة) (٣).

فهو وإن شاع عنه أنه يمنع عطف الجملة الاسمية على الفعلية -كما رأينا عند ابن هشام . إلا أنه أجازه بناءً على ما قاله عبد القاهر واستنبطه من دلالة الاسم ودلالة الفعل .

---

(١) سورة فاطر : من الآية ٣ .

(٢) سورة الكهف : من الآية ١٨ .

(٣) التفسير : ١٣/٩٨ م٢ .

٢ - وقد يعترض الفخر على أقوال بعض العلماء ، فيستشهد على صحة قوله بما قرره عبد القاهر ، من ذلك أن الواحدى حين قدر مفعولاً للفعل ، رد عليه الفخر بأن ذلك يوجب تغيير المعنى وخروجه عن المراد ، بناء على ماذكره عبد القاهر في باب الحذف .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) : (قال الواحدى - رحمه الله - قوله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى سمعنا قوله وأطعنا أمره ، إلا أنه حذف المفعول لأن في الكلام دليلاً عليه من حيث جوابه ، وأقول هذا من الباب الذى ذكره عبد القاهر النحوى - رحمه الله - ، إن حذف المفعول به ظاهراً أو تقديراً أولى ؛ لأنك إذا جعلت التقدير سمعنا قوله ، وأطعنا أمره ، فإذن ههنا قول آخر غير قوله ، وأمر آخر يطاع سوى أمره ، فإذا لم يُقدَّر فيه ذلك المفعول أفاد أنه ليس في الوجود قول يجب سمعه إلا قوله ، وليس في الوجود أمر يقال في مقابلته أطعنا إلا أمره ، فكان حذف المفعول صورة ومعنى في هذا الموضع أولى) (٢) .

فمراد الآية إثبات الفعل على وجه الإطلاق دون اعتبار مفعول له وقد ذكر ذلك عبد القاهر في باب حذف المفعول فقال : (فاعلم أن أغراض الناس تختلف فى ذكر الأفعال المتعدية فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتعرضوا لذكر المفعولين ، فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدى كغير المتعدى في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديراً) (٣) .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .
(٢) التفسير : ١٤٧/٧ م ٤ .
(٣) دلائل الإعجاز : ١٥٤ .

وللفخر اعتراضات على بعض آراء عبد القاهر :

من ذلك أن عبد القاهر يطعن في تقدير خبر محذوف في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (١) والتقدير : وقالت اليهود عزير ابن الله معبودنا ، ويقول : إن الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف التكذيب إلى الخبر ، وصار ذلك الوصف مسلماً ، ويضعف الفخر هذا القول ويرد عليه .

وسأذكر قول عبد القاهر المثبت في الدلائل ، ثم قول الفخر في التفسير ، يقول عبد القاهر : (أن يكون " الابن " صفة ، ويكون التنوين قد سقط على حد سقوطه في قولنا : " جاءني زيد بن عمرو " ويكون في الكلام محذوف ، ثم اختلفوا في المحذوف ، فمنهم من جعله مبتدأ فقدر : " وقالت اليهود وهو عزير بن الله " ، ومنهم من جعله خبراً فقدر : " وقالت اليهود عزير بن الله معبودنا " ، وفي هذا أمر عظيم ، وذلك أنك إذا حكيت عن قائل كلاماً أنت تريد أن تكذبه فيه ، فإن التكذيب ينصرف إلى ما كان فيه خبراً دون ما كان صفة) (٢) .

والفخر عند تفسيره لهذه الآية يرجح قول من جعل " ابن " صفة والخبر محذوفاً ، ثم يذكر ما رآه عبد القاهر ، ويضعف رأيه فيقول : (وطعن عبد القاهر الجرجاني في هذا الوجه في كتاب دلائل الإعجاز . . . وهذا الطعن عندي ضعيف ، أما قوله : إن من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بأمر من الأمور وأنكره منكر توجه الإنكار إلى الخبر فهذا مسلم ، وأما قوله : ويكون ذلك تسليماً لذلك الوصف فهذا ممنوع ، لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر بالتكذيب أن يدل على أن ما سواه لا يكذبه بل يصدقه ، وهذا بناء على دليل الخطاب وهو ضعيف لا سيما في مثل هذا المقام) (٣) .

---

(١) سورة التوبة : من الآية ٣٠ .
(٢) الدلائل : ٣٧٦ .
(٣) التفسير : ٣٦/١٦ م٨ .

٣ - هناك نظرات بلاغية في التفسير الكبير ترجع في أصولها إلى عبد القاهر ، وقد حرصت على ذكرها في مواضعها من البحث ، وسأذكر بعضها مما لم أوضحه وضوحاً ظاهراً ، كحرصه في بعض أبواب المعاني على بيان الأثر النفسي له ، فمثلاً في باب الالتفات ، بين الفخر ما يثيره هذا الأسلوب في النفس.

يقول عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ (١) : (... إن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً على نمط واحد ، ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا وكذا ، وقال خالد كذا وكذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً يستطاب لما قد تكرر القول مراراً) (٢) .

ويذكر الفخر الأثر الذى تبعثه الجملة الاستفهامية حين تأتي خبراً ، يقول في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ (٣) : (لما قال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ كان كأنه يريد أن يأتي بالخبر فسكت عنه ثم قال في نفسه إن السكوت قد يوهم أنه لظهور حال الخبر كما يسكت على زيد في جواب من جاء ؟ فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ ممتحناً زاعماً أنه لا يفهم ليكون ذلك دليلاً على أن سكوته على المبتدأ لم يكن لظهور الأمر بل لخفائه وغرابته) (٤) .

وهكذا كان عبد القاهر يرجع إلى النفس ويرصد ما يجده فيها من إحساس بالنوع الذى يتناوله ، وهو في ذلك يتتبع حركتها وهي تتلقى هذا الأسلوب البلاغي .

---

(١) سورة لقمان : من الآية ١٠ .

(٢) التفسير : ٢٥/١٤٤-١٤٥ م١٣ .

(٣) سورة الواقعة : ٨ .

(٤) التفسير : ٢٩/١٤٥ م١٥ .

فمثلاً في باب الاستفهام يذكر ما يثيره الاستفهام الإنكارى في النفس يقول : (واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار ، فإن الذى هو محض المعنى : أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيى بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه ، فإذا ثبت على دعواه قيل له " فافعل " فيفضحه ذلك ، وإما لأنه همّ بأن يفعل ما لا يستصوب فعله ، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ).(١)

وغيره كثير يشيع في كتابه ، ويظهر بوضوح .

وقد اهتم الفخر بذكر مثل هذه التأثيرات لهذه الأساليب في تفسيره دون كتابه (نهاية الإيجاز) الذى كان تبويباً وتقعيداً لمسائل عبد القاهر .

---

(١) الدلائل : ١١٩ - ١٢٠ .

وهناك بعض المسائل البلاغية تعود في أصولها إلى عبد القاهر لكن يبدو أن الفخر قد أخذها من الزمخشري ولم يأخذها من عبد القاهر مباشرة.

كدلالة تعريف الخبر على القصر، وقد ذكرها كثيراً في التفسير يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ (١) : (ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه، فإنك إذا قلت : زيد هو العالم، يفيد أنه لا عالم غيره) (٢).

ويقول عبد القاهر في الخبر المعرف بالألف واللام : (أن تقصر جنس المعنى الذي تفيده بالخبر على المخبر عنه، لا على معنى المبالغة، وترك الاعتداد بوجوده في غير المخبر عنه، بل على دعوى لا يوجد إلا منه) (٣).

كذلك يذكر الفخر دلالة تعريف الخبر على الكمال في الصفة وهي ما ذكره عبد القاهر، يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) : (أي هم الكاملون في الظلم البالغون المبلغ العظيم فيه، كما يقال العلماء هم المتكلمون، أي هم الكاملون في العلم فكذا ههنا) (٥).

ويقول عبد القاهر : (أن تقصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك : " زيد هو الجواد " و" عمرو هو الشجاع " تريد أنه الكامل، إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه) (٦).

---

(١) سورة الكوثر : ٣.

(٢) التفسير : ١٣٣/٣٢ م١٦.

(٣) دلائل الإعجاز : ١٨٠.

(٤) سورة البقرة : من الآية ٢٥٤.

(٥) التفسير : ٢٢٤/٦ م٣.

(٦) دلائل الإعجاز : ١٧٩.

ب ـ تأثر الفخر بالزمخشـــــــرى

أول ما يلفت انتباه الباحث عن النواحي البلاغية في تفسير الفخـــر الرازى كثرة نقولاته عن الزمخشرى ، على الرغم من اختلاف مذهبيهما ، فالزمخشرى يدافع عن عقائد المعتزلة ، والرازى يهاجمها وينتصر لأهل السنة والجماعة ، ولم يقتصر اهتمامه على نظرات ودقائق اللغة والبلاغة ، بل نقل عنه كثيراً مـــن دقائق التفسير ، وفند كثيراً من مسائل مذهبه الاعتزالي .

وقد لاحظت أن آثار الزمخشرى البلاغية واضحة في كثير من أبـــواب المعاني عند الفخر في تفسيره ، فهو يأخذ عنه ويقتفي أثره .

ويتنوع هذا الأخذ ، لأن الفخر لم يكن ينقل عنه كيفما اتفق لـــه ، بل كان حريصاً على أخذ ما يوافق رأيه ويقتنع به (١) ، وقد تتبعت هـــذا الأخذ فوجدته أنواعاً :

---

(١) كان الفخر يثنى على الزمخشرى عندما يروقه ويعجبه كلامه ، ويصفه بالجهل عندما لا يعجبه ، كأن يخوض في المسائل الاعتزالية .
فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ سورة غافر : ٧ يذكر الفائدة في قوله تعالى ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بعد الحمد والتسبيح في أن الله سبحانه لو كان حاضراً بالعرش لكان حملة العرش يشاهدونه ، ولما كان إيمانهم موجباً للمدح ، ولما لم يكن ذلك واقعاً فقد ذكر الله إيمانهم على سبيل المدح والثناء يقول الفخر بعد هذا : (ورحم الله صاحب الكشاف فلو لم يحصل في كتابه إلا هذه النكتة لكفاه فخراً وشرفاً) . التفسير : ٣٤/٢٧ م١٤ .
ولعل سر ثناء الفخر عليه أنه رد على المجسمة .
ويقول في موضع آخر ذاماً له عند تفسير قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ... ﴾ سورة آل عمران : ١٨ : (ولقد خاض صاحب الكشاف ههنا في التعصب للاعتزال وزعم أن الآية دالة على أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وكان ذلك المسكين بعيداً عن معرفة هذه الأشياء ، إلا أنه فضولي كثير الخوض فيما لا يعرف . فهذا المسكين ما شم رائحة العلم من أين وجد ذلك) . التفسير : ٢٢٣/٨ م٤ .

١ - نقل الفخر كثيراً من الأسرار والنكات البلاغية التي في الكشاف نقلاً حرفياً مفصلاً قد لاحظت -كما قلت سابقاً- أن أقوال الزمخشري تسري في كل باب من أبواب المعاني ،وهي نوعان :

نوع يشير فيه إلى أنه من قول صاحب الكشاف ،وآخر لا يشير إلى أنه من قول الزمخشري ، وهذا يمثل أكثر ما في التفسير .

وكثيراً ما كنت أظن أن هذا الرأي للفخر ،وعند البحث والتحقيق أجد أنه للزمخشري ،لذلك فقد حرصت على مراجعة كل قول بلاغي للفخر في تفسير الزمخشري حتى أميز ما هو للفخر وما هو للزمخشري .

ومن هذا النوع ذكره لسر التكرار والعطف في قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) يقول الفخر : (في تكرير ﴿أُوْلَئِكَ﴾ تنبيه على أنهم كما ثبت لهم الاختصاص بالهدى ثبت لهم الاختصاص بالفلاح أيضاً ، فقد تميزوا عن غيرهم بهذين الاختصاصين . فإن قيل : فلم جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله : ﴿أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢) ؟ قلنا : قد اختلف الخبران هنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمت فإنهما متفقان ،لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالبهائم شيء واحد ،وكانت الجملة الثانية مقررة لما في الأولى فهي من العطف بمعزل) (٣).

فهو ينسب القول لنفسه بدلالة قوله (قلنا) مع أنه للزمخشري (٤).

---

(١) سورة البقرة : ٥ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية : ١٧٩ .

(٣) التفسير : ٢/ ٣٨ م١ .

(٤) ينظر الكشاف : ١/ ١٤٦ .

وكان أحياناً ينقل صفحات كاملة عنه ، ويظهر ذلك بوضوح عند تفسيره لأول سورة البقرة، حتى إنه يخيل إلينا أننا أمام تفسير الزمخشري . ارجع إلى آية : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾(١) نجد أن الفخر نقل ما يتعلق بأسرار نظم هذه الآية من الكشاف(٢) ، وغيره كثير في التفسير .

٢ - وقد يشرح فكرته ويفصل ما يجمله ، رغبة في بيانها وتوضيحها .

فمثلاً يقول الزمخشري في الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾(٣) : (وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها أحد)(٤) .

ويتناول الفخر هذا القول فيشرح معنى التعجب ويقول : (أما قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، فإن كان ذلك على وجه الاستفهام فهو خذلان ، لأنه قد عرف منه ما تكرر منه من وعظه وتنبيهه على الدلالة ، وهو يفيد أنه راغب عن ذلك أشد رغبة فما فائدة هذا القول ، وإن كان ذلك على سبيل التعجب فأى تعجب فى الإعراض عن حجة لا فائدة فيها ، وإنما التعجب كله من الإقدام على عبادتها ، فإن الدليل الذى ذكره إبراهيم عليه السلام كما أنه يبطل جواز عبادتها فهو يفيد التعجب من أن العاقل كيف يرضى بعبادتها ، فكأن أباه قابل ذلك التعجب الظاهر المبني على الدليل بتعجب فاسد غير مبني على دليل وشبهه ، ولا شك أن هذا التعجب جدير بأن يتعجب منه)(٥) .

---

(١) سورة البقرة : ١٩ .

(٢) ينظر الكشاف : ١/٢٢٤ .

(٣) سورة مريم : ٤٦ .

(٤) الكشاف : ٢/٥١١ .

(٥) التفسير : ٢١/٢٢٨-٢٢٩ م١١ .

ويذكر الزمخشري أن ضمير الفصل في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) يفيد أن المسند ثابت للمسند إليه دون غيره ، ويأتي الفخر ويشرح معنى كلامه ويدعمه بالأمثلة.

يقول الزمخشري : (و " هُمْ " فصل وفائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره) (٢) .

ويقول الفخر : (" هُمْ " فصل وله فائدتان ، إحداهما : الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، وثانيتهما : حصر الخبر في المبتدأ ، فإنك لو قلت : الإنسان ضاحك ، فهذا لا يفيد أن الضاحكية لا تحصل إلا في الإنسان ، أما لو قلت : الإنسان هو الضاحك ، فهذا يفيد أن الضاحكية لا تحصل إلا في الإنسان) (٣) .

فهو يسميه قصراً ، ويشرح دلالته ، بينما أجمله الزمخشري فقال : (المسند ثابت للمسند إليه دون غيره) .

٣ - وقد يذكر الفخر السر البلاغي الذي يراه الزمخشري ، ثم يضيف إليه سراً آخراً يستنبطه من الآية .

فمثلاً يذكر وجهين لتقديم المفعول عن فعله : الأول للزمخشري والآخر له في قوله تعالى : ﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (٤) ، يقول :

---

(١) سورة البقرة : ٥ .

(٢) الكشاف : ١/١٤٦ .

(٣) التفسير : ٢/٣٨ م١ .

(٤) سورة البقرة : من الآية ٨٧ .

أحدهما : أن يراد الحال الماضية؛لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس ...

الثاني : أن يراد فريقا تقتلونهم بعد ، لأنكم حاولتم قتل محمد صلى الله عليه وسلم لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة).(١)

وأرى أن ما ذكره الزمخشري أقوى في الإشارة إلى المعنى ؛لأنه فهم من الفعل المضارع دلالته على تجسيد الحدث الماضي واستحضاره وكأنه يحدث أمام الأعين. أما الفخر في الوجه الثاني فقد فهم من الفعل المضارع دلالته على الاستقبال فقط . ولذلك قال : (إن يراد فريقا تقتلونهم بعد) .

ويبين الفخر سر مجيء كلمة :"سيق" في جانب المؤمنين وسوقهم إلى الجنة في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً .. ﴾(٢) فيرجع ذلك إلى أربعة أوجه : أحدها للزمخشري والباقية له.

يقول : (فإن قيل السوق في أهل النار معقول ... وأما أهل الثواب فإذا أمروا بالذهاب إلى موضع الكرامة والراحة والسعادة فأي حاجة فيه إلى السوق ؟ والجواب من وجوه :

الأول : أن المحبة والصداقة باقية بين المتقين يوم القيامة .. فإذا قيل لواحد منهم : اذهب إلى الجنة ،فيقول : لا أدخلها حتى يدخلها أحبائي وأصدقائي فيتأخرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة.

---

(١) التفسير : ٣ / ١٩١ م٢.

(٢) سورة الزمر : من الآية ٧٣.

والثاني : أن الذين اتقوا ربهم قد عبدوا الله تعالى لا للجنة ولا للنار ، فتصير شدة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال والجمال ... فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنة.

والثالث : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أكثر أهل الجنة البله وعليون الأبرار) (١) فلهذا السبب يساقون إلى الجنة.

والرابع : أن أهل الجنة وأهل النار يساقون إلا أن المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف ... والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم ؛لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين .. والمراد بذلك السوق إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان) (٢).

والوجه الرابع هو للزمخشري (٣) ، وهو الذى أخذ به كثير من المفسرين كالبيضاوي (٤) وأبي السعود (٥) وأبي حيان (٦) والألوسي (٧).

وقد يجمل الفخر ما يأخذه عن الزمخشري وجهاً من أربعة وجوه يذكرها في فوائد الالتفات في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٨).

---

(١) سند الحديث : (حدثنا سلامة بن روح عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أكثر أهل الجنة البله".
والحديث ضعيف لقول ابن عدى : (وهذا الحديث بهذا الإسناد منكر لم يروه عن عقيل غير سلامة هذا).
الكامل في ضعفاء الحديث ، الإمام الحافظ أبو أحمد عبد الله بن عدى الجرجاني : ٣/١١٦٠.

(٢) التفسير : ٢٣/٢٧ م١٤. (٣) ينظر الكشاف : ٣/٤١١.

(٤) أنوار التنزيل : ٤/٣٣. (٥) إرشاد العقل السليم : ٧/٢٦٤.

(٦) البحر المحيط : ٧/٤٤٣. (٧) روح المعاني : ٢٤/٣٣.

(٨) سورة البقرة : ٢١.

يقول : (إن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة ، أعني المؤمنين والكفار والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب ، وهو من باب الالتفات المذكور في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وفيه فوائد :

أحدها : أن فيه مزيد هز وتحريك للسامع ، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث : إن فلاناً من قصته كيت وكيت ، ثم تخاطب ذلك الثالث فقلت : يا فلان من حقك أن تسلك الطريقة الحميدة . . . فهذا الانتقال من الغيبة إلى الحضور يوجب مزيد تحريك لذلك الثالث .

وثانيها : كأنه سبحانه وتعالى يقول : جعلت الرسول واسطة بيني وبينك أولاً ، ثم الآن أزيد في إكرامك وتقريبك ، فأخاطبك من غير واسطة ، ليحصل لك مع التنبيه على الأدلة شرف المخاطبة والمكالمة .

وثالثها : أنه مشعر بأن العبد إذا كان مشتغلاً بالعبودية ، فإنه يكون أبداً في الترقي .

ورابعها : أن الآيات المتقدمة كانت في حكاية أحوالهم ، وأما هذه الآيات فإنها أمر وتكليف ، ففيه كلفة ومشقة فلا بد من راحة تقابل هذه الكلفة ، وتلك الراحة هي أن يرفع ملك الملوك الواسطة من البين ويخاطبهم بذاته) (١) فالوجه الأول للزمخشري وما عداه من استنباطات الفخر .

وقد يرد الزمخشري سبب الحذف إلى دلالة ما قبله ، لكن الفخر يرى أن هناك سراً بلاغياً يكمن وراء الحذف .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا . . ﴾ (٢)

---

(١) التفسير : ٢/ ٩٠ م ١ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٤٤ .

(فإن قلت : هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا ربنا ؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه) [١] .

ويقول الفخر في بيان السبب : (قوله : ﴿ مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً ﴾ يدل على أنه تعالى خاطبهم بهذا الوعد ، وكونهم مخاطبين من قبل الله تعالى بهذا الوعد يوجب مزيد التشريف ، ومزيد التشريف لائق بحال المؤمنين ، أما الكافر فهو ليس أهلاً لأن يخاطبه الله تعالى ، فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى أنه خاطبهم بهذا الخطاب بل ذكر تعالى أنه بين هذا الحكم) [٢] .

وربما لا يضيف الفخر إلى قول الزمخشري ، إنما يستحسن ما يذهب إليه ، ويبين فضل الطريقة التي اتبعها .

يقول في قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ [٣] : (هلا قيل طاهرة ؟ الجواب في المطهرة إشعار بأن مطهراً طهرهن وليس ذلك إلا لله تعالى) [٤] هذا الكلام ذكره الزمخشري [٥] ، وقد أضاف الفخر إليه فقال : (وذلك يفيد فخامة أمر أهل الثواب ، كأنه قيل إن الله تعالى هو الذي زينهن لأهل الثواب) .

كذلك يبين فائدة عود الضمير على المتقدم الذي ذكره الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [٦] يقول الزمخشري : (والضمير في ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ ضمير مبهم و ﴿ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ تفسيره كقولهم : ربه رجلاً) [٧] .

---

(١) الكشاف : ٢ / ٨٠ .

(٢) التفسير : ١٤ / ٨٩ م٧ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٥ .

(٤) التفسير : ٢ / ١٤٢ .

(٥) ينظر الكشاف : ١ / ٢٦٢ .

(٦) سورة البقرة : من الآية ٢٩ .

(٧) الكشاف : ١ / ٢٧٠ .

ويذكر الفخر هذا القول ويضيف إليه : (وفائدته أن المبهم إذا تبين كان أفخم وأعظم من أن يبين أولاً ،لأنه إذا أبهم تشوفت النفوس إلى الاطلاع عليه،وفي إبيان بعد ذلك شفاء لها بعد التشوف) .(١)

فإن كان الزمخشري قد بين موقع الضمير ومابعده من حيث الناحية النحوية فالفخر قد بين فائدته البلاغية وأثره على النفس ،ومثل هذا كثير في التفسير .

٤ - وفي قليل من الأحيان كان الفخر يعترض على الزمخشري في بعض النكات البلاغية كاعتراضه عليه حين ذكر أن الأجدر أن يأتي الشرط (بإنْ) لا (بإذا) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ﴾(٢) حيث يقول : (وحقه أن يجيء بإنْ لا بإذا كقوله : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ .(٣)

ويرد عليه الفخر بقوله : (واعلم أن هذا الكلام كأنه طعن في لفظ القرآن ،وهو ضعيف،لأن كل واحد من (إنْ) و (إذَا) حرف الشرط، إلا أن حرف (إنْ) لا يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ،فلا يقال إن طلعت الشمس أكرمتك ،أما حرف إذا فإنه يستعمل فيما يكون معلوم الوقوع ..فهنا لما كان الله تعالى عالماً بأنه سيجيء وقت يبدل الله فيه أولئك الكفرة بأمثالهم في الخلقة وأضدادهم في الطاعة ،لا جرم حسن استعمال حرف "إذَا") .(٤)

فالفخر قد رأى جراءة الزمخشري على القرآن ،ثم ضعف ما رآه من وجه لا يناسب الأدب مع كلام الله .

---

(١) التفسير : ٢/ ١٧٠ م١٠ .

(٢) سورة الإنسان : من الآية ٢٨ .

(٣) سورة محمد : من الآية ٣٨ . الكشاف : ٤/ ٢٠١ .

(٤) التفسير : ٣٠/ ٢٦١ م١٥ .

٥ - وفي أغلب الأحوال كان الفخر يلتقط القاعدة البلاغية من الكشاف ، ثم يطبقها على كثير من الآيات. وسأكتفي في بيان ذلك ببعض الأمثلة ،لأنني حرصت على بيان ما كان أساسه للزمخشري أثناء البحث في أبواب المعاني .

فمثلاً ،يربط الزمخشري في تفسيره بين الإعراب والنظم ،لأنه يقصد بالنظم البحث عن العلاقة الإعرابية بين الكلمات في الآية.(١)

من ذلك أنه يقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.(٢)
: (فإن قلت : أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم ؟ قلت : الواو الأولى عاطفة لـ "كَفَرْتُم" على فعل الشرط . . . وكذلك الواو الأخرى عاطفة لـ " اسْتَكْبَرْتُمْ " على " شَهِدَ شَاهِدٌ " وأما الواو في "وَشَهِدَ شَاهِدٌ" فقد عطفت جملة قوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ . . . ﴾ على جملة قوله : ﴿ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ ﴾ ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني . . .).(٣)

وحرص الفخر على بيان العلاقة الإعرابية في كثير من الآيات ،وسماها نظماً - كما ذكرت في مبحث النظم عند الفخر.

وأخذ الفخر عن الزمخشري كثيراً من معاني التنكير ،لأنه ذكر معاني للتنكير قامت عليها دراسة المتأخرين ،واعتمدوا عليه في ذلك اعتماداً كبيراً(٤) ،

---

(١) ينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : ٢٥٧ .
(٢) سورة الأحقاف : من الآية ١٠ .
(٣) الكشاف : ٣/٥١٨ - ٥١٩ .
(٤) ينظر البلاغة القرآنية : ٣١٥ .

والفخر سبقهم إلى هذا الأخذ ،حيث تتردد في تفسيره دلالة النكرة على التعظيم والتبعيض والتفخيم والاختصاص والكمال والقلة.(١)

وقد سار الفخر على هديه أيضاً في بيان المعاني الأدبية لحروف الجر وملاءمتها للسياق ، فمثلاً يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٢) : (فإن قلت:كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت : لأن صاحب الحق كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء ،والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه).(٣)

ويتبعه الفخر في ذلك فيقول في قوله تعالى : ﴿ ... وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾(٤) : (كلمة "عَلَى" تفيد الاستعلاء فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها).(٥)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾(٦): (إنه تعالى ذكر كلمة "عَلَى" حتى يدل على علو منصبهم وفضلهم وشرفهم).(٧)

كذلك يقول في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾(٨) : (قوله : ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ يفيد كونهم مغمورين فيه غائصين ،وقوله في مواضع "على بينة" و "عَلَى هُدًى" إشارة إلى كونهم راكبين متن الطريق المستقيم قادرين عليه).(٩)

---

(١) ينظر مبحث التنكير في هذا البحث .
(٢) سورة سبأ : ٢٤ .
(٣) الكشاف : ٢٨٩/٣ .
(٤) سورة الأنفال : من الآية ١١ .
(٥) التفسير : ١٣٩/١٥ م٨ .
(٦) سورة المائدة : من الآية ٥٤ .
(٧) التفسير : ٢٦/١٢ م٦ .
(٨) سورة يس : من الآية ٤٧ .
(٩) التفسير : ٨٥/٢٦ م١٣ .

وغير ذلك كثير مما حرصت على الإشارة إليه أثناء دراسة أبواب علم المعاني .

واعتبرُ الفخر امتداداً للزمخشرى في الكشف عن الأسرار والدقائق البلاغية للقرآن الكريم ، فهو إما أن يأخذ عنه أو يستلهم منه ،لكن بطريقته الحكمية وعقليته الأصولية التي كان يتمتع بها .

جـ - تأثره بالمفسريـــن

نقل الفخر من المفسرين كثيراً من الآراء التي تتعلق بالوجهة البلاغية. وقد لاحظت أنه يهتم منها بالدرجة الأولى بما يتعلق بنظم الآيات ووجه ترابطها، ومناسبتها لما قبلها، وهي التي اهتم بتحقيقها في كل تفسيره.

ثم يهتم ثانياً بنقل بعض اللطائف البلاغية من هذا التفسيـــر، إما لحسنها أو للرد عليها - كما سنرى إن شاء الله -.

أبو مسلم الأصفهاني (١) ت ٣٢١ :

كان الفخر معجباً بآراء أبي مسلم في التفسير، مع أنه معتزلي المذهب، فيرتضي أقواله التي توافقه، ويذكرها، وقد امتدحه بقوله: (وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الدقائق واللطائف). (٢)

---

(١) اسمه محمد بن بحر الأصفهاني، من أصفهان، معتزلي من كبار الكتاب، كان عالماً بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، له تفسير يسمى (جامع التأويل)، جمع سعيد الأنصاري الهندي نصوصاً منه وردت في (تفسير الفخر الرازي) وسماه (ملتقط جامع التأويل لمحكم التنزيل) في جزء صغير مطبوع. الأعلام، للزركلي: ٦/٥٠.

(٢) ذكر الفخر هذا القول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ سورة آل عمران: ٤١ فقد ذكر أن أبا مسلم قال: إن المعنى أن زكريا لما طلب من الله تعالى آية تدل على حصول العلوق قال: آيتك ألا تكلم ... أي تكون مشتغلاً بالذكر والتسبيح والتهليل معرضاً عن الخلق .. فإن كانت لك حاجة دل عليها بالرمز، فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب) ثم قال الفخر: (وهذا القول عندي حسن معقول، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير ...) التفسير: ٨/٤٤ م٤.

فقد اهتم الفخر بنقل بعض الإشارات البلاغية عنه ، وبخاصة ما يتصل بمناسبة الآيات في السورة الواحدة ، كأن يبين صلة قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) بما قبلها من الآيات.

يقول الفخر : (في كيفية النظم ، قال أبو مسلم : إنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ذكر عقيبه ما يجرى مجرى الدليل العقلي فقال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (٢).

و يحرص الفخر في هذه السورة حرصاً كبيراً على بيان وجه المناسبة بين الآيات مستعيناً بأقوال العلماء كأبي مسلم وغيره.

كذلك يذكر الفخر رأى أبي مسلم في صلة قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ (٣) بقوله تعالى في السورة نفسها : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (٤).

يقول : (قال أبو مسلم إن من قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ إلى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ﴾ خطاب مستأنف فكأنه قال : ويسألونك ولا تعجل بالقرآن) (٥) وينقل عنه بعض معاني الاستفهام لحسن تأويلها وتفرده بها كما في قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤.

(٢) التفسير : ٧/١٣٤ م٤.

(٣) سورة طه : ١٠٥.

(٤) سورة طه : ١١٤.

(٥) التفسير : ٢٢/١٢١-١٢٢ م١١.

(٦) سورة آل عمران : ١٤٢.

يقول الفخر : (قال أبومسلم في : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ إنه نهى وقع بحرف الاستفهام الذى يأتي للتبكيت ،وتلخيصه : لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم يقع منكم الجهاد . . . وعادة العرب يأتون بهذا الجنس من الاستفهام توكيداً)(١).

ولم يعقب الفخر على كلامه كأن يذكر رأيه في معناها أو رأى غيره، وقد رجعت إلى الزمخشري فلم أجده يتعرض لما تدل عليه من معنى ،وهذا يدل على أن الفخر ينقل منه ما حسن من الكلام وما تفرد به.

كذلك ينقل عنه رأيه في معنى الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾(٢) : (قال أبو مسلم قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ وإن كان بصيغة الاستفهام ، إلا أن المقصود منه التقرير في النفس ،ومن عادة العرب في إبهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ، أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره)(٣).

فأبو مسلم هنا يربط معنى الاستفهام بعادة العرب في كلامها ،وهذا ما كان يحرص الفخر على التقاطه من أفواه العلماء ،وسار عليه في أكثر أبوابه ، وذلك بأن يقيس أسلوب القرآن على كلام الناس ،لأنه لا يجوز الفصل بين مصادر التشريع ومنابع اللغة . وهكذا فإن جُلَّ علمائنا الأوائل ربطوا بين القرآن ومذاهب العرب في كلامها .

---

(١) التفسير : ٩/١٩ م٥.

(٢) سورة التوبة : من الآية ١٠٤.

(٣) التفسير : ١٦/١٨٩ م١.

القفال (١) ت ٣٦٥ هـ :

يكثر نقل الفخر من القفال ، ويُطلق لقب القفال في كتب التراجم على ثلاثة من العلماء ، محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وابنه القاسم بن محمد بن علي القفال ، وعبد الله بن أحمد القفال ، وقد رجح استاذى الفاضل الدكتور على العمارى أن يكون المراد بالقفال في التفسير هو محمد بن علي بن اسماعيل (١) المتوفى سنة ٣٦٥ هـ لأن له تفسيرا في القرآن (٢) وقد أثنى عليه الفخر لدقة تأويلاته للآيات القرآنية يقول : (واعلم أن القفال - رحمه الله - كان حسن الكلام في التفسير ، دقيق النظر في تأويلات الألفاظ ، إلا أنه كان عظيم المبالغة في تقرير مذهب المعتزلة، مع أنه كان قليل الحظ من علم الكلام ، قليل النصيب عن معرفة كلام المعتزلة) (٣).

وقد نقل الفخر عنه أوجه نظم كثير من الآيات القرآنية ، والنظم عند الفخر - كما نعلم - معرفة صلة الآيات بما قبلها في المعنى ، وإقامة المناسبة بينها ، مثل أن يبين صلة قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾ (٤) بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن مساعدة الله للمسلمين يوم بدر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥).

يقول : (قال القفال - رحمه الله - يحتمل أن يكون ذلك متصلاً بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالاً جمعوها

---

(١) هو محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي القفال ، أبو بكر ، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب ، عنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده (شاش) . الأعلام ، للزركلي : ٦ / ٢٧٤ .

(٢) ينظر الإمام فخر الدين الرازى : ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) التفسير : ٧ / ١١ م ٤ .

(٤) سورة آل عمران : من الآية ١٣٠ .

(٥) سورة آل عمران : ١٢٣ .

بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعياً للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك) .(١)

وأرى أن وجه الاتصال هذا فيه تكلف لعدم ظهوره واضحاً ، وقد ذكره الفخر ، لأنه ذكر قبل كلامه هذا أن هناك من قال إن آية الربا ابتدائية لا تعلق لها بما قبلها ، وكان الفخر - كما نعلم - يرى أن المناسبة بين كل آية وآية قائم في كل القرآن ، حتى إنه يقول إن القرآن في اتصاله كسورة واحدة .(٢)

و يستحسن الفخر ربط القفال بين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾(٣) بما قبلها من آيات النهي عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتل النفس يقول : (قال القفال - رحمه الله - إنه تعالى لما نهاهم في الآية المتقدمة عن أكل الأموال بالباطل ، وعن قتل النفس أمرهم في هذه الآية بما سهل عليهم ترك هذه المنهيات ، وهو أن يرضى كل أحد بما قسم الله له) .(٤)

و يقف القفال عند آية المداينة(٥) ، ويبين كيف تفرعت آياتها وامتدت لتعبر عن هذا المعنى ، وينقل الفخر عنه هذا فيقول : (قال القفال - رحمه الله تعالى - : والذي يدل على ذلك(٦) أن ألفاظ القرآن جارية في الأكثر على الاختصار ، وفي هذه الآية بسط شديد ، ألا ترى أنه قال : ﴿ إِذَا تَدَايَنتُم

---

(١) التفسير : ٩/٢ م٥ .

(٢) ينظر التفسير : ٩/٣ م٥ .

(٣) سورة النساء : من الآية ٣٢ .

(٤) التفسير : ١٠/٨٢ م٥ .

(٥) سورة البقرة : ٢٨٢ .

(٦) أي على ما قاله الفخر من قبل من أنه تعالى بالغ في الوصية بحفظ المال حتى تتحقق تقوى المؤمن .

بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ * ثم قال ثانياً : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * ثم قال ثالثاً : * وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ * فكان هذا كالتكرار لقوله : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * لأن العدل هو ماعلمه الله ،ثم قال رابعاً : * فَلْيَكْتُبْ * وهذا إعادة الأمر الأول ،ثم قال خامساً : * وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ * وفي قوله : * وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ * كناية عن قوله * وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ * ، لأن الكاتب بالعدل إنما يكتب ما يملى عليه ،ثم قال سادساً : * وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ * وهذا تأكيد ، ثم قال سابعاً : * وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا * فهذا كالمستفاد من قوله : * وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ * ثم قال ثامناً : * وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ * وهو أيضاً تأكيد لما مضى ،ثم قال تاسعاً : * ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا * فذكر هذه الفوائد الثلاثة لتلك التأكيدات السالفة) .(١)

و يعترض عليه حين يذكر أن الفاء سببيه في قوله تعالى : * وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا *(٢) ثم يذكر الوجه الصحيح الذى يرتضيه و يبين علة ذلك يقول : (قال القفال : الوجه في دخول الفاء في بعض ما وقع به القسم والواو في بعض مبنى على الأصل ، وهو أن عند أهل اللغة الفاء تقتضي الوصل والتعلق ،فإذا قيل : قام زيد فذهب ،فالمعنى أنه قام ليذهب ، فكان قيامه سبباً لذهابه ومتصلاً به ،وإذا قيل : قام وذهب فهما خبران كل واحد منهما قائم بنفسه ولا يتعلق بالآخر ، ثم

---

(١) التفسير : ٧/١١٦ م٤ .

(٢) سورة المرسلات : ١-٥ .

إن القفال لما مهد هذا الأصل فرع الكلام عليه في هذه الآية بوجرة (١) لا يميل قلبي إليها ، وأنا أفرع على هذا الأصل فأقول : أما من جعل الأولين صفتين لشيء والثلاثة الأخيرة صفات لشيء واحد فالإشكال عنه زائل ، وأما من جعل الكل صفات لشيء واحد فنقول إن حملناها على الملائكة فالملائكة إذا أرسلت طارت سريعاً ، وذلك الطيران هو العصف ، فالعصف مرتب على الإرسال فلا جرم ذكر الفاء ، أما النشر فلا يترتب على الإرسال ، فإن الملائكة أول ما يبلغون الوحي إلى الرسل لا يصير في الحال ذلك الدين مشهوراً منتشراً ، بل الخلق يؤذون الأنبياء في أول الأمر وينسبونهم إلى الكذب والسحر والجنون ، فلا جرم لم يذكر الفاء التي تفيد التعقيب بل ذكر الواو ، بلى إذا حصل النشر ترتب عليه حصول الفرق بين الحق والباطل وظهور ذلك الحق على الألسنة ، فلا جرم ذكر هذين الأمرين بحرف الفاء) . (٢)

وقد أحسن الفخر كثيراً حين لحظ هذا المعنى للفاء .

القاضي عبد الجبار (٣) ٤١٥ هـ :

من أكبر علماء المعتزلة ، استفاد الفخر من مؤلفاته ، ونقل كثيراً من آرائه كما يبدو ظاهراً في التفسير .

---

(١) لم أعرف معنى هذه الكلمة وماذا يقصد بها ، فرجعت إلى نسخة المطبعة الخيرية فوجدته يقول : (بوجوه لا يميل قلبي إليها) ٨/ ٣١١ المطبعة الخيرية .

(٢) التفسير : ٣٠/ ٢٦٧-٢٦٨ م ١٥ .

(٣) أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمذاني ، قاضي ، أصولي ، كان شيخ المعتزلة في عصره ، لقب بقاضي القضاة ، ولي القضاء بالري ومات فيها ، له كتب كثيرة منها (تنزيه القرآن عن المطاعن) ، و (المغني) و (متشابه القرآن) وغيرها . الأعلام ، الزركلي : ٣/ ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وعنى الفخر بنقل ما يتعلق بنظم الآيات ، وترابط بعضها مع بعض ، فمثلاً يبين مناسبة قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ (١) بما قبلها ، يقول الفخر في كيفية النظم وجوه :

الأول : قال القاضي رحمه الله : إنه تعالى لما أجمل في قوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ﴾ فصل بعد ذلك في هذه الآية تلك الأضعاف ، وإنما ذكر بين الآيتين الأدلة على قدرته بالإحياء والإماتة من حيث لولا ذلك لم يحسن التكليف بالإنفاق) (٢) .

كما ينقل عنه صلة آخر سورة البقرة بما قبلها من الآيات ، والتي حرص الفخر على الكشف عن صلة آياتها بعضها مع بعض ، يقول في قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ﴾ (٣) : (في كيفية النظم قال القاضي إنه تعالى لما أمر بهذه الوثائق أعني الكتبة والأشهاد والرهن فكان المقصود من الأمر بها صيانة الأموال ، والاحتياط في حفظها ، بين الله تعالى إنما المقصود لمنفعة ترجع إلى الخلق ، لا لمنفعة تعود إليه سبحانه منها ، فإنه له ملك السموات والأرض) (٤) ولا يبعد أن يكون الفخر قد تأثر بكل هؤلاء الذين نقل عنهم ، وأقام كلامه في ضرورة مراعاة المناسبة على كلامهم ، ووسعها وطبقها على كل آيات القرآن وجعلها من وجوه إعجازه .

ويذكر الفخر في موضع للتقديم رأى القاضي عبد الجبار قبل رأيه

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦١ .

(٢) التفسير : ٤٧/٧ م٤ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٤ .

(٤) التفسير : ١٣٤/٧ م٤ .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾(١) : (قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ فإن قيل إنزال الكتاب يكون قبل وصول الأمر والنهى إلى المكلفين ، ووصول الأمر والنهى إليهم يكون قبل التبشير والإنذار ، فلم قدم ذكر التبشير والإنذار على إنزال الكتب ؟ أجاب القاضي عنه فقال : لأنّ الوعد والوعيد منهم قبل بيان الشرع ممكن فيما يتصل بالعقليات من المعرفة بالله وترك الظلم ..)(٢).

ثم يذكر رأيه فيقول : (وعندى فيه وجه آخر وهو أن المكلف إنما يتحمل النظر في دلالة المعجز على الصدق ، وفي الفرق بين المعجز إذا خاف أنه لو لم ينظر فربما ترك الحق فيصير مستحقاً للعقاب ، والخوف إنما يقوى ويكمل عند التبشير والإنذار ، فلا جرم وجب تقديم البشارة والنذارة)(٣) وتوجيه القاضي أكثر صلة بالمعنى من توجيه الفخر .

ويبدو تأثره بالقاضي في موضع ذكره في سر تكرار القصص القرآني حيث يقول : (ولما كان وجه الانتفاع بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خالياً من الفائدة)(٤).

ويقول القاضي في كلام طويل نجتزىء منه قوله : (.. إن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة لأغراض تتجدد في المواطن وفي الأحوال)(٥).

وغير ذلك مما أشرت إليه في مباحث علم المعاني .

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢١٣ .

(٢) التفسير : ١٥/٦ م٣ .

(٣) المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٤) التفسير : ١٨/٩-١٠ م٩ ذكرها عند بيان سر تكرار قصة نوح في كل من سورة يونس وسورة هود .

(٥) المغني : ٣٩٧/١٦ .

الواحدى (١) ت ٤٦٨ هـ :

كان الفخر كثير النقل منه والمناقشة له ،وذكر اسم تفسيره (البسيط) في مواضع كثيرة فيقول : (قال الواحدى في البسيط) (٢) ويقول : (والواحدى طول في هذا الباب في كتاب البسيط فليرجع إليه) (٣) .

وقد ناقشه الفخر ورد عليه في كثير من الآراء البلاغية منها وغير البلاغية .

وسأقتصر منها على بعض ما يتعلق بالنواحي البلاغية ،من ذلك أنه رد عليه حين قدر مضمراً للفعل ،واستشهد على ذلك بقول عبد القاهر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٤) فقال : (قال الواحدى -رحمه الله تعالى-: وفيه إضمار ،والمعنى شديد العقاب له ، وأقول بيّن عبد القاهر النحوى في كتاب دلائل الإعجاز أن ترك هذا الإضمار أولى ،وذلك لأنّ المقصود من الآية التخويف بكونه في ذاته موصوفاً بأنه شديد العقاب من غير التفات إلى كونه شديد العقاب لهذا أولذلك) (٥) .

---

(١) أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي ،مفسر ،عالم بالأدب ، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل أصله من ساوه (بين الري وهمذان) ولد ومات بنيسابور من كتبه (البسيط) و(الوسيط) و (الوجيز) كلها في تفسير القرآن . الأعلام ،للزركلي : ٤/٢٥٥ .

(٢) التفسير : ١٩٨/٧ م٤ .

(٣) التفسير : ٥٥/١٣ م٧ .

(٤) سورة البقرة : ٢١١ .

(٥) التفسير : ٤/٦ م٣ .

وهذه القاعدة قد ذكرها عبد القاهر وهو يتحدث عن حذف المفعول فذكر أن هناك من يذكر الفعل دون حاجة إلى مفعول لفظاً وتقديراً (١).

وقد قاس الفخر حذف الموصوف في كلام الواحدى على حذف المفعول به عند عبد القاهر ، لأنه لم يتعرض لحذف الصفة أو الموصوف .

ورد عليه الفخر أيضاً حين قدر مفعولاً به للفعل (يقول : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) وقد ذكرتها سابقاً في أثر عبد القاهر على التفسير .

ولاحظت أن الفخر وإن اهتم بذكر نظرات الواحدى البلاغية ، إلا أنه رأى أنها لا تصل إلى نظرات الزمخشرى لذلك يفضلها على ما يقوله الواحدى .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً .. ﴾ (٣) :

(قال الواحدى - رحمه الله - معنى الآية فإن خفتم عدواً فحذف المفعول لإحاطة العلم به ، قال صاحب الكشاف : فإن كان بكم عدواً أو غيره ، وهذا القول أصح ، لأن هذا الحكم ثابت عند حصول الخوف سواء كان الخوف من العدو أو من غيرة) (٤) .

وهوهنا يبين سر حسن وجه الزمخشرى ، لأنه لم يحدد مفعولاً معيناً ، لأن المقصود الخوف عامة .

وأرى أن سبب استحسانه له أنه اعتبر ما رآه عبد القاهر في الحذف من إثبات الفعل دون نظر إلى تقدير مفعول .

---

(١) ينظر الدلائل : ١٥٤ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٣٩ .

(٤) التفسير : ٦/١٦٥-١٦٦ م ٣ .

ويرد الفخر عليه أيضاً حين ذكر أن (على) جاءت صلة لا عمل لها في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾.(١)

يقول : (قال الواحدى ويشبه أن يكون (على) هنا صلة والمعنى وليربط قلوبكم بالنصر ، وما وقع في تفسيره يشبه أن لا يكون صلة ؛ لأن كلمة (على) تفيد الاستعلاء فالمعنى أن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علا عليها وارتفع فوقها).(٢)

وفي رده هذا اعتمد على قول الزمخشري في أن (على) تفيد الاستعلاء.

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ١١.

(٢) التفسير : ١٥/١٣٨-١٣٩ م٨.

د- تأثر الفخر بالنحـــــاة

استفاد الفخر من آراء بعض النحاة في تدعيم الوجه البلاغي ،كسيبويه مثلاً فقد استشهد بأقواله في مواضع بلاغية عدة فيالتفسير ،كأن يذكر مقولته المشهورة : (إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى) (١) التي وردت في الكتاب ،وذلك في بحث التقديم -كما مر- وحرص الفخر على أن ينسب إليه هذا القول كلما ذكره علة للتقديم.

يقول في سر التقديم في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ ... ﴾ (٢) : (... قال سيبويه إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى ...) (٣).

ومثله قوله في قوله تعالى : ﴿ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (٤) : (ما الحكمة في ترك هذا الترتيب الحقيقي؟، قلنا : الحكمة فيه ما ذكره سيبويه وهو إنهم يقدمون الأهم والذى هم بشأنه أعنى) (٥).

و يستدل بقول سيبويه أيضاً في بيان علة تقديم الظرف على عامله في قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدُ ﴾ (٦) فقد ذكر أن سيبويه يقول : إن الظرف لا يقدم في الكلام العربي الفصيح ،ثم يذكر أنه يأتي في القرآن لعلة بلاغية يقول الفخر : (في الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو

---

(١) الكتاب : ٣٤/١.
(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٠٠.
(٣) التفسير : ١٢٠/١٣ م٧.
(٤) سورة المائدة : من الآية ٧٠.
(٥) التفسير : ٢٣٥/١٥ م٨.
(٦) سورة الاخلاص : ٤.

لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه ، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟ والجواب : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة في ذات الله، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الأهم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم) .(١)

ويذكر الفخر كلام سيبويه في أن الاستفهام يخرج عن أصل معناه كما في النداء ، ويدعم به قول الزمخشري .

يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) : (قال صاحب الكشاف "الهمزة" و "أم" مجردتان لمعنى الاستفهام، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً ، قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء ، كقولهم : اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام ، كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء) .(٣)

كما يظهر تأثره بابن جني - وإن لم يذكر اسمه - في معرفة معنى الكلمة عن طريق تقاليب حروفها ، وقد أكثر من ذلك في التفسير - على حد ما بينت في مبحث الكلمة .

وهناك نحاة نقل منهم الفخر آراء تتعلق بالمعاني كالفراء والزجاج والفارسي ، ولكن لم يكن لهذه الآراء أثر واضح على التطبيق البلاغي في علم المعاني في التفسير . فمثلاً يذكر الفراء أن معنى النفي نهي في قوله تعالى :

---

(١) التفسير : ١٨٤/٣٢ م١٦ .

(٢) سورة البقرة : ٦ .

(٣) التفسير : ٤٦/٢ م١ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (١) ثم يبين الفخر سر مجيء الإنشاء هنا على هيئة الخبر يقول الفخر : (قال الفراء في موضع ﴿ لَا تَعْبُدُونَ ﴾ على النهي ، إلا أنه جاء على لفظ الخبر ، كقوله تعالى : ﴿ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ بالرفع والمعنى على النهي ... إن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي ؛ لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه) (٢).

والفراء يذكر هذا الكلام في كتابه (معاني القرآن) (٣).

ويأخذ من الزجاج ما يتصل من الآيات القرآنية بطرائق العرب في كلامها ، لأنه يعلم أن معرفة أسرار الآيات لا تتكشف إلا بمعرفة أسلوب العرب في التعبير عن المعنى .

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٤) : (قال الزجاج : تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك) (٥).

وينقل عنه أيضاً تأويله للحسرة في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٨٣ .

(٢) التفسير : ٢٧٦/٣ م٢ .

(٣) ينظر : ٥٣/١ .

(٤) سورة الأنعام : ٢٣ .

(٥) التفسير : ١٩٢/١٢ م٦ .

(٦) سورة الأنعام : من الآية ٣١ .

يقول : (قال الزجاج : معنى دعاء الحسرة تنبيه الناس على ما سيحصل لهم من الحسرة ، والعرب تعبر عن تعظيم أمثال هذه الأمور بهذه اللفظة ... وهذا أبلغ من أن يقال الحسرة علينا ..) (١) .

وبذلك نرى الفخر مولعاً بذكر طرائق العرب في كلامهم أثناء شرحه لمسائل البلاغة واستشهاده بها، ثم قياس الآية القرآنية عليها .

وينقل الفخر قول أبي على الفارسي حين ذكر السر في تخالف إعراب الصفات الكثيرة في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ (٢) : (قال أبو علي الفارسي : وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها، ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول ، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل ، لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان) (٣) .

وأخيراً أقول إنما اقتصرت على ذكر هؤلاء دون غيرهم ، لأن تأثيرهم كان بارزاً أثناء دراستي لعلم المعاني ، وأقول إن عقلية العالم لا تحد بعلم أوعالم يتأثر به ، بل تنطلق لتنهل من كل معين حتى تتكوّن نظرته في العلم الواحد ، وقد رأينا أنه تأثر بكثير من العلماء في هذا الباب غير من ذكرت ، كتأثره بالباقلاني في بيان ما اختص به القرآن من وجوه بلاغية لا توجد في كلام العرب .

---

(١) التفسير : ٢٠٨/١٢ م٦ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧٧ .

(٣) التفسير : ٤٨/٥ م٣ .

كما أرى تشابهاً بين أفكاره وأفكار الخطابي في الفروق بين الكلمات ، وأراه ينقل من رشيد الدين الوطواط تعريف الالتفات ،وألحظه أيضاً يرجع السبب في الحذف إلى ما ذهب إليه الرماني من ذهاب الوهم كل مذهب ،وغير ذلك مما يدل على أنه وعى التراث البلاغي للقرآن الكريم ، ثم مزجه بشخصيته الأصولية ،ثم أخرج لنا نظرات بلاغية عليها سيما الفخر الرازي وثقافته الخاصة .

الفصل الثاني

أثر الفخر فيمن بعده

أ – أثره في الدراسات البلاغية •

ب – أثره في كتب التفسير •

جـ – أثره في كتب علوم القرآن •

أ - أثر الفخر في الدراسات البلاغية

هل للتفسير الكبير أثر في الدراسات البلاغية بعده ؟

سؤال ظل يلح عليّ طوال مدة هذه الدراسة ، ولذلك عرضت النظرات البلاغية في التفسير على بعض كتب البلاغة ، لأعرف مدى هذا التأثير .

فتناولت أولاً (مفتاح العلوم) للسكاكي : لأنه يعد من أوائل من تأثروا به ، ذلك أنه التقى به وعرف فضله وحقه ، ومدحه بأبيات بيّن فيها منزلته ، يقول فيها :

اعِلمنْ علماً يَقِينَـا	أنّ رَبَّ العَالَمِينَـا
لَوْ قَضَى فِي عَالِمِهم	خِدْمَةَ لِلأعلَمِينَـا
أَخْدمَ الرازيَ فخراً	خِدْمةَ العَبْدِ بن سِينَا (١)

وهذا يستدعي أن يكون السكاكي قد قرأ كتب الفخر واطلع عليها ، وبالتالي تأثر به ، وتقعيده للبلاغة كان بإيحاء منه .

وكثير من العلماء يرجعون الفضل الأوّل في هذا العمل للسكاكي ، متجاوزين الفخر الرازي ، فمثلاً يقول ابن خلدون : (ثم لم تزل مسائل الفن تكمل شيئاً فشيئاً إلى أن مخض السكاكي زبدته ، ورتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفاً من الترتيب) .(٢)

وكتاب الفخر (نهاية الإيجاز) هو الأساس الذى بنى عليه السكاكي بلاغته في (مفتاح العلوم) .

---

(١) مرآة الجنان ، لليافعي : ٤/٧٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ٥٥٢ .

وبما أن ما في التفسير صدى لما في كتاب (نهاية الإيجاز) فسأحاول هنا أن أتحسس العلاقة بين مفتاح السكاكي وتفسير الفخر ، التي لم تكن لتبدو ظاهرة جلية في مسائل علم المعاني على حد وضوحها في مسائل علم البيان .

ويبدو هذا التقارب بينهما في مسائل أجملها على النحو الآتي :

١ - أنّ السكاكي قد تابع الفخر في جعل الفصاحة من صفات اللفظ فقد قسمها إلى قسمين ، منها ما هو راجع إلى المعنى ، ومنها ما هو راجع إلى اللفظ وذلك في كتابه النهاية ، يقول السكاكي ذاكراً صفات فصاحة آية : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ... ﴾ اللفظية : (وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة من العذبات) .(١)

وأجد ، في التفسير يصف ألفاظ بعض الآيات بالفصاحة يقول في قوله تعالى : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾(٢) : (هذا مع ما في اللفظتين من الفصاحة والجزالة للتنويع)(٣) ويقصد باللفظتين (رزق - يطعمون) وجزالتها يعني قوتها النابعة من توفر شروط الفصاحة من عدم تنافر ، وبشاعة وعذوبة .

٢ - ذكر السكاكي وجوهاً أربعة لإعجاز القرآن وارتضى الخامس وهو القول برأي إعجاز القرآن بفصاحته وبلاغته .

---

(١) المفتاح : ١٧٨ .

(٢) سورة الذاريات : ٥٧ .

(٣) التفسير : ٢٣٥/٢٨ م ١٤

يقول : (... فمنهم من يقول وجه الإعجاز هو أنه عز سلطانه صرف المتحدين لمعارضة القرآن عن الإتيان بمثله .. ومنهم من يقول وجه إعجاز القرآن وروده على أسلوب مبتدأ مباين لأساليب كلامهم... ومنهم من يقول وجه إعجازه سلامته عن التناقض ... فهذه أقوال أربعة يخمسها ما يجده أصحاب الذوق من أن وجه الإعجاز هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة) (١).

وهذه هي الوجوه التي ذكرها الفخر في (نهاية الإيجاز) وفندها كما ذكرها أيضاً في التفسير مع وجوه أخرى وفندها ، وثبت رأيه على أن الإعجاز بالفصاحة.

يقول في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ (٢) : (اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً ، فقال بعضهم هو الفصاحة ، وقال بعضهم هو الأسلوب ، وقال ثالث : هو عدم التناقض ، وقال رابع : هو اشتماله على العلوم الكثيرة ، وقال خامس : هو الصرف ، وقال سادس : هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب ، والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسبب الفصاحة) (٣).

٣ - يذكر السكاكي أغراضاً للحذف شاعت بعده في كتب البلاغة ، وقد رأيت تقارباً بين بعض هذه الأغراض ، وبين عبارات قالها الفخر في أسباب الحذف ، وإن كان هذا التقارب لا يظهر بوضوح وجلاء.

يقول السكاكي في حذف المسند : (والترك راجع إما لضيق المقام وإما للاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر ، وإما لتخييل أن في تركه تعويلاً

---

(١) المفتاح : ٢١٦-٢١٧.
(٢) سورة هود: من الآية ١٣.
(٣) التفسير : ٢٠٣/١٧ م٩.

على شهادة اللفظ ... وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقة كقولك خالق لما يشاء ،فاعل لما يريد ...) [١].

يقول الفخر في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [٢] : (فكان المتكلم في أول الأمر مخبراً ،ثم لم يخبر بشيء ،لأن في الإخبار تطويلاً ، ثم لم يسكت وقال ذلك متحننا زاعماً أنك لا تعرف كنهه ،وذلك لأن من يشرع في كلام ويذكر المبتدأ ،ثم يسكت عن الخبر قد يكون ذلك السكوت لحصول علمه بأن المخاطب قد علم الخبر من غير الخبر ،كما أن قائلاً إذا أراد أن يخبر غيره بأن زيداً وصل ، وقال إن زيداً،ثم قبل قوله جاء وقع بصره على زيد ورآه جالساً عنده يسكت ،ولا يقول جاء لخروج الكلام عن الفائدة ،وقد يسكت عن ذكر الخبر في أول الأمر لعلمه بأن المبتدأ وحده يكفي لمن قال : من جاء ؟ فإنه إن قال : زيد ،يكون جواباً ،وكثيراً ما نقول : زيد ولا نقول :جاء) [٣].

وعبارات السكاكي تحوم حول هذا المعنى خاصة عندما يقول في الحذف تعويل على شهادة العقل ،وفي الذكر تعويل على شهادة اللفظ ، لأن في الحذف إثارة للعقل وتنشيطاً له وبعثاً على البحث عن المحذوف ، فيكون هو الموصل له .

كما أن الفخر كان يذكر أن الحذف للاختصار ،أي للاحتراز عن العبث بناءً على الظاهر عند السكاكي .

---

(١) مفتاح العلوم : ٧٦ .

(٢) سورة الواقعة : ٨ .

(٣) التفسير : ٢٩/ ١٤٥ م١٥ .

٤ - يتبع السكاكي الفخر في بعض المسائل النحوية التي لها صلة بالبلاغة .

من ذلك أن سيبويه و بعض النحويين (١) يجيزون عطف الجملة الخبرية على الجملة الإنشائية .

لكن الفخر يمنعه مطلقاً متبعاً في ذلك رأى الجمهور فيقدر العطف حين يحصل بين الخبر والإنشاء .

فيقول في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) : (إنه لقائل أن يقول : ﴿ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ خبر وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أمر ، وعطف الأمر على الخبر لا يجوز ، جوابه التقدير : قل أمر ربي بالقسط وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد) (٣) .

ويذكر السكاكي آيات كثيرة عطف فيها الخبر على الإنشاء و يقدر هذا العطف متبعاً في ذلك الرأى الذى سار عليه الفخر في التفسير ، يقول : (وأما الحالة المقتضية للتوسط بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع ، فهي إن اختلفا خبراً وطلباً أن يكون المقام مشتملاً على ما يزيل الاختلاف من تضمين الخبر معنى الطلب أو الطلب معنى الخبر ومشركاً بينهما في جهات جامعة) (٤) .

ومن الآيات التي يذكرها ويؤولها قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَأَلْقِ عَصَاكَ . . ﴾ (٥) يقول : (فإن الكلام مشتمل

---

(١) ينظر مغني اللبيب : ٢/٤٨٢ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ٢٩ .

(٣) التفسير : ١٤/٦١ م٧ .

(٤) مفتاح العلوم : ١١٢ .

(٥) سورة النمل : ٨-٩ ومن الآية ١٠ .

على تضمين الطلب معنى الخبر ، وذلك أن قوله : "وَأَلْقِ عَصَاكَ" معطوف على قوله : "أَن بُورِكَ" ، والمعنى : فلما جاءها قيل : بورك وقيل: ألق عصاك) (١).

٥ - ويقبح النحاة عطف الجملة الاسمية على الجملة الفعلية ، لكن السكاكي يستحسن هذا العطف إذا وجد سر بلاغي خولف من أجله نسق الجملتين المعطوفتين متبعاً في ذلك الفخر.

يقول السكاكي : (واعلم أن الوصل من محسناته أن تكون الجملتان متناسبتين ككونهما اسميتين أو فعليتين وما شاكل ذلك ، فإذا كان المراد من الإخبار مجرد نسبة الخبر إلى المخبر عنه من غير التعرض لقيد زائد كالتجدد والثبوت وغير ذلك لزم أن تراعى ذلك ، فتقول قام زيد وقعد عمرو ، أو زيد قام وعمرو قاعد ، وكذا زيد قام وعمرو قعد ، وأن لا تقول قام زيد وعمرو قاعد ، وكذا قام زيد وعمرو قعد . . . أما إذا أريد التجدد في إحداهما والثبوت في الأخرى كما إذا كان زيد وعمرو قاعدين ، ثم قام زيد دون عمرو وجب أن تقول قام زيد وعمرو قاعد بعد ، وعليه قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٢).

وهذا ما أورده الفخر في مواضع متعددة من التفسير - على حد ما رأينا في باب الفصل والوصل - ، فمثلاً يقول في قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾ (٣) : (واعلم أنه ثبت أن عطف الجملة الاسمية على الفعلية لا يجوز إلا لفائدة وحكمة) (٤) ثم بين أن فائدة هذا العطف يكون عندما يراد بالجملة الفعلية دلالتها على التجدد والحدوث ، والجملة الاسمية في دلالتها على الاستمرار والدوام.

---

(١) مفتاح العلوم : ١١٣.

(٢) المصدر السابق : ١١٨.

(٣) سورة الأعراف : من الآية ١٩٣.

(٤) التفسير : ٩٦/١٥ م٨.

فتأثر السكاكي بمذهب الفخر بيد وهنا واضحاً .

ويكثر خلط السكاكي بين المسائل النحوية والمسائل البلاغية في كتابه مما لا نجده في كتب البلاغة السابقة له .

ولا يبعد تأثره في ذلك بالزمخشرى والفخر الرازى في تفسيرهما فقد حرص الفخر على أن يخرج الآية نحوياً ثم يذكر العلة البلاغية - كما رأيناه - في بعض الأبواب .

٦ - مزج السكاكي بين البلاغة والأصول في دراسة المسائل البلاغية متبعاً في ذلك الفخر الذى يعد أول من درس البلاغة دراسة أصولية وربط بينهما ، فيذكر العموم والخصوص ، والإجمال والتفصيل، ودليل الخطاب، والإطلاق والتقييد .

وكل هذه المصطلحات أصولية تتردد كثيراً في تفسير الفخر ، يقول السكاكي : (ولإفادة التقديم عندهم التخصيص تراهم يفرعون على التقديم ما يفرعون على نفس التخصيص ، فكما إذا قيل ما ضربت أكبر أخويك فيذهبون إلى أنه ينبغي أن يكون ضارباً للأصغر بدليل الخطاب) (١) .

ويتردد مصطلح دليل الخطاب في عدة مسائل بلاغية في التفسير فيذكره وهو يتحدث عما يفيده لفظ العموم (كُل) حين ينصب أو يرفع يقول : (واعلم أن للشيخ عبد القاهر في هذا الباب كلاماً حسناً ، قال : إن المعنى في هذا البيت يتفاوت بسبب النصب والرفع ، وذلك لأن النصب يفيد أنه ما فعل كل الذنوب ، وهذا لا ينافي كونه فاعلاً لبعض الذنوب . . . بل عند من يقول بأن دليل الخطاب حجة يكون ذلك اعترافاً بأنه فعل بعض الذنوب...) (٢) .

---

(١) المفتاح : ١٠١ .
(٢) التفسير : ٢٢١/٢٩ م١٥ .

٧ - وترددت عند السكاكي عبارات (علماء علم المعاني)(١) (أذهان الراضة من علماء المعاني)(٢) ولكن لم يحدد من هم علماء المعاني ؟ على غرار ما فعل الفخر في تفسيره، فقد كان يقف كثيراً عند علماء المعاني ويذكر أقوالهم، وأظن - كما قلت سابقاً - أن المراد بهم المتخصصون في دقائق معاني القرآن، الذين يغوصون في الكشف عنها.(٣)

٨ - أكثر السكاكي من الحدود والتعريفات والتقسيمات والتسبيبات والتعليلات، وبناء العبارات بناءً منطقياً، وهذا ما كان يجرى في التفسير وإن كان لا يحرص فيه كثيراً على ذكر الحدود والتعريفات، لكنه كان كثيراً ما يثبت القاعدة بمقدمة ثم يبنى عليها نتائج وتفريعات، كما أنه كان يكثر من ذكر التسببات والتعليلات في الوجوه البلاغية. وهكذا يظهر أثر التفسير في المفتاح.

---

(١)، (٢) المفتاح : ٩٥ - ١١٩.
(٣) ينظر مبحث النظم في هذا البحث.

سأتناول ثانياً كتاب (المطول) لسعد الدين التفتازاني أبين فيه أثر تفسير الفخر فأقول : ألف هذا الكتاب سعد الدين شرحاً لمتن (التلخيص) للخطيب القزويني ،الملخص لبلاغة السكاكي ،فناقش وحلل واعترض بطريقة منطقية ،واستفاد في ذلك من كتب كثيرة ذكرها في أول كتابه بطريقة التورية المعروفة في عصره ،وليس منها أى كتاب من كتب الفخر يقول :

(فإن أحق الفضائل بالتقديم ،وأسبقها في استيجاب التعظيم هو التحلي بحقائق العلوم والمعارف ،والتصدى للإحاطة بما في الصناعات من الكتب واللطائف ،لا سيما علم البيان ،المطلع على نكت نظم القرآن ،فإنه كشاف عن حقائق التنزيل رائق ،مفتاح لدقائق التأويل فائق ، تبيان لدلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، إيضاح لمعالم الإيجاز وآثار الفصاحة،تلخيص لغوامض مشكل كتاب الله تعالى و معضله ،تقريب للغوص على فرائد مجملة ومفصلة ،قواعده كافية في ضوء المصباح إلى أنوار التأويل ..).(١)

و قد وجدت اتفاقاً بين بعض ما ذكره الفخر وما ذكره سعد الدين من مسائل في المعاني ، لا استبعد تأثره فيها بالفخر وإن كان بطريق غير مباشر .

١ - استدرك سعد الدين على عبد القاهر في تعميمه لقاعدة (كُلّ) حين يتفاوت إعرابها ، في حالة الإثبات وحالة النفي في قوله :

(إذا تأملنا وجدنا إعمال الفعل في "كل" والفعل منفي لا يصلح أن يكون إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن) (٢) وقوله في حالة الإثبات

---

(١) المطول : ٢ .

(٢) دلائل الإعجاز : ٢٧٨ .

(واعلم أنك إذا نظرت وجدت الإثبات كالنفي فيما ذكرت لك)(١).

فقد رأى سعد الدين أن هذه القاعدة غير مطردة ، ولا تنسحب على كل الأساليب العربية ، وأنه حكم أكثرى لا كلي .

فقال : (إن كانت "كُلّ" في المعنى مفعولاً للفعل أو الوصف المحمول عليها أو العامل فيها نحو : ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ولم آخذ كل الدراهم ، ونحوما كل الدراهم آخذها أنا ، وما آخذ أنا كل الدراهم فيفيد تعلق إدراك المرء ببعض متمنياته ، وتعلق الأخذ ببعض الدراهم بدليل الخطاب وشهادة الذوق والاستعمال ، وقال الشيخ : إذا تأملنا وجدنا إدخال "كل" في حيز النفي لا يصلح إلا حيث يراد أن بعضاً كان وبعضاً لم يكن ، وفيه نظر ، لأنا نجده حيث لا يصلح أن يتعلق الفعل ببعض كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ فالحق أن هذا الحكم أكثرى لا كلي)(٢).

وقد سبق الفخر سعد الدين إلى إدراك أن هذه القاعدة ليست كلية فهو يقول في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ : (وقد يكون تفاوت الإعراب في هذا الباب بحيث لا يوجب تفاوت المعنى كقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ ﴾ فإنك سواء قرأت "والقمر" بالرفع أو بالنصب فإن المعنى واحد ، فكذا في هذه الآية سواء قرأت : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ أو قرأت : ﴿ وَكُلٌّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فإن المعنى واحد غير متفاوت)(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٧٨.

(٢) المطول : ١٢٥.

(٣) التفسير : ٢٢١/٢٩ م١٥.

٢ - ويسمى سعد الدين خروج الاستفهام إلى غير معناه الحقيقي معنى مجازياً، متبعاً في ذلك الفخر الذى يعد - حسب علمي واستقصائي - أول من سماه بهذا الاسم.

يقول سعد الدين: (ثم إن هذه الكلمات الاستفهامية كثيراً ما تستعمل في غير الاستفهام مما يناسب المقام بمعونة القرائن، وتحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله)(١).

وقد ذكر الفخر بعد تسميته هذه العلاقات مجازاً ذكر أن العلاقة هي علاقة المشابهة وهذا مما لم يلتفت إليه سعد الدين. يقول في قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾(٢): ("ما" لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها، تقول ما الملك ؟ وما الروح ؟ وما الجن ؟، والمراد طلب ماهياتها، وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولاً، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ "ما" وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه، والمشابهة إحدى أسباب المجاز)(٣).

٣ - يوافق سعد الدين رأى الجمهور ومنهم الفخر في الالتفات من أنهم يشترطون التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة: التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر من الطرق الثلاثة، بشرط أن يكون التعبير الثاني على خلاف مقتضى الظاهر، وإن كان السكاكي لا يشترط سبق التعبير عنه بطريق آخر.

وطريقة السعد هي طريقة الفخر الذى حرص على تطبيقها في التفسير، فقد سمى أى نوع من أنواع الانتقال في الأسلوب التفاتاً - كما بينت في مبحث الالتفات -.

---

(١) المطول: ٢٣٥.

(٢) سورة النبأ: ١-٢.

(٣) التفسير: ٣١/٣-٤ م١٦.

ب - أثره في كتب التفسير

لا تكاد تخلو كتب التفسير بعد الفخر من أخذ لآرائه وأقواله بما في ذلك النظرات البلاغية ، فقد كان لها الحظ الوافر من هذا الأخذ . وتتنوع طريقة هذا التأثير وتختلف من مفسر إلى آخر.

وسأكتفي بعرض ثلاثة تفاسير يظهر فيها أثر الفخر.

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (١) ت ٦٨٥ هـ :

يتسم تفسيره بالاختصار ،أخذ من الكشاف كثيراً من المسائل ، وترك مافيه من اعتزال ، كما أنه استمد بعض النكات البلاغية من تفسير الفخر ، وأخذ منه بعض المباحث التي تتصل بالكون والطبيعيات ،وقد ذكر في مقدمة تفسيره أنه يحتوى على نكات رائعة ،منها ما استنبطها بنفسه ،ومنها ما أخذها ممن قبله .

ومما أخذه من الفخر فيما يتعلق بعلم المعاني :

فهو قد يضيف إلى ما قاله الفخر من علة للالتفات في قوله تعالى :

* لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * (٢).

يقول الفخر : (هلا قيل لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقلتم ،فلم عدل عن الخطاب إلى الغيبة ... ؟ الجواب : ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات)(٣).

---

(١) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي ،ناصر الدين البيضاوي ، قاضي ،مفسر ،علّامة ،ولد بالمدينة البيضاء بفارس ،رحل إلى تبريز وتوفي فيها . من تصانيفه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ،ويعرف بتفسير البيضاوي وله كتب كثيرة منها المطبوع و منها المخطوط .
الأعلام ، الزركلي : ٤/ ١١٠ .

(٢) سورة النور : ١٢ .

(٣) التفسير الكبير : ٢٣/ ١٧٨ م ١٢ .

ويقول البيضاوي فيها : (وإنما عدل فيه من الخطاب إلى الغيبة، مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين ، والكف عن الطعن فيهم ، وذب الطاعنين عنهم كما يذبونهم عن أنفسهم) .(١)

وأولع البيضاوي بتلك الأسرار البلاغية التي تتعلق بالكون والطبيعيات فأخذ كثيراً منها .

من ذلك أنه يقول وهو يتحدث عن سر الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) (﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ على وجود الصانع وحكمته ، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض وتصل إليها نداوة تنفذ فيها ، فينشق أعلاها ، ويخرج منها ساق الشجرة ، وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ثم ينمو ، ويخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ، ويشتمل كل منها على أجسام مختلفة الأشكال والطباع مع اتحاد المراد ، ونسبة الطبائع السفلية والتأثيرات الفلكية إلى الكل ، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس ...) .(٣)

وهذا الكلام هو قول الفخر في هذه الآية حيث يقول : (إن الحبة الواحدة تقع في الطين ، فإذا مضت على هذه الحالة مقادير معينة من الوقت نفذت في داخل تلك الحبة أجزاء من رطوبة الأرض ونداوتها فتنتفخ الحبة، فينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من أعلى تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الأرض إلى الهواء ، ومن أسفلها شجرة أخرى غائصة في قعر الأرض ... ثم إن تلك

---

(١) أنوار التنزيل : ٤/ ٧٥ م٢ .
(٢) سورة النحل : ١١ .
(٣) أنوار التنزيل : ٣/ ١٧٧ م٢ .

الشجرة لا تزال تزداد وتنمو وتقوى ، ثم يخرج منها الأوراق والأزهار والأكمام والثمار ،ثم إن تلك الثمرة تشتمل على أجسام مختلفة الطبائع . . . ومع تشابه نسب هذه الأشياء نرى هذه الأجسام مختلفة في الطبع والطعم واللون والرائحة والصفة ، فدل صريح العقل على أن ذلك ليس إلا لأجل فاعل قادر حكيم رحيم).(١)

فالبيضاوى يختصر الكلام ولا يسهب كما هو عادة الفخر.

ومن ذلك أيضاً قوله في سر الالتفات في قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ . .﴾(٢).

: (﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ عدل به من الغيبة إلى التكلم لتأكيد اختصاص الفعل بذاته والتنبيه على أن إنبات الحدائق البهية المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع من المواد المتشابهة لا يقدر عليه غيره).(٣)

وهذا ليس إلا اختصاراً لما قاله الفخر تأمل قوله في هذه الآية :

(ما حكمة الالتفات في قوله تعالى : ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ ؟ جوابه : أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى ، وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان ،فإن الإنسان يقول:أنا الذى ألقى البذر في الأرض الحرة وأسقيها وأسعى فى تشميسها فإذن أنا المنبت للشجرة، فلما كان هذا الاحتمال قائماً، لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة).(٤)

---

(١) التفسير الكبير : ٢٤٠/١٩ م١٠.

(٢) سورة النمل : من الآية ٦٠.

(٣) أنوارالتنزيل : ١١٩/٣ م٢.

(٤) التفسير الكبير : ٢٠٦/٢٤ م١٢.

فالعبارات وإن اختلفت لكن المعنى واحد فقول البيضاوى : (لتأكيد اختصاص الفعل بذاته) هو قول الفخر : (إن خالق السموات . . . ليس إلا الله تعالى) وبقية كلامه هو اختصار لبقية كلام الفخر .

ويأخذ البيضاوي من الفخر النكات البلاغية التي تتصل بطبيعة تكوين الإنسان يقول في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (١) : (عطف على "يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ" لأنه من رواد فهما من حيث أن الصحة والمرض في الأغلب يتبعان المأكول والمشروب وإنما لم ينسب المرض إليه تعالى ؛ لأن المقصود تعديد النعم ، ولا ينتقض بإسناد الإماتة إليه ، فإن الموت من حيث أنه لا يحس به لا ضرر فيه ، وإنما الضرر في مقدماته ، وهي المرض ، ثم إنه لأهل الكمال ، وصلة إلى نيل المجاب التي تستحقر دونها الحياة الدنيوية، وخلاص من أنواع المحن والبليات ؛ ولأن المرض في غالب الأمر إنما يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه ، وبما بين الأخلاط والأركان من التنافي والتنافر والصحة إنما تحصل باستحفاظ اجتماعها والاعتدال المخصوص . . .) (٢) .

وهذا من عند الفخر فهو يقول : (لم قال مرضت دون أمرضني ؟ وجوابه : من وجوه :

الأول : أن كثيراً من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه .

الثاني : أن المرض إنما يحدث باستيلاء بعض الأخلاط على بعض، وذلك الاستيلاء إنما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي ، أما الصحة فهي إنما تحصل عند بقاء الأخلاط على اعتدالها . . .

---

(١) سورة الشعراء : ٨٠ .

(٢) أنوار التنزيل : ١٠٥/٣ م٢ .

وثالثها : وهو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم ، والمرض مكروه . . . وكان مقصود إبراهيم عليه السلام تعديد النعم ، ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه إليه تعالى . . .) .(١)

وهكذا يظهر لنا كيف أن البيضاوى أخذ واختصر من كلام الفخر ما يوضح المعنى ، وإن لم يلتزم الترتيب الذى سلكه الفخر.

ويهتم البيضاوى قليلاً بالمناسبات بين الآيات ، ويبدو أخذه ، ذلك أنه يقول في صلة قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾(٢) بما قبله : (لما بين أمر المختلفين في التوحيد والنبوة وأطنب في شرح الوعد والوعيد أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة مثل ما أمر بها ، وهي شاملة للاستقامة في العقائد) .(٣)

وقد ذكر الفخر الرابطة والمناسبة في هذه الآية مطولة مسهبة كعادته يقول : (واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعد والوعيد قال لرسوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ وهذه الكلمة كلمة جامعة في كل ما يتعلق بالعقائد والأعمال سواء كان مختصاً به ، أو كان متعلقاً به ، أو كان متعلقاً بتبليغ الوحي وبيان الشرائع . . .) .(٤)

وغير ذلك كثير أكتفى بما ذكرت.

---

(١) التفسير الكبير : ١٤٥/٢٤ م١٢ .
(٢) سورة هود : من الآية ١١٢ .
(٣) أنوار التنزيل : ١٢٣/٣ .
(٤) التفسير : ٧٢/١٨ م٩ .

٢ - لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن [١] ت ٧٤١ :

هذا التفسير اختصره الخازن من (معالم التنزيل) للبغوى ،وضم إليه ما نقله ولخصه من التفاسير الأخرى مع حذف الأسانيد وتجنب الإسهاب. [٢]

يقول في مقدمة تفسيره : (ولم أجعل لنفسي تصرفاً سوى النقل والانتخاب ،مجتنباً حد التطويل والإسهاب ،وحذفت منه الإسناد ،لأنه أقرب إلى تحصيل المراد). [٣]

أكثر في تفسيره من ذكر القصص ،وأحياناً كان يبين درجة ضعفها أوكذبها ،وكثيراً ما يغفل عن ذلك ،وهوكثير الاستطراد في المسائل المختلفة من أخبار ،ومواعظ ،وأحكام فقهية ،فهو جامع شامل .

وفي هذا التفسير كثير من النكات البلاغية التي ينقلها عن الفخر الرازى .

وقد لاحظت أنه قليل التصرف فيما ينقل ، فقد يختصر ما أسهب فيه الفخر. من ذلك أن الفخر قد أطال في بيان سر تقديم من يستحق النفقة في قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [٤] .

---

(١) هو علي بن محمد بن ابراهيم الشيحيّ ،علاء الدين المعروف بالخازن ، عالم بالتفسير والحديث ،من فقهاء الشافعية ،بغدادى الأصل ، كان خازن الكتب بالمدرسة السميساطية فيها وتوفي بحلب . له تصانيف منها : (لباب التأويل في معاني التنزيل ،يعرف بتفسير الخازن) الأعلام ،للزركلي : ٥/٥ .

(٢) ينظر التفسير والمفسرون : ١/٣١٠-٣١١ .

(٣) لباب التأويل : ١/٣ .

(٤) سورة البقرة : ٢١٥ .

يقول : اعلم أنه تعالى راعى الترتيب في الإنفاق ، فقدم الوالدين ، وذلك لأنهما كالمخرج من العدم إلى الوجود في عالم الأسباب ، ثم ربياه في الحال الذى كان في غاية الضعف فكان إنعامهما على الابن أعظم من إنعام غيرهما عليه ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لأن الله تعالى هو الذى أخرج الإنسان من العدم إلى الوجود في الحقيقة ، والوالدان هما اللذان أخرجاه إلى عالم الوجود في عالم الأسباب الظاهرة ، فثبت أن حقهما أعظم من حق غيرهما ، فلهذا أوجب تقديمهما على غيرهما في رعاية الحقوق ، ثم ذكر تعالى بعد الوالدين الأقربين ، والسبب فيه أن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء ، بل لا بد وأن يرجع البعض إلى البعض ، والترجيح لا بد له من مرجح ، والقرابة تصلح أن تكون سببا للترجيح من وجوه ...) (١) ثم يذكر ثلاثة أسباب لترجيح القرابة ويختصر الخازن هذا الكلام فيقول : (وإنما قدم الإنفاق على الوالدين لوجوب حقهما على الولد ؛ لأنهما كانا السبب في إخراجه من العدم إلى الوجود ، وإنما ذكر بعد الوالدين الأقربين ؛ لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء ، فتقديم القرابة أولى من غيرها) (٢) .

وقد يضيف الخازن وجهاً إلى ما ذكره الفخر ، فمثلاً يقول الخازن في قوله تعالى : ﴿ ... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ (٣) : (لم خص داود في هذه الآية بالذكر دون غيره من الأنبياء ؟ قلت : فيه وجوه :

---

(١) التفسير : ٦/ ٢٥ م٣ .

(٢) لباب التنزيل : ١/ ١٤٠ .

(٣) سورة الإسراء : من الآية ٥٥ .

أحدها : أن الله تعالى ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض..

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى كتب له في الزبور أن محمداً خاتم النبيين ،وأن أمته خير الأمم.

الوجه الثالث: أن اليهود زعمت أن لا نبي بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فكذبهم الله بقوله : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾)[1].

وقد ذكر الفخر الوجه الأول والثاني[2] ،أما الثالث فهو من استنباطات الخازن.

وينقل الخازن كثيراً من الأسرار البلاغية لآيات كثيرة من تفسير الفخر.

من ذلك أنه يبين سبب مجيء الفعل على صيغة المفاعلة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[3] : (وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهو فعل واحد ،لأن المسيء قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله،فكأنه أعدل[4] عليه من يعاقبه بذنبه ويأخذه به)[5].

وهذا ما ذكره الفخر في سبب مجيء الفعل على هذا الوزن يقول : (﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ أي لا تعاقبنا، وإنما جاء بلفظ المفاعلة وهوفعل واحد ؛ لأن الناسي قد أمكن من نفسه وطرق السبيل إليها بفعله فصار من يعاقبه بذنبه كالمعين لنفسه)[6].

---

(١) لباب التنزيل : ٣/ ١٦٧.

(٢) ينظر التفسير الكبير : ٢٠/ ٢٢٠ م١٠.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٨٦.

(٤) ذكر في النسخة (أعدل) وهذا لا يناسب السياق وأظنه (أعان) فهو يناسب السياق.

(٥) لباب التأويل : ١/ ٢٠٧.

(٦) التفسير الكبير : ٧/ ١٥٥ م٤.

ويأخذ الخازن من الفخر سر التكرار في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) يقول : (وقيل : فائدة تكرارها الإعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه ، ففيه حث للعباد على تكريرها ، والاشتغال بها ، فإنه من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات) (٢) .

وهذا ما ذكره في هذه الآية يقول : (فائدة هذا التكرير الإعلام بأن المسلم يجب أن يكون أبداً في تكرير هذه الكلمة ، فإن أشرف كلمة يذكرها الإنسان هي هذه الكلمة ، فإذا كان في أكثر الأوقات مشتغلاً بذكرها وبتكريرها كان مشتغلاً بأعظم أنواع العبادات ، فكان الغرض من التكرير في هذه الآية حث العباد على تكريرها) (٣) .

وما ذكره الخازن من سر للترتيب في قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) (٤) هو من عند الفخر .

يقول الخازن : (واعلم أن الله تعالى ذكرهنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء عليهم السلام من غير ترتيب لا بحسب الزمان ، ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب ، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء عليهم السلام بنوع من الكرامة والفضل) (٥) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .
(٢) لباب التأويل : ١/٢٠٧ .
(٣) التفسير الكبير : ٧/٢٢٣ م٤ .
(٤) سورة الأنعام : ٨٤-٨٥-٨٦ .
(٥) لباب التأويل : ٢/٣١ .

ويقول الفخر : (رعاية الترتيب واجبة ،والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة ،والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب ؟ قلنا الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب . . . وأقول عندى فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل) .(١)

ومثل هذا النقل كثير في التفسير اكتفيت ببعضه،لأنه يوفى بالغرض. لأن الهدف ليس الاستقصاء الدقيق لكل ما نقله إنما بيان موقفه مما قاله الفخر الرازى في مثل هذه النكات البلاغية .

٣ - البحر المحيط لأبي حيان(٢) ت ٧٤٥ :

اهتم هذا التفسير بمسائل النحو ووجوه الإعراب في المقام الأول ،إلا أنه لم يهمل ما عداها من النواحي التي تتصل بالتفسير ،من فقه وقراءات ومعاني لغوية وغيرها ،كما أنه لم يغفل الناحية البلاغية في القرآن ،والتي نقل أكثرها من الزمخشرى ثم من الفخر الرازى . وأكثر أبو حيان من النقل عن الفخر الرازى في شتى الموضوعات .

---

(١) التفسير الكبير : ١٣/ ٦٨ م٧.

(٢) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأندلسي ،من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات ،ولد في إحدى جهات غرناطة،وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة وتوفي فيها ، بعد أن كف بصره ،اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه . من كتبه : تفسير البحر المحيط ، النهر ، اختصر به البحر المحيط وغيرها كثير من الكتب. الأعلام ،للزركلي : ٧/ ١٥٢.

وقد ذكر في مقدمة التفسير الكتب التي ينبغي للمفسر الإحاطة بها ، ولم يذكر منها تفسير الفخر الرازي .

وسأحاول هنا بيان أثر تفسير الفخر في هذا التفسير من الناحية البلاغية فأقول : إن أول ما نلحظه من تأثير اعتناؤه بالمناسبة بين الآيات في القرآن ، سائراً في ذلك على نهج الفخر ، آخذاً منه كثيراً من هذه المناسبات. من ذلك أن أبا حيان يقول عند بيان مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ . ﴾ (١) بما قبله : (هذا هو الإنعام التاسع وهو جامع لنعم الدنيا والدين ، أما في الدنيا فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ، ولولا هو لهلكوا في التيه ، وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الإنعام؛ لأنهم في مفازة منقطعة ، وأما في الدين فلأنه أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه . .) (٢) .

وهذا هو قول الفخر في الآية نفسها حيث يقول : (واعلم أن هذا هو الإنعام التاسع من الإنعامات المعدودة على بني إسرائيل ، وهو جامع لنعم الدنيا والدين ، أما في الدنيا فلأنه تعالى أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا في التيه ، كما لولا إنزاله المن والسلوى لهلكوا . .) (٣) ثم يذكر كلاماً طويلاً بعدها يذكر فيه نعم الدين ، أما أبو حيان فإنه يلخص كلام الفخر ولا يذكره كاملاً لطوله .

ويقول أبو حيان في صلة قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤) بما قبله

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٦٠ .

(٢) البحر المحيط : ١/٢٢٦ .

(٣) التفسير الكبير : ٣/١٠١-١٠٢ .

(٤) سورة المائدة : ٨٧ .

من ذكر أحوال النصارى : (ومناسبة هذه الآية لما قبلها هي أنه تعالى لما مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحترازعن طيبات الدنيا ومستلذاتها، أوهم ذلك ترغيب المسلمين في مثل ذلك التقشف والتبتل، بين تعالى أن الإسلام لا رهبانية فيه)[١].

وهذا هو قول الفخر في مناسبة الآية بما قبلها يقول : (وجه النظم بين هذه الآية وما قبلها ،وذلك لأنه تعالى مدح النصارى بأن منهم قسيسين ورهباناً، وعادتهم الاحتراز من طيبات الدنيا ولذاتها ،فلما مدحهم أوهم ذلك المدح ترغيب المسلمين في مثل تلك الطريقة ،فذكر تعالى عقيب هذه الآية إزالة لذلك الوهم، ليظهر للمسلمين أنهم ليسوا مأمورين بذلك)[٢].

فالفخر يطلق على المناسبة نظماً،وهذا ما سار عليه في أكثر تفسيره.

ويصرح أبوحيان أحياناً بأنه يلخص ما قاله الفخر في بيان المناسبة، لأن الفخر كان في أكثر الأحوال يسهب في الشرح ويُطوّل .

يقول أبوحيان في مناسبة قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾[٣] بما قبله : (ومناسبة هذه الآية لما قبلها هو أنه لما قال : " ما على الرسول إلا البلاغ " صار كأنه قيل ما بلغه الرسول فخذوه وكونوا منقادين له ،وما لم يبلغه فلا تسألوا عنه ولا تخوضوا فيه فربما جاءكم بسبب الخوض الفاسد تكاليف تشق عليكم ، قاله أبوعبدالله الرازي وفيه بعض تلخيص)[٤].

---

(١) البحر المحيط : ٤ / ٨ .

(٢) التفسير الكبير : ١٢ / ٧٥ م٦ .

(٣) سورة المائدة : من الآية ١٠١ .

(٤) البحر المحيط : ٤ / ٣٠ .

أما الفخر فقد أسهب في بيان المناسبة وذكر ثلاثة أوجه لها (١).

واهتمام أبي حيان بهذه المناسبات وأخذه لكثير منها ، جعله يهتم بها في آيات لم يذكر الفخر وجه مناسبتها ، ويوجد له طريقاً في بيانها يسير عليه في كل التفسير. من ذلك أنه يقول في مناسبة أواخر سورة البقرة كلاماً حسناً في المناسبات ، حيث يربطها بطرائق العرب في كلامها ، يقول في قوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ : (ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل ، وأنه هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب ، وبما أنزل إلى الرسول وإلى من قبله كان مختتمها أيضاً موافقاً لمفتتحها ، وقد تتبعت أوائل السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها ، بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء ، وسأبين ذلك إن شاء الله في آخر كل سورة سورة ، وذلك من أبدع الفصاحة حيث يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله وهي عادة للعرب في كثير من نظمهم ، يكون أحدهم آخذاً في شيء ثم يستطرد منه إلى شيء آخر، ثم إلى آخر هكذا طويلاً ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أولاً) (٢).

وذكر الفخر صلة أول السورة بآخرها، وعد هذه الروابط من الفصاحة، وأبوحيان يقتبس منه ، ويعرض الكلام بأسلوبه وطريقته.

يقول : (أنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، وبين في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ وهذا هو المراد بقوله في أول السورة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾) (٣).

---

(١) ينظر التفسير الكبير : ١١١/١٢ م٦.

(٢) البحر المحيط : ٣٦٣/٢-٣٦٤.

(٣) التفسير : ١٣٨/٧ م٤. سورة البقرة : من الآية ٣.

ثم يقول الفخر : (ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)[(١)].

وليس هناك أدنى شك في أن أباحيان قد أفاد مما ذكره الفخر من المناسبات ، ولذلك حرص على بيان روابط الآيات في السورة الواحدة،منها ما هو منقول عن الفخر وأكثرها من عنده .

مثلاً يذكر أبوحيان مناسبة سورة الأنبياء لما قبلها ولم يذكر الفخر المناسبة في هذه السورة .

يقول أبوحيان في قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾[(٢)] : (مناسبة هذه السورة لما قبلها أنه لما ذكر : ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ﴾[(٣)] قال مشركو قريش : محمد يهددنا بالمعاد والجزاء على الأعمال وليس بصحيح ،وإن صح ففيه بُعْد فأنزل الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾)[(٤)].

ومثل ذلك في كثير من السور .

كذلك أخذ أبوحيان كثيراً من التعليلات البلاغية من تفسير الفخر دون أن ينسبها إليه .

يقول في قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[(٥)] : (وعدل عن اسم الفاعل وهو أو مسافراً إلى ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾

---

(١) التفسير : ١٣٩/٧ م٤ .

(٢) سورة الأنبياء : ١ .

(٣) إشارة إلى آخر آية في سورة طه ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ آية : ١٣٥ .

(٤) البحر المحيط : ٢٩٥/٦ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ١٨٤ .

إشعاراً بالاستيلاء على السفر لما فيه من الاختيار للمسافر، بخلاف المرض فإنه يأخذ الإنسان من غير اختيار، فهو قهري بخلاف السفر).(١)

وهذا هو قول الفخر يقول : (لقائل أن يقول رعاية اللفظ تقتضي أن يقال : فمن كان منكم مريضاً أومسافراً ، ولم يقل هكذا بل قال : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُمْ مَرِيضاً أَوْعَلَى سَفَرٍ ﴾ وجوابه : أن الفرق هو أن المرض صفة قائمة بالذات فإن حصلت حصلت وإلا فلا ، وأما السفر فليس كذلك ، لأن الإنسان إذا نزل في منزل فإن عدم الإقامة كان سكونه هناك إقامة لا سفراً ، وإن عدم السفر كان هو في ذلك الكون مسافراً ، فإذن كونه مسافراً يتعلق بقصده واختياره).(٢)

ويقول في قوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْسَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ﴾.(٣)

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ﴾ هذا كالتوكيد لقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ نهاهم أن لا يكون الإمساك ضراراً ، وحكمة هذا النهي أن الأمر في قوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ يحصل بإمساكها مرة بمعروف، هذا مدلول الأمر ، ولا يتناول سائر الأوقات وجاء النهي ليتناول سائر الأوقات ويعمها).(٤)

ويقول الفخر في هذا : (لقائل أن يقول : لا فرق بين أن يقول : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً ﴾ لأن الأمر

---

(١) البحر المحيط : ٢/ ٣٠.

(٢) التفسير الكبير : ٥/ ٨١ م٣.

(٣) سورة البقرة : من الآية ٢٣١.

(٤) البحر المحيط : ٢/ ٢٠٨.

بالشيء نهي عن ضده ، فما الفائدة في التكرار ؟ والجواب : الأمر لا يفيد إلا مرة واحدة ، فلا يتناول كل الأوقات ، أما النهي فإنه يتناول كل الأوقات ، فلعله يمسكها بمعروف في الحال ، ولكن في قلبه أن يضارها في الزمان المستقبل) [١] فالتعليل واحد مع اختلاف بسيط في العبارات.

ويقول أبوحيان أيضاً في قوله تعالى آخذاً من الفخر : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾ [٢] : (قيل: وقال "فيها" ولم يقل "منها" تنبيهاً على ما قاله عليه السلام " واتجروا في أموال اليتامى التجارة لا تأكلها الزكاة " ، والمستحب أن يكون الإنفاق عليهم من فضلاتها المكتسبة) [٣].

ويقول الفخر في هذه الآية : (وإنما قال : " فيها " ولم يقل " منها " لئلا يكون ذلك أمراً بأن يجعلوا بعض أموالهم رزقاً لهم ، بل أمرهم أن يجعلوا أموالهم مكاناً لرزقهم بأن يتجروا فيها ويثمروها فيجعلوا أرزاقهم من الأرباح لا من أصول الأموال) [٤].

وفي بعض الأحيان يعترض أبوحيان على مسائل الفخر البلاغية ويصفه بالجهل باللسان العربي .

من ذلك أن الفخر يقدر محذوفاً في قوله تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [٥] فيقول : (تقدير الكلام : لهم درجات عند الله ، إلا أنه حسن هذا الحذف ، لأن اختلاف أعمالهم قد صيرتهم بمنزلة الأشياء المختلفة في ذواتها ، فكان هذا المجاز أبلغ من الحقيقة) [٦].

---

(١) التفسير الكبير : ٦ / ١١٨ م٣ .

(٢) سورة النساء : من الآية ٥ .

(٣) البحر المحيط : ٣ / ١٧٠ .

(٤) التفسير الكبير : ٩ / ١٩٣ م٥ .

(٥) سورة آل عمران : ١٦٣ .

(٦) التفسير الكبير : ٩ / ٧٧ م٥ .

ويذكر أبوحيان رد بعض أهل العلم عليه فيقول : (وقال الرازى تقديره " لهم درجات " قال بعض المصنفين راداً عليه " اتبع الرازى في ذلك أكثر المفسرين بجهله وجهلهم بلسان العرب ؛لأنّ حذف لام الجر هنا لا مساغ له ؛لأنه إنما تحذف لام الجر في مواضع الضرورة أو لكثرة الاستعمال ، وهنا ليس من تلك المواضع ،على أن المعنى دون حذفها حسن متمكن جداً)(١).

وقد يرى أبو حيان أن الفخر أساءفهم كلام بعض أهل العلم فيرد عليه رداً قاسياً ،من ذلك أن الفخر ذكر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢) أن سيبويه يرى أن قراءة ﴿ وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ ﴾ بالنصب أولى ،ثم رد الفخر هذا القول وقال إن فيه طعناً لما تواتر عليه القراء من القراءة بالرفع ،وفنده من خمسة أوجه.(٣)

وهنا قام أبوحيان ورد كلام الفخر ،واتهمه بالتجاسر على أقوال العلماء ،وقال إن سيبويه لا يريد من كلامه تفضيل قراءة النصب .

يقول : (قال سيبويه الوجه في كلام العرب النصب كما تقول زيداً فاضربه ،ولكن أبت العامة إلا الرفع يعني عامة القراء وجلهم ،ولما كان معظم القراء على الرفع تأوله سيبويه على وجه يصح ، وهو أنه جعله مبتدأ والخبر فهو محذوف ؛لأنه لو جعله مبتدأ والخبر " فَاقْطَعُوا " لكان تخريجاً على غير الوجه في كلام العرب ،ولكان قد تدخل الفاء في خبر(أل) وهو لا يجوزعنده(٤) ،وقد تجاسر أبوعبد الله محمد بن عمر المدعو بالفخر الرازى ابن خطيب الرى على سيبويه، وقال عنه ما لم يقله ،فقال الذى ذهب إليه سيبويه ليس بشيء والذى يدل على فساده وجوه) .

---

(١) البحر المحيط : ٣/١٠٢.

(٢) سورة المائدة : ٣٨.

(٣) ينظر التفسير الكبير : ١١/٢٢٩-٢٣٠ م٦.

(٤) ينظر الكتاب ،لسيبويه : ١/١٤٣-١٤٤.

ثم ذكر الوجوه وفندها واحدة واحدة ، وسأكتفي بذكر ما يتعلق منها بالبلاغة ، وما قاله أبوحيان في تفنيدها .

يقول الفخر في الوجه الخامس : (إن سيبويه قال : هم يقدمون الأهم فالأهم ، والذى هم بشأنه أعنى ، فالقراءة بالرفع تقتضي تقديم ذكر كونه سارقاً على ذكر وجوب القطع ، وهذا يقتضي أن يكون أكبر العناية مصروفاً إلى شرح ما يتعلق بحال السارق من حيث أنه سارق ، وأما القراءة بالنصب فإنها تقتضي أن تكون العناية ببيان القطع أتم من العناية بكونه سارقاً ، ومعلوم أنه ليس كذلك ، فإن المقصود في هذه الآية بيان تقبيح السرقة والمبالغة في الزجر عنها).(١)

ويرد أبوحيان هذا الوجه بقوله : (الذى ذكر فيه سيبويه أنهم كانوا يقدمون الذى بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى هو ما اختلفت فيه نسبة الإسناد كالفاعل والمفعول ، قال سيبويه : فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى على الأول يعني في ضرب عبدالله زيداً ، قال : وذلك ضرب زيداً عبدالله لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدماً ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخراً في اللفظ ، فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدماً ، هو عربي جيد كثير كأنهم يقدمون الذى بيانه لهم أهم وهم ببيانه أعنى وإن كانا جميعاً يهمانهم و يعنيانهم انتهى ، والرازى حرّف كلام سيبويه وأخذه حيث لا يتصور اختلاف نسبته وهو المبتدأ والخبر فإنه ليس فيه إلا نسبة واحدة بخلاف الفاعل والمفعول . . . أما الآية فهي من باب ما النسبة فيه لا تختلف إنما هي الحكم على السارق بقطع يده ، وما ذكره الرازى لا يتفرع على كلام سيبويه بوجه).(٢)

---

(١) التفسير الكبير : ١١/ ٢٣٠ م١ .

(٢) البحر المحيط : ٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ .

وأقول : إن كلمة سيبويه : (يقدمون الذى بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) تعنى كل تقديم وتأخير ،ولا تقتصر على ما اختلف فيه نسبة الإسناد كالفاعل والمفعول ،فهو يقول في تقديم الظرف : (والتقديم هنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً ،في العناية والاهتمام ، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول ،وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير) [1] فلا حرج من أن يقال قدم السارق أو قدم القطع .

وكان أبو حيان يأخذ أحياناً نظرات الفخر البلاغية من كتاب (المنتخب) و (رى الظمآن) فيقول : (قال صاحب المنتخب ...) و (قال صاحب رى الظمآن) ثم يذكر النكات البلاغية التي يذكرها الفخر ، ولم أعرف من هو صاحب المنتخب ورى الظمآن ،حتى وجدته يقول في مواضع من التفسير : (وفي المنتخب للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى) [2] ويقول : (قال أبوعبد الله محمد بن أبي الفضل المرسى فى رى الظمآن) [3] فعرفت أن مؤلف الكتابين عالم واحد ،وهو عام بالأدب والتفسير والحديث توفي سنة ٦٥٥ هـ ،كان ضريراً أصله من مرسيه ،ومن كتبه (التفسير الكبير) سماه رى الظمآن ،وله (التفسير الأوسط) و(التفسير الصغير) [4] ، وأظن أن المنتخب اسم لأحد هذين التفسيرين نقل فيه كثيرمن نظرات الفخر البلاغية.

ومن النكات البلاغية التي نسبها لهذا العالم وهي في الأصل للفخر قوله في مناسبة قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجْلَ .. ﴾ [5] بما قبلها : (عد صاحب المنتخب هذا إنعاما

---

(١) الكتاب : ٥٦/١ .

(٢) البحر المحيط : ١٦١/١ .

(٣) المصدر السابق : ٢٥٣/١ .

(٤) الأعلام ،للزركلي : ٢٣٣/٦ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٥٤ .

خامساً وقيل هذه الآية ومابعدها منقطعة مما تقدم من التذكير بالنعم ؛ وذلك لأنه أمر بالقتل ،والقتل لا يكون نعمة ، وضعف بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون من عقاب الذنب العظيم وذلك هو التوبة) (١).

وهذا هو قول الفخر حيث يقول : (اعلم أن هذا الإنعام الخامس قال بعض المفسرين : هذه الآية ومابعدها منقطعة عما تقدم من التذكير بالنعم وذلك لأنها أمربالقتل ،والقتل لا يكون نعمة ،وهذا ضعيف من وجوه ...) (٢) ثم يسهب في الموضوع ويذكر أربعة وجوه لضعفه ،وصاحب المنتخب ملخص هنا لكلام الفخر.

ويقول أبوحيان في تنكير :" قتال " مرتين في قوله تعالى :
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣).
: (قيل في المنتخب : إنما نكر فيها لأن النكرة الثانية هي غير الأولى ، وذلك أنهم أرادوا بالأول الذى سألوا عنه ،فقال عبدالله بن جحش وكان لنصرة الإسلام وإذلال الكفر فلا يكون هذا من الكبائر ،بل الذى يكون كبيراً هو قتال غير هذا ،وهو ما كان الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر،فاختير التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة) (٤).

ويقول الفخر في سبب تنكير " قتال " : (إن اللفظ إذا تكرر وكانا نكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول ،والقوم أرادوا بقولهم : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ ذلك القتال المعين الذى أقدم عليه عبدالله ابن جحش،فقال تعالى : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ وفيه تنبيه على أن القتال الذى يكون كبيراً ليس هو هذا القتال الذى سألتم عنه ،بل هو قتال آخر ؛

---

(١) البحر المحيط : ٢٠٥/١.
(٢) التفسير الكبير : ٨٤/٣ م٢.
(٣) سورة البقرة : من الآية ٢١٧.
(٤) البحر المحيط : ١٤٦/٢.

لأنّ هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإذلال الكفر ،فكيف يكون هذا من الكبائر ،إنما القتال الكبير هو الذى يكون الغرض فيه هدى الإسلام وتقوية الكفر ، فكان اختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة) (١).

وقد ينقل صاحب (رى الظمآن) قاعدة بلاغية من الفخر أخذها من عبد القاهر دون الإشارة إلى ذلك ،ويأتي أبو حيان وينقل مقولة صاحب (رى الظمآن) كما هي ، يقول في قوله تعالى : ﴿ والمُطَلَّقاتُ يَتربَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٢) : (قال في رى الظمآن « زيد فعل» يستعمل في أمرين : أحدهما :تخصيص ذلك الفعل بذلك الأمر كقولهم :أنا كتبت في المهم الفلاني إلى السلطان ، والمراد دعوى الإنفراد . الثاني : أن لا يكون المقصود ذلك بل المقصود أن تقديم المحدث عنه بحديث آكد لإثبات ذلك الفعل له كقولهم : هو يعطي الجزيل، لا يريد الحصر بل المراد أن يحقق عند السامع أن إعطاء الجزيل دأبه ،ومعنى يتربصن ينتظرن ولا يقدمن على تزوج) (٣).

وهذا الكلام قد ذكره الفخر ونسبه إلى عبد القاهر وهو يبين دلالة التقديم ،وقد أسهب الفخر فيه ودلل عليه بآيات قرآنية ،وبيت شعر (٤) ،وقد ذكرته في عدة مواضع من هذا البحث ،في مبحث التقديم ،وفي بيان أثر عبد القاهر على الفخر ،وبينت ما فيه من تصرف في مقولة عبد القاهر ، فقد ساوى الفخر بين دلالة تقديم المسند إليه الضمير ، ودلالة تقديم المسند إليه الاسم الظاهر ،وهذا ما لم يرده عبد القاهر ،ولم يرم إليه في حديثه في باب التقديم، فمن شاء فليرجع إلى ما سبق من دراسة لهذه المقولة. وبهذا كان أثر الفخر في هذا التفسير واضحاً.

---

(١) التفسير الكبير : ٣٣/٦ م٣.

(٢) سورة البقرة : من الآية ٢٢٨.

(٣) البحر المحيط : ١٨٥/٢.

(٤) ينظر التفسير الكبير : ٩٣/٦ م٣.

جـ - أثره في كتب علوم القـــرآن .

اهتمت كتب علوم القرآن بالحديث عن كل ما يتصل بعلوم القـرآن ، بما فيها المباحث المتعلقة بعلم البلاغة. واعتمدت هذه الكتب على مصـــادر التراث التي سبقتها، فجمعت ما تفرق منها مما اهتم بالقـــرآن ، ومنها الكتب التي تتحدث عن بلاغته وإعجازه. ويعد التفسير الكبير للفخر الرازى أحـــد هذه المصادر التي اُعتمد عليها ولذلك نجد آراء الفخر مبثوثة في هذه الكتب، البلاغية منها وغير البلاغية.

وسأتناول - إن شاء الله - بعض كتب علوم القرآن ، وأبين مدى استفادتها من آراء الفخر ، منها :

١ - البرهان في علوم القرآن للزركشي .

٢ - معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي .

*

أولا - البرهان في علوم القرآن للزركشي (١) ت ٧٩٤ هـ :

كتاب البرهان من الكتب التي عنيت بعلوم القرآن ، وفيه دراسات كثيرة زاخرة ، جمع فيه الزركشي أشتاتاً من أقوال العلماء ، وأشار إلى مصنفاتهم جامعاً في ذلك بين آراء المفسرين والفقهاء والأصوليين وأصحاب الكلام وعلماء العربية ، بما فيهم من علماء النحو واللغة والبلاغة ، فجاء كتابه غزير المادة متنوع الموارد شاملاً جامعاً ، اشتمل على سبعة وأربعين نوعاً من أنواع علوم القرآن .

علوم

---

(١) هو محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ، بدر الدين ، عالم بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل ، مصري المولد والوفاة . له تصانيف كثيرة منها البرهان في علوم القرآن ، الأعلام ، للزركلي : ٦/ ٦٠ .

ويتضح من كتابه هذا أنه اطلع على تفسير الفخر الرازى ،لذلك يذكره في مواضع كثيرة ،مرة ينقل أقواله ،ومرة يرد عليه رأيه بعد مناقشته فيه وكان يسميه (الإمام فخر الدين) وأحياناً يقول (حكى الإمام) دون ذكر اسمه .

وسأحاول هنا أن ألقى الضوء على بعض مواقف الزركشي من الفخر في تفسيره الكبير .

يذكره بدءاً فى باب المناسبات بين الآيات ،وهو الباب الذى اشتهر به الفخر في تفسيره ، فقد لاحظ كثرة اعتناء الفخر بذكر المناسبات بين الآيات والسور مما لا يوجد عند غيره من المفسرين ، ولذلك يذكر في تفسيره الشيء الكثير منها .

كما نقل عنه عبارته المشهورة في أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط يقول الزركشي في هذا الشأن : (وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته ،وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى وقال في تفسيره : " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط ") (١) .

وقد استلهم في حديثه عن المناسبات وأنواعها بعضاً مما ذكره الفخر في التفسير فمثلاً يقول : (إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة فيها . . كافتتاح سورة (فاطر) بـ(الحمد) أيضاً فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِن قَبْلُ ﴾ (٢) وهذا مما حرص الفخر على بيانه فقد بين صلة كثير من السور بآخر ما قبلها ،كصلة أول الروم بآخر العنكبوت ،

---

(١) البرهان في علوم القرآن : ٣٦/١ .

(٢) سورة سبأ : من الآية ٥٤ . البرهان : ٣٨/١ .

وصلة أول لقمان بآخر الروم ، وصلة أول سورة محمد بآخر سورة الأحقاف ... وهكذا .

وأيضاً يقول الفخر وهو يبين صلة أول (فاطر) بآخر (سبأ) : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي شاقهما لنزول الأرواح من السماء وخروج الأجساد من الأرض ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً ﴾ فإن في ذلك اليوم تكون الملائكة رسلاً وعلى هذا فأول هذه السورة متصل بآخر ما مضى ؛ لأن قوله كما فعل بأشياعهم بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب وتيقنه بأن لا قبول لتوبته ولا فائدة لقوله آمنت) .(١) فالفخر قد أسهب في بيان الصلة ووضحها .

ويقول الزركشي كذلك : (وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح فإنه مناسب لختام سورة الواقعة في الأمر به) .(٢)

وهذه المناسبة بين أول سورة الحديد وآخر الواقعة ذكرها الفخر أيضاً ، يقول في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾(٣) : (ويحتمل أن يكون المراد فسبح واذكر ربك باسمه الأعظم وهذا متصل بما بعده لأنه قال في السورة التي تلي هذه " أي سورة الحديد " : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ فكأنه قال سبح لله ما في السموات فعليك أن توافقهم) .(٤)

وينقل الزركشي بعض هذه المناسبات من التفسير الكبير ، كنقله لصلة سورة الكوثر بسورة الماعون حيث يقول : (ومن لطائف سورة الكوثر أنها

---

(١) التفسير الكبير : ٢/٢٦ م ١٣ .
(٢) البرهان : ١/٣٨ .
(٣) سورة الواقعة : ٩٦ .
(٤) التفسير الكبير : ٢٠٥/٢٩ م ١٥ .

كالمقابل للتي قبلها ،لأنّ السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ،و ترك الصلاة ،والرياء فيها ،ومنع الزكاة ،فذكر هنا في مقابلة البخل : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أى الكثير ،في مقابلة ترك الصلاة : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أى دم عليها ،وفي مقابلة الرياء : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أى لرضاه لا للناس ،وفي مقابلة منع الماعون : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي فاعتبر هذه المناسبة العجيبة).(١)

وهذا النقل يكاد يكون حرفياً ،بل إن قوله : (فاعتبر هذه المناسبة العجيبة) هي من عند الفخر .

ويأخذ الزركشي من الفخر بعض خصائص القرآن في ترتيب الآيات التي استنبطها وذكرها في مواضع عدة، حيث يقول الزركشي : (وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً،ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق ،ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ،ليعلم عظم الآمر والناهي ،وتأمل سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرها تجده كذلك) ومثل هذه الخصائص لا تعرف إلا بالنظر في كل آيات القرآن وكيفية ترتيبها ،وقد عنى الفخر بذلك يقول عند تفسيره لآيات من سورة البقرة : (... ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد)(٣) ويقول في موضع آخر : (اعلم أن عادة الله في القرآن مطردة بأنه تعالى مهما ذكر وعيداً ذكر بعده وعداً).(٤)

وقول الفخر فيه نظر لأنه قد يأتي في القرآن الوعد أولاً ثم يعقبه

---

(١) البرهان : ٣٩/١ ، التفسير الكبير : ١١٧/٣٢ م١٦ .
(٢) البرهان : ٤٠/١ .
(٣) التفسير الكبير : ٤١/٦ م٣ .
(٤) المصدر السابق : ١٠٤/٧ م٤ .

الوعيد كما في سورة غافر : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾(١) فجاء الوعد ثم الوعيد، وكذلك في قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾(٢) وقد تبعه الزركشي في هذا دون التنبه له ، وذكر مثل هذه الكلام كذلك في سورة النساء(٣) وفي غيرها من السور .

ويستحسن الزركشي مقارنة الفخر في باب الفواصل بين ثلاث فواصل متتالية في أوائل سورة النحل ، فقد انتهت الأولى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ والثانية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ والثالثة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(٤) ذلك لأن الفخر اعتمد في بيان الأسرار على الطبيعيات وحركة الأفلاك .

يقول : (وقد تجتمع فواصل في موضع واحد ويخالف بينها وذلك في مواضع منها في أوائل النحل، وذلك أنه سبحانه بدأ فيها بذكر الأفلاك فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ ثم ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ مِن نُطْفَةٍ ﴾ ،وأشار إلى عجائب الحيوان فقال : ﴿ وَالأَنْعَامَ ﴾ ثم عجائب النبات فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٥) فجعل مقطع هذه الآية التفكر .....

---

(١) من الآية : ٣ .

(٢) الآية : ٤٩ - ٥٠ .

(٣) ينظر التفسير الكبير : ٦٢/١١ .

(٤) سورة النحل : ١١-١٢-١٣ .

(٥) سورة النحل : ١٠-١١ .

وفيه جواب عن سؤال مقدر، وهو أنه لم لا يجوز أن يكون المؤثر فيه طبائع الفصول وحركات الشمس والقمر؟ ولما كان الدليل لا يتم إلا بالجواب عن هذا السؤال، لا جرم كان مجال التفكر والنظر والتأمل باقياً).(١)

وكلامه الأخير هو من تفسير الفخر يقول : (ولقائل أن يقول : لا نسلم أنه تعالى هو الذى أنبتها ولم لا يجوز أن يقال: إن هذه الأشياء إنما حدثت وتولدت بسبب تعاقب الفصول الأربعة وتأثيرات الشمس والقمر والكواكب ؟ وإذا عرفت هذا السؤال فما لم يقم الدليل على فساد هذا الاحتمال لا يكون هذا الدليل تاماً ... بل يكون مقام الفكر والتأمل باقياً ، فلهذا السبب ختم هذه الآية بقوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.(٢)

ويواصل الزركشي نقله من الفخر في سر مجيء الفاصلة بعدها بـ ﴿ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾.(٣)

ويرد الزركشي على الفخر حين يرفض قول الواحدى بالتقديم والتأخير في قوله تعالى : ﴿ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا قَيِّماً لِيُنذِرَ بَأساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ ﴾(٤) حيث يقول الفخر : (إن قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا ﴾ يدل على كونه مكملاً في ذاته وقوله " قيماً " يدل على كونه مكملاً لغيره ، وكونه كاملاً في ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملاً لغيره فثبت بالبرهان العقلي أن الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى ، وما ذكر من التقديم والتأخير فاسد يمنع العقل من الذهاب إليه).(٥)

---

(١) البرهان : ١/٨٤-٨٥.

(٢) التفسير الكبير : ١٩/٢٤٠ م١٠.

(٣) ينظر البرهان : ١/٨٥. والتفسير الكبير : ٢٠/٢-٣ م١٠.

(٤) سورة الكهف : من الآية ١.

(٥) التفسير الكبير : ٢١/٧٦.

ويتعجب الزركشي من هذا الفهم للآية ،ويذكر أن التقديم والتأخير لا يتنافى مع المعنى المراد فيقول : (وهذا فهم عجيب من الإمام ،لأن القائل بالتقديم والتأخير لا يقول بأنه كونه غير ذى عوج متأخر عن كونه قيماً في المعنى ،وإنما الكلام في ترتيب الألفاظ لأجل الإعراب ،وقد يكون أحد المعنيين ثانياً قبل الآخر ويذكر بعده)(١).

---

(١) البرهان : ٢٧٧/٣.

ثانيا - معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي (١) ت ٩١١ هـ :

يبحث هذا الكتاب في أوجه إعجاز القرآن، فقد رأى السيوطي أن أوجه إعجاز القرآن كثيرة لا نهاية لها، ذكر منها خمسة وثلاثين وجهاً، وكانت طريقته في تناول الموضوع أنه يبدأ بذكر الكتب التي ألفت في الموضوع والعلماء الذين ألفوا فيه، وإن كان هو ألف فيه شيئاً ذكره، ثم يتحدث عنه حديثا مسهباً، ولذلك يعد كتابه موسوعة جمعت كثيراً من المعارف المتنوعة.

ونقل السيوطي في هذا الكتاب بعض آراء للفخر، وناقشه في بعضها، وكان النقل إما مباشراً، أو نقلاً عنه من كتب أخرى، لخصت واختصرت كلام الفخر. من ذلك أنه ينقل تلخيصات الزركشي في البرهان لبعض كلام الفخر، كنقله لسر تنوع فواصل آيات النحل التي ذكرتها سابقاً، وكنقله لعبارة الزركشي في علم المناسبة : (وعلم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين وقال في تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط). (٢)

كما نقل عنه لطائف سورة الكوثر التي لخصها من تفسير الفخر. (٣)

ويذكر السيوطي كلاماً لابن المنير في أسرار الفواصل، لكنه في الأصل للفخر الرازي، فهو يقول في الفرق بين الفاصلتين في الآيتين المتشابهتين :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٤) :

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي جلال الدين : إمام حافظ مؤرخ أديب له نحو ٦٠٠ مصنف، نشأ في القاهرة، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس وخلا للتأليف حتى توفي. الأعلام، للزركلي : ٣ / ٣٠١.

(٢) معترك الأقران : ١/٥٥.

(٣) ينظر المصدر السابق : ١/٦٧. والبرهان في علوم القرآن للزركشي : ١/٣٩.

(٤) سورة إبراهيم : من الآية ٣٤.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١) : (قال ابن المنير كأنه يقول إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها وأنا معطيها فحصل لك عند أخذها وصفان : كونك ظلوماً ،وكونك كفاراً ، يعني لعدم وفائك بشكرها ،ولي عند إعطائها وصفان ،وهما أني غفوررحيم ،أقابل ظلمك بغفراني وكفرك برحمتي ،فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ، ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء) .(٢) والفخر الرازى سابق لابن المنير الذى توفي عام ٦٨٣هـ.

وهذا الكلام هو للفخر ، إذ يقول : (إنه تعالى قال في هذا الموضع : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ وقال في سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ولما تأملت فيه لاحت لي فيه دقيقة كأنه يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت الذى أخذتها ، وأنا الذى أعطيتها ،فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما كونك ظلوماً كفاراً ،ولي وصفان عند إعطائها وهما كوني غفوراً رحيماً والمقصود كأنه يقول : إن كنت ظلوماً فأنا غفور ،وإن كنت كفاراً فأنا رحيم أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوقير ،ولا أجازى جفاءك إلا بالوفاء) .(٣)

و ينقل عن الفخر جوازه لعطف الجملة الاسمية على الفعلية إذا كان هناك سر وراء هذا العطف .

يقول السيوطي : (اختلف في جوازعطف الاسمية على الفعلية وعكسه ، فالجمهور على الجواز وبعضهم على المنع ،ولقد لهج به الرازى في تفسيره) .(٤)

---

(١) سورة النحل : ١٨.

(٢) معترك الأقران : ١/٤٤ .

(٣) التفسير الكبير : ١٩/١٣٣ م١٠ .

(٤) معترك الأقران : ٣/٦٢٠ .

ومعنى" لهج به " يعنى ذكره كثيراً في تفسيره ، وينقل السيوطي عنه بعضاً مما قاله في هذا العطف ، يقول السيوطي في بيان سر عطف الاسم على الفعل في قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ﴾ (١) : (قال الإمام فخر الدين : " لما كان الاعتناء بإخراج الحي من الميت أشد أتى فيه بالمضارع ليدل على التجدد " كما في قوله : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٢)) (٣) .

وغيره كثير اكتفى بما قلته منعا للتطويل .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

---

(١) سورة الأنعام : من الآية ٩٥ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٥ .

(٣) معترك الأقران : ٣ / ٦٥١ .

الخاتمة

أ - خلاصة البحث .

ب - نتائج البحث .

جـ - قائمة المصادر والمراجع .

أ - خلاصة البحث

في التمهيد :

ألقيت الضوء على حياة الفخر الرازي، فذكرت اسمه واسم والده كما ذكر في تفسيره، ثم ذكرت كنيته، ومولده واختلاف الرواة في سنة مولده ثم رجحت وجها رأيته أقرب، وأشرت إلى شيوخه الذين تلمذ عليهم، ومنهم والده كما ذكر في التفسير، ثم بينت أنواع ثقافته وتبحره في شتى العلوم، واتصاله بالحكام، ورحلاته. وتحدثت عن صفاته الخُلُقية وما وهبه الله منها، ثم صفاته الخَلْقِيَة، وذكرت مذهبه العقدى وبينت أنه كان سنياً، ومذهبه الفقهي، فقد كان شافعي المذهب، ورددت من خلال تفسيره على من زعم أنه كان شيعياً، وعرضت لصورة عصره والصراعات التي كانت تعج بها الساحة آنذاك وأثرها في تكوين عقليته، وذكرت بعض مؤلفاته التي أثبتها في التفسير، ثم أثبت له أبياتاً من الشعر من التفسير ومن كتب التراجم، وذكرت الأغراض التي دارت حولها، وملت إلى أنها إلى النظم أقرب منها إلى الشعر.

ثم تحدثت عن تفسيره المسمى (بمفاتيح الغيب) وبينت فضله وأقوال العلماء فيه ثم تعرضت لمن قال إن الفخر لم يكمل تفسيره وأثبت -حسب جهدي المتواضع- أنه أكمله.

ثم تحدثت عن مكانته البلاغية التي عرفت من خلال كتابه (نهاية الإيجاز) وأوردت كلام بعض الباحثين حول منزلته، ثم بينت أن روحه البلاغية تظهر من خلال تفسيره، الذى نقل فيه كثيراً من الأصول البلاغية إلى المجال التطبيقي الذى نراه يتسع ويتشعب. وذكرت كيف أن بحث علم المعاني في التفسير سيكون مكملاً لدراسات بلاغية دارت حوله تقوم على التفصيل والاستقصاء لأكثر المسائل مما لم نره في الدراسات السابقة.

وفي الدراسة البلاغية قبل الفخر :

بدأت الحديث عن المراد بعلم المعاني ، فتتبعت هذه اللفظة حتى غدت تطلق على علم من علوم البلاغة ، فبدأت بمفهومها عند اللغويين ثم بينت أنها كانت تطلق على الكتب التي تبحث عما يشكل من القرآن والشعر ، ثم رأيت ابن فارس يتحدث عن (معاني الكلام) فيحصرها في عشرة أنواع ، ثم تحدث عن خروج كل نوع عن معناه الذى وضع له إلى معنى يفهم من السياق ، وهذه كانت الخطوة الأولى في نشأة هذا العلم حيث يراد به المعاني الإضافية التي تفهم من المعاني المباشرة.

ثم وجدت (المعنى) و (معنى المعنى) و (معاني النحو) عند عبد القاهر ، وبينت المراد من كل مصطلح ، ورأيته يربط بين معاني النحو والنظم، ثم يذكر الأبواب التي تأتي عليها صور معاني النحو ، وهذه الأبواب التي ذكرها لا تخرج عن أبواب المعاني التي انتهى إليها العلماء ، ولم يبين الزمخشرى المراد بعلم المعاني في مقدمة تفسيره ، ولا الفخر في تلخيصه لكتابي عبد القاهر ، ثم يتحدد معنى هذا العلم عند السكاكي فيعرفه تعريفاً شاملاً ، ويذكر أبوابه ، وجاء من بعده الخطيب وعرفه تعريفاً آخراً ، ورتب أبوابه على طريقته ، وبهذا صار علم المعاني علماً له تعريفه وأبوابه.

ثم تحدثت عن علم المعاني عند البلاغيين أولاً ثم عند المفسرين . وقد فصلت بينهما لأنني بصدد دراسة البلاغة القرآنية التي أسهم فيها كل من البلاغيين والمفسرين ، وأريد أن أبين إسهام كل منهما في دفع مباحث هذا العلم حتى عهد الفخر ، ومدى استفادته من كلا المنهجين ، وكيف كان امتداداً لهما ، وبينت كيف أن علماء اللغة أسهموا مع البلاغيين في تطور هذا العلم على حد ما رأينا ، وحاولت أن أتوخى الاختصار في هذه الدراسة ، لأنها بمثابة التمهيد لتطبيقات الفخر الرازى ، وتناولت فيه أكثر مباحث علم المعاني ،

فذكرت أولا عنايتهم بحروف الكلمة من حيث تلاؤم وتناسب الحروف كما عند الرماني وابن سنان ، كما تحدثت عن اللفظة المفردة عند عبد القاهر ، ورفضه أن ترجع الفصاحة إليها ، كما تحدثت عن صفاتها ، وعن قيمة اللفظ في الكلام ، والفرق بين الفعل والاسم وغيرها من قضايا الكلمة.

وفي الاستفهام : تحدثت عن إشارات سيبويه فيه وتفريقه بين الهمزة وهل ، كما ذكر بعض المعاني التي تخرج إليها ، ولابن جني حديث عن خروج الاستفهام إلى غير معناه الأصلي ، بين فيه الأسباب التي تدعو إلى هذا الخروج ، ثم تحدثت عن تكاملها في دراسة عبد القاهر .

وفي الأمر والنهي : تحدثت عن إشارات المتقدمين لها كسيبويه وابن فارس وابن جني ، كما اهتم بهما علماء الأصول والفقه ، وبينت ما ذكره ابن الشجرى من معاني الأمر والنهي .

وفي التقديم : عرضت لرأى ابن طباطبا في رفضه له ، وتحدثت عن أصول هذه الدراسة عند سيبويه ، وتعرضت لابن جني الذى رفض أن يكون للتقديم علة بلاغية في كتابه (الخصائص) لكنه يعدل عن هذا الرأى في كتابه (المحتسب) ويرى أن التقديم للعناية ، ثم يتكامل هذا البحث عند عبد القاهر الذى وضع قواعد هذا الباب وبين فساد بعض التراكيب التي لا تراعي هذه القواعد ، واعتنى بضرب الأمثلة ، كما بين أثره في النفس .

وفي الحذف : تناولت ما قاله سيبويه فيه من ذكر ما حذف وذكر السبب والعلة ، وذكر أنواعاً كثيرة له ، ويسمى ابن جني هذا البحث شجاعة العربية ويعجب به ويقدره ، لكنه يتبع طريقة النحاة في أكثر الأحيان ، وتعرضت لدراسة قدامة وابن جني ، فوجدتهم لا يهتمون ببيان سر الحذف ، ثم وقفت على جهود عبد القاهر وتكامل هذا الباب على يديه .

وفي الإيجاز : تحدثت عنه كما تصوره الجاحظ ، وتعرضت لحديث العسكري نقلاً من الرماني ، ثم يطالعنا الخفاجي بدراسة متميزة للإيجاز ، ولم يتناول عبد القاهر هذا الباب ، وإنما أشار إليه إشارات بسيطة.

وفي الفصل والوصل : ذكرت وصف بعض البلاغيين وأصحاب الفصاحة له في حديثهم ، ثم بينت كيف بدأت أصوله في كتب النحو ، ومنهم من أبرز معاني الفصل والوصل كالمبرد ، وتحدثت عن ظهور هذا الباب واضحاً عند عبد القاهر.

وفي التكرار : ذكرت أن البلاغيين وأصحاب الدراسة الأدبية لم يبسطوا القول فيه؛ لأنه نشأ في أحضان الدراسات القرآنية ، وللجاحظ أحاديث عن فضل التطويل في الكلام ، وسمى التكرار ترديداً ، ثم تلاه ابن جني في الاهتمام به ، وأجاز أنواعاً منه ، كما عرض له ابن رشيق ، وأسهب في الحديث عنه في الشعر ومتى يحسن ومتى يقبح دون الإشارة إلى الأغراض .

وفي الاعتراض : بينت ما قاله ابن جني في فائدته ، ومواقعه ، ودلالاته النفسية ، وأشرت إلى أن بعض البلاغيين يدخلونه في الالتفات.

وفي الالتفات : أشرت إلى التفاتات جرير ، ثم تحديد ابن المعتز له ، وقدامة بن جعفر وكيف تداخلت فيه أمثلة الاعتراض ، كما تعرضت لابن جني الذى بين سره في آيات من القرآن .

وهكذا وجدت علماء البلاغة اهتموا بالقاعدة ثم إقامة الشاهد والمثل عليها دون الاهتمام باستقصائها .

ثانيا : علم المعاني عند المفسرين :

بينت بدءاً كيف أن علم المعانى عند المفسرين ويلحق بهم دارسو الإعجاز القرآني قد اتسع وتعددت جوانبه ،ذلك لأنهم يطبقون القاعدة البلاغية على القرآن ،فتظهر لهم وجوه جديدة وأغراض لم تظهر في الناحية التطبيقية.

ففي بحث المفردات : بينت اهتمام دارس الإعجاز بالكلمة القرآنية كالخطابي الذى اهتم بمؤدى الكلمة ،والفروق اللغوية بين ما تشابه منها وذكرت قول الرماني في الكلمة القرآنية ،وقول ابن عطية وهو مفسر للقرآن ، ثم تعرضت لدراسة الزمخشرى في التفسير فقد اهتم بالمفرد بأنواعه اسماً وفعلاً وحرفاً مطبقاً ما قاله العلماء قبله.

وفي التقديم : ذكرت أن الدراسات القرآنية في مرحلة مبكرة لم تسهم في وضع أصوله ،بل أشارت إليه دون تحديد لسره البلاغي كأبي عبيدة والفراء ، ثم تظهر دراسة الزمخشرى التي طبقت منهج عبد القاهر في هذا الباب على خير وجه.

وفي الاستفهام : أشار أبو عبيدة إلى أنه لا يراد به معناه الحقيقي في آيات من القرآن ،وقاسه بالشعر ،وتبعه الفراء فذكر معاني بعض أساليب الاستفهام في القرآن ،وسار على نهجهما ابن قتيبة ،ثم اتسع هذا المبحث عند الزمخشرى وظهر التطبيق الحي لمنهج عبد القاهر.

في الأمر والنهي : بينت أن أبا عبيدة ذكر أن للأمر ظاهراً وباطناً ، وباطنه هو المعنى الذى يخرج إليه ،ورأيت ابن قتيبة يجعله تحت باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ،ثم يتسع هذا المبحث أيضاً عند الزمخشرى في حيز التطبيق على القرآن ،فيذكر معاني كثيرة له.

وفي الحذف : أشرت إلى تقدير أبي عبيدة للمحذوف في بعض الآيات القرآنية دون تحديد سر بلاغي لها ، واشترط في حسنها علم السامع بما حذف ، وتبعه الفراء في هذه الطريقة ، وذكرت أن ابن قتيبة ذكر أنواعاً له دون تحديد لسره البلاغي أيضاً ، متبعين في ذلك طريقة النحاة ، ثم تعرضت لدراسة الرماني له تحت باب الإيجاز حيث ذكر آيات كثيرة من القرآن ، كما أنه نفث في هذه الدراسة الروح البلاغية ، فبين أسرار صور منه ، ثم كانت دراسة الزمخشرى ، الذى اعتمد فيها على تقدير المحذوف ثم ذكر سر لحذفه .

وفي الإيجاز : ذكرت ما قاله العلماء فيه من أنه من أهم سمات القرآن . فأبو عبيدة يذكر أنه من مذاهب العرب في كلامها ، ويذكر آيات فيها حذف فيقدره ، ويتبع الفراء أبا عبيدة في هذه الطريقة وهو يفسر آيات القرآن ، ويعرض ابن قتيبة له ويذكر إيجاز القصر في القرآن ، ويتناول آيات عديدة ، ثم رأيت الرماني يذكره تحت باب مستقل ويعرفه تعريفاً محدداً ويقسمه إلى قسمين ، ويكشف عن قيمته البلاغية ، ويقارن بينه وبين التطويل ، كما يعده الباقلاني من أقسام البلاغة .

وفي الفصل والوصل : ذكرت أن بدايته ظهرت على أيدى المفسرين الذين بحثوا في روابط آيات القرآن ربطاً نحوياً كالفراء ، ثم عرضت للباقلاني الذى عنى بعلاقات المعاني الجزئية المختلفة في الآية ، ثم وجدت الزمخشرى يبين علاقات الجمل القرآنية المنفصلة والمتصلة بالواو أو الفاء ، واضعاً نصب عينيه كل ما قاله عبد القاهر في هذا الباب ، وقد اتسعت وتشعبت طرق هذا الباب في تفسيره .

وفي التكرار : أشرت إلى ازدهاره في ظل الدراسات القرآنية ، فبينت أن الفراء تحدث عنه من الناحية النحوية ، وأجاز تكرار الجمل إن كان هناك

غرض بلاغي ، واهتم ابن قتيبة بأنواعه في القرآن ،كما جعله الباقلاني من أقسام البديع ،وذكرت أن القاضي عبد الجبار أسهم في الدفاع عنه في القرآن ، وذكر أنواعاً له ، ثم بينت كيف كان تفسير الزمخشرى امتداداً لبيان صوره وأسراره .

وفي الالتفات : بدأت بأبي عبيدة الذى يعد من أوائل من التفت إلى اختلاف الضمائر في الخطاب في القرآن وسماه مجازاً ، ثم بينت أن الفراء ذكره في معاني القرآن ، كذلك الطبرى في تفسيره ،ضرب له أمثلة من الشعر ، ثم وقفت أمام تفسير الزمخشرى فوجدته يعرض صوراً كثيرة منه ، ويبين قيمته البلاغية وأثره على النفس .

وفي الفواصل القرآنية : ذكرت أن الفراء قد ساوى بين ما يجوز في الشعر العربي وبين ما في القرآن، فقد يعدل من لفظ إلى آخر من أجل مشاكلة الآيات ،ثم ذكرت أن ابن قتيبة ينكر عليه ذلك ،و يجيز منه ما كان هاءً أو حذف حرف. ثم تعرضت لرأى الرماني الذى تحدث عن هذا المبحث في أوجه بلاغة القرآن وعرفه وذكر أنواعه ، وضرب أمثلة له من القرآن ،ورأيت الباقلاني يوافق ابن قتيبة ويرفض قول الفراء ،ثم يذكر سراً لتقديم هارون على موسى في آية : ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ،وعرجت على تفسير ابن عطية فرأيته يوافق الفراء في آرائه ، ثم انتهيت إلى الزمخشرى الذى اهتم بالفواصل ،ورفض رأى الفراء ، ووقف عند كثير من الآيات ، بين فيها وجه ملائمة الفاصلة للسياق قبلها،و بين في آيات قليلة أن سر العدول مراعاة الفاصلة .

مبحث علم المعاني عند الفخر :

١ - رأى الفخر في النظم :

رأيت أنه من الواجب أن أبدأ أولاً بمفهوم النظم عنده ، ذلك أني وجدت هذه الكلمة تتردد كثيراً في التفسير فرأيت أن أتتبعها لأعرف مدلولها وكلمة النظم في أكثر التفسير تعني المناسبة القائمة بين كل آية وآية ، أو بين آخر الآية ومابعدها أو بين مقطع ومقطع آخر . ذلك أنه يقرن أحياناً كلمة النظم بالترتيب والمناسبة . وقد يعني بالنظم الروابط والعلاقات النحوية وينقل في ذلك آراء النحاة في هذا الربط الإعرابي ، وبينت أن هذا ما بنى عليه عبد القاهر نظرية النظم ، وكما تحدث عن اتصال النظم في التفسير ، تحدث كذلك عن تفكك النظم ، ويتمثل عنده في عدم فهم الظاهرة الإعرابية التي تؤدى إلى اختلال المعنى . ثم يذكر أن القرآن قد يخرج عن رعاية النظم لسر بلاغي أراده القرآن ، كما أن النظم يحسن ويلطف حين يكون مطلع الكلام دالاً على ما سيأتي من المعاني . وقد يعني بالنظم المعنى القريب الموافق للآية.

ثم وقفت عند مصطلح (علم المعاني) وتتبعته في التفسير لأعرف هل ذكره وإن ذكره فما مفهومه؟ وما موضوعاته؟ ، وقد توصلت إلى أنه لم يذكر هذا المصطلح أبدا في التفسير بل كان يذكر (علماء المعاني) ويعنى بهم الذين بحثون عن دقائق معاني القرآن ، وجرني هذا إلى تتبع مصطلح (علم البيان) فوجدته يذكره ويذكر (علماء البيان) ويريد بهما علم البلاغة وعلماء البلاغة وهو في هذا متابع لعبد القاهر والزمخشري . وذكر مصطلح (الفصاحة) في مواضع من التفسير خاصة وهو يتحدث عن إعجاز القرآن ، وقد كان يريد به معنيين : الأول البلاغة مطلقاً متبعاً في ذلك القاضي عبد الجبار ، الثاني : أنه يجعل الفصاحة من صفات اللفظ.

٢ - في دراسة المفردات :

بينت فيه ما أثاره الفخر من لفتات فنية في ربط المفرد بسياقه سواء كان اسماً أو فعلاً أو حرفاً ، فتناولت أولا اهتمامه بالكلمة القرآنية ، وقسمت طرق تناوله لها ، فقد درس إيحاءات الكلمة وما تدل عليه وهي في سياقها. فالروغان مثلاً يدل على معنى السرعة ، والويل يدل على الشدة ، والظل والمغفرة تدلان على الستر وهو في كل هذا متأثر بابن جني الذى بحث عن إيحاءات الكلمة من خلال تقاليبها اللغوية. كما اهتم بدلالة الكلمة التي يفهم منها بعد معرفة معناها اللغوى، ففرق بين النزع والنشط فأحدهما يدل على الجذب بشدة ، والآخر على الجذب برفق ولين . ويربط الفخر بين المعنى الصوتي والمعنى اللغوى للكلمة ، لأن للصوت أثراً في تحديد المعنى ، وقد يفاضل بين كلمتين من جهة جرسهما وموسيقاهما كالقارعة والحاقة ، ويرد ذلك إلى أن في القرآن فاضلاً ومفضولاً وما نزل آخراً كان أبلغ، وقد ناقشت هذه القضية وبينت أن لا تفاوت بين مراتب بلاغة القرآن . كما عنى الفخر بالكلمة القرآنية من جهة وضعها الملائم لسياقها بحيث لا يؤدى غيرها مؤداها، ويبين قيمتها في أداء المعنى ، وهذه كثيرة جداً في التفسير ، وقد اخترت بعضاً منها يفي بالغرض ، وكانت طريقته أنه يقارن الكلمة القرآنية بغيرها من الكلمات ثم ما تحققه هذه الكلمة من المعنى ، وكنت أقارن بين أقواله وأقوال غيره من العلماء أحياناً لأ تبين مكانة كلامه من التراث البلاغي ، ويذكر أن القرآن يعدل عن اللفظ الأشهر إلى خلافه لدلالته على المعنى . وقد يثبت القرآن المعنى بنفي ضده ، وهو في ذكر السر يستعين بما قاله الزمخشرى فيهما .

وتعرض كذلك لمجالات استخدام اللفظة القرآنية وطريقة جريانها في القرآن ، وكنت كثيراً ما أتثبت من رأيه إما بالرجوع إلى القرآن أو إلى أقوال علماء اللغة .

كما تعرضت لحديثه عن الفروق بين الكلمات التي يظن أنها بمعنى واحد ،وعند التحقيق نجد أن لكل كلمة معنى خاصاً بها ،وقد جمعت الكثير منها لكني ذكرت بعضها لضيق المقام ولتحقيق الغرض الذى من أجله عملت هذه الدراسة ، وكان الفخر يستشعر صعوبة هذا الباب فيذكر أنه لا يتأتى لكل أحد ولا يظهر إلا للبارع ،وقد سار على طريقة معينة في هذا التمييز حيث يذكر معنى الكلمة واستعمالاتها عند العرب ثم في القرآن ،وقد يتعرض لتقاليبها .

وتناول الفخر الكلمة من حيث إفرادها وجمعها ،فالرحمة تأتي بالجمع لبيان تعدد رحماته ،والعذاب بالمفرد لبيان أن عذابه واحد . وتأتي النعمة مفردة في مقام الكثرة وتعنى بها جنس النعم ،وتأتي النعمة جمعاً في مقام الكفر للتنبيه بالأدنى على الأعلى ،كما اهتم الفخر بالبحث عن الفرق بين الريح والرياح في القرآن وذكر أن الجمع يأتي في مواضع الرحمة والمفرد في مواضع النقمة والعذاب ، سائراً في ذلك على هدى غيره من المفسرين كابن عطيه والزمخشرى ،ثم أثبتُ خطأ ما ذهب إليه مستعينة ببحث للدكتور الفاضل علىّ العمارى في الفرق بينهما . ويأتي جمع القلة تنبيهاً على قلة ثمار الدنيا بالقياس إلى ثمار الآخرة ،ويأتي الجمع ويراد به الواحد لتعظيمه وبيان منزلته ، ويأتي المصدر مفرداً بين صيغ جمع جاءت أسماء وذلك على خلاف ما اتفق عليه أهل اللغة فيبين سره البلاغي . وقد تتنوع كلمات الآية بين جمع وإفراد لسر بلاغي ،كذلك يجمع ما لا يعقل جمعاً مذكراً سالماً موافقة لاعتقاد المشركين .

ثم انتقلت إلى مبحث الأفعال والمشتقات عند الفخر ،فرأيته يهتم بدلالة الفعل كأن يأتي أحد الفعلين مبنياً للمجهول والآخر للمعلوم في آية واحدة ،ويفرق بين صيغة (تَفَاعَل) المعطوفة على صيغة (تَفعل) في آية واحدة ،وقد تدل صيغة (تَفَعَّل) على شدة الاهتمام والمبالغة في الفعل .

وتتفاوت أزمنة الأفعال في الآية الواحدة بين الماضي والمضارع فيدل الماضي على انقطاع الفعل والمضارع على تجدده وتكراره، وقد يأتي الماضي دالاً على بُعْدِ الزمن والمضارع على قرب وقوع الفعل، ويستعمل الماضي موضع المضارع لاستمرار وقوعه، كما يدل اجتماعهما على الاستمرار، ثم بينت أن بعض الدارسين يلحقون هذا النوع من الانتقال في زمن الأفعال بباب الالتفات كالعلوى وابن الأثير، ولم يشر الفخر إلى ذلك في أى موضع من التفسير. وقد يأتي الماضي ويراد به المستقبل لأغراض متعددة تتبعتها في أكثر التفسير فوجدت أنها أكثر ما تجيء في أمور الآخرة لتحقق وقوعها، ولم يصرح أنها من المجاز كما فعل المتأخرون إلا في موضع واحد، كما أن بعض المتأخرين وضعوه تحت مبحث خروج الكلام على مقتضى الظاهر كالخطيب وأصحاب الشروح.

ثم تناولت نظرته في المشتق فوجدته أحياناً يقارن بينه وبين الفعل فيفرق بين اسم الفاعل والفعل، ويذكر أن اسم الفاعل يدل على ثبوت الصفة ورسوخها ولا يفهم ذلك من دلالة الفعل. وهو هنا متأثر بعبد القاهر في هذا التفريق. وفرق بين الدوام والاستمرار في اسم الفاعل هنا وبين الدوام والاستمرار في الفعل المضارع الذى ذكره سابقاً. ثم بين الفخر بعض معاني المشتقات وأسرارها البلاغية.

وفي مبحث التعريف يهتم ببيان دلالة المعرف سواء كان بأل أو بالإضافة أو باسم الموصول أو باسم الإشارة.

فالتعريف بأل يدل على المعهود السابق، وقد تدخل على المفرد فتفيد حصول فرد من الجنس، وتدخل على الجمع ويراد بها الاستغراق مبالغة في المعنى، وتدخل على المفرد وعلى الجمع فتفيد الاستغراق، ويخالف في كتابه المحصول ما ذهب إليه هنا، فيذكر أن الجمع المعرف بلام الجنس إذا لم يكن

للمعهود فهو للاستغراق ،كما أن الواحد المعرف بلام الجنس لا يفيد العموم، وقد دعم أقواله بأدلة منطقية . ويتطرق الفخر للمعاني البلاغية (لأل) فيذكر أنها تفيد معنى الكمال في الصفة وهذا ما ذكره عبد القاهر من قبله ،وقد يعرف الظاهر المعلوم الذى لا ينبغي أن ينكر وقد يأتي جامعاً بين الحصر وكمال الصفة، ولا يجمع المتأخرون بينهما فتعريف الطرفين إما أن يفيد القصر على وجه الحقيقة أوعلى وجه المبالغة لكماله.

ويأتي الاسم الموصول للإشارة إلى ما يجرى مجرى المعلوم وإن كان مجهولاً، كما أن القرآن قد يعدل من لفظ (من) دون (ما) لاختصاص العقلاء بالتخويف، و يعدل إلى (ما) لأن الغلبة حاصلة لغير العقلاء ،أوللدلالة على قدرته تعالى، وقارنت بين قوله هذا وقول الزمخشرى فوجدته أكثر إدراكاً للمعنى البلاغي .

ويأتي التعريف بالإضافة لأغراض منها أنه يفيد اختصاص المضاف إليه بالمضاف أولكمال الصفة أو المدح والتعظيم أو التشريف وغير ذلك من المعاني. وقد لاحظت أن الفخر كثيراً ما يقارن بين التعريف والتنكير إما في سياق آية واحدة أو في آيتين متشابهتين في الصياغة . وقد أثبتُ بعض الآيات في هذا الشأن .

وللتنكير عند الفخر معان كثيرة ،فقد تفيد الإفراد وهو الأصل الذى هي عليه ،كما أنها تأتي في معرض الوعيد والتهديد ،وكان يجمع أحياناً بين دلالة التعظيم ودلالة التنكير ،وقد وجدت السكاكي بعده يجمع بينهما لكن سعد الدين يفرق بينهما ،وقد يفيد التنكير معنى الكمال في الصفات. و يرى أن التنكير في آية : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ يفيد الكمال في معنى الحياة ،لكن الزمخشرى يرى أنها تفيد الاختصاص أى حياة مخصوصة، ثم بينت أن اختلاف المعاني لا يعني خطأ أحد منها فكل عالم يرى من النص

ما لا يراه غيره. وقد يفيد التنكير التعظيم، ويفيد التقليل والتحقير. وتظهر قدرة الفخر على تقليب المعاني في النص القرآني، فيذكر أن النكرة قد تحتمل أكثر من معنى، فقد تفيد التحقير تارة والتهويل تارة أخرى، أوتحتمل التحقير والتفخيم، ويبدو تأثره هنا واضحاً بالزمخشري، لأننا لا نجد دراسة سابقة ذكرت هذه المعاني للتنكير. وقد تتكرر النكرة مرتين في آية واحدة، ولكل واحدة سر خفي عبرت عنه، وتأتي النكرة مفردة ويراد بها الجمع لشهرتها، وفي أثناء حديثه عن معاني النكرة كان يبين قيمتها في أداء المعنى، وقد ختمت هذا البحث بعرض رأى للمرحوم أحمد بدوى انحرف فيه عن الصواب فبينت وجه الحق كما أراه.

واهتم الفخر بمعاني الحروف، فأشرت إلى ما يلحظه في معاني حروف الجر على الرغم من إهمال البلاغيين الحديث عنها وعدها من أبواب البلاغة. والمفسرون هم الذين التفتوا إلى معانيها، وللفخر نظرات جيدة في هذا الباب تنبيء عن دقة ذوقه البلاغي، فقد ذكر وجوهاً (للام) في الكلام فهي تأتي لعود المنافع، و (على) تأتي لعود المضار، ورأيته هنا يستلهم هذه المعاني من الزمخشري ويطبقها على كثير من الآيات. أما (على) فيذكر أنها تدل على الاستعلاء والتمكن، وفي موضع آخر يشير إلى أن (على) جاءت على سبيل الاستعارة كما في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى ﴾ ويتبع هنا الزمخشرى أيضاً، وقد ظهر هذا الاتجاه بعده عند المتأخرين. وتناول الحرف (فى) وسوى بينه وبين (اللام) ثم ما لبث أن رأى أن (فى) تدل على الإحاطة واللام لا تحمل ذلك. كما تحدث عن معنى (الباء) وسبب مجيء الفعل متعدياً بها.

وللفخر دراسة جيدة في دلالة حرفى الشرط (إنْ وَإذَا) فيتفق مع غيره في أن (إنْ) تأتي للشرط الذى لا يكون مقطوعاً بوقوعه، و (إذَا)

في الشرط المقطوع بوقوعه ، وتفرد بأن سمى خروج كل منهما عن أصله مجازاً ، وقد لاحظ خروج آيات عدة من القرآن خرجت فيها الأداة عن معناها لتحقيق غرض بلاغي ، ويعترض الفخر على الزمخشري حين يرى أن (إِذَا) جاءت في القرآن على غير موضعها .

كما يتحدث عن لفظ العموم (كل) حين تأتي في النفي وفي الإثبات ، فعندما تتقدم على الفعل وترفع فإنها تفيد عموم النفي ، وإذا نصبت أفادت أن النفي يعم أكثر الأفراد ، وهذا ما يسمى بنفي العموم، وقد نقل هذا عن عبد القاهر كما يقول . ثم طبق القاعدة عليها في حالة الإثبات ورأى موافقة بعض الآيات لهذه القاعدة فقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ مما يختلف فيه المعنى باختلاف الإعراب ، وخروج البعض الآخر عن هذه القاعدة كما في قوله تعالى : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ فاختلاف الإعراب لا يؤدي إلى اختلاف المعنى ، وهكذا يرى أن قاعدة عبد القاهر لا تطرد في القرآن الكريم. وقد عرجت على رأيه في نهاية الإيجاز فوجدته يقول: إن ما جزم به الشيخ عبد القاهر لا يكون إلا عند من يقول بدليل الخطاب فهو غير مطرد في كل دلالة (كل) وبذلك كان الفخر أول من اعترض على عدم اطراد هذه القاعدة .

كما تعرض الفخر لمعاني حرف العطف (ثم) فهي تأتي لاستبعاد حصول مابعدها وهذا المعنى سبقه به الزمخشري ، ويسميه الفخر في موضع آخر التعجب والإنكار من الفعل ، وقد ذكرت في هذا الموضع كلاماً لأبي حيان مؤداه أن إفادة (ثم) لهذه المعاني لا تفهم إلا من السياق ، ولم يقل بها أحد من النحاة ، وقد رددت عليه في ذلك . وقد تأتي (ثم) لترتيب خبر على خبر دون مراعاة الترتيب الزمني ، ويخالفه الزمخشري فيها بوجه حسن . كما تأتي لبيان عظمة ما هو واقع بعدها .

وتحدث الفخر عن الفروق بين أدوات النفي (لَنْ) أقوى في تأكيد النفي من (لا) ويقارن بينهما في آيتين متشابهتين في الصياغة إحداهما جاءت (بلن) والأخرى (بلا) وهوهنا يوافق الزمخشرى في أن (لَنْ) أقوى في التوكيد ،وقد عرضت لقول الزمخشرى في أنها تفيد التأبيد لكن الفخر لا يأخذ بهذا الرأى واكتفي بقوله الأول . وقد استأنست بحديث ابن هشام عنها .

كما فرق بين (لما) و (لم) في آية : * قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا .. *

٣ - البحث في نظم الجملة :

بدأت بمبحث التقديم : ورأيت أن جزئياته ومسائله تتعدد ،فتناولت أولاً تقديم المسند إليه الذى يشمل تقديم الاسم على الفعل وتقديم الاسم على المشتق ويذكر الفخرهنا أن التقديم إما أن يفيد التخصيص أو التأكيد ، وينقل ذلك من عبد القاهر ،وقد رجعت إلى عبد القاهر فوجدته لم يقل أن تقديم الاسم على الفعل يفيد الاختصاص ،ولم يأت بمثال واحد على ذلك والذى ذكر ذلك هو الزمخشرى . ولاحظت أنه عند التطبيق لا يخرج التقديم عن هذين الغرضين . وفي موضع آخر يتبع الفخرالزمخشرى في دلالة التقديم على الاختصاص بعد (لو) وقد رأيت أن هذا الوجه لا يفيده ، لأنّ ما بعد (لو) لا يكون إلا فاعلاً لفعل محذوف ،ولا يعد فاعلاً مقدماً ، وقلّ ما يلتفت الفخر إلى دلالة التقديم على التوكيد ،وقد تتبعت الآيات التي يأتي فيها تقديم المسند للتأكيد فلم أجده يلتفت إلى التقديم فيها فعزوت ذلك إلى أن همته كانت منصرفة إلى التفسير في المقام الأوّل . وفي تقديم المسند أى الخبر بأنواعه رأيت أنه لم يطل الوقوف عند المسند المقدم في الآيات ،ولم يتناول ذلك إلا في آيات قليلة ،وأكثر ما تفيده الحصر والاختصاص ، وقد بينت أنه لم يكن يفرق بينهما كما فعل السبكي .

أما التقديم في المتعلقات فهو عنده إما للاختصاص أو للعناية والاهتمام وقد وجدت أن تقديم الجار والمجرور على فعله لا يفيد عنده إلا القصر ويظهر ذلك في آيات كثيرة. أما تقديم المفعول فقد يفيد الحصر والاختصاص وقد يفيد العناية والاهتمام ، ورأيته هنا يصدر أكثر كلامه عن الآيات بعبارة سيبويه (يقدمون الذين بيانه أهم وهم بشأنه أعنى) ، ولم يكن يجمع بين الدلالتين متبعاً في ذلك الزمخشرى ، وقد عرضت هنا لرأى أبي حيان الذى كان يرى أن التقديم لا يفيد الحصر ، ويرفض صوراً كثيرة تدل على الاختصاص لتعارضها مع العناية والاهتمام ، ويتعرض الفخر لآيات في التقديم فيذكر أنها تفيد العناية والاهتمام دون البحث عن سرها البلاغي المتعلق بفقه الآية ، وهذا يخالف ما قال به عبد القاهر من أن سر التقديم لا يكون للعناية والاهتمام فقط بل لا بد من البحث عما وراءه من أسرار. وقد يتعرض الفخر لسبب تقديم متعلق المفعول وما يفيده ، فيذكر أنه للعناية ثم يذكر غرضاً آخر كما في آية : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ ﴾ وقد تتبعت هذه الآية عند كثير من العلماء وبينت ما دار حولها من مناقشات . كما بين السر في تقديم معمول إحدى الجملتين المتعاطفتين ويذكر سراً بلاغياً لها نقله المفسرون عنه بعد ذلك ، ويربط ذلك ببيان أثر التقديم على النفس ، فيرصد حركتها وهي تتلقاه ويبدو هنا تأثره بعبد القاهر ، ثم ينتقل إلى بيان أسرار تقديم بعض المعمولات على بعض ، وقد رأيتها كثيرة في التفسير ومتنوعة فاخترت بعضاً منها .

ثم تحدثت عن مباحث الإنشاء فبدأت بمبحث الاستفهام فوجدته يتناول فيه قضايا متعددة منها : أنني لاحظت أنه يذكر أثر الاستفهام في الكلام وقيمته في أداء المعنى ، فهو يثبت المعنى في النفس ويوضحه ويؤديه بطريقة أبلغ من أدائه مجرداً ، ثم قارن الفخر بين دلالة الاستفهام في إظهار المعنى ودلالة غيره من أساليب الإنشاء كالنهي مثلاً ، وله كلام جيد في الحديث

عن جملة الخبر حين تكون استفهاماً ،ورأيته في كل هذا يتتبع حركة النفس وهى تتلقى هذا الأسلوب متأثراً في ذلك بعبد القاهر.

ثم تعرضت للمعاني البلاغية التي يفيدها الاستفهام فبينت أن طريقته كانت تقوم على تحديد حرف الاستفهام ثم بيان معناه الذى خرج إليه ،ونقل عن الزمخشرى قوله إن معنى الاستفهام يتسلخ عن الأداة ويراد بها معنى آخر ،ويستشهد في ذلك بسبيبويه ، وقد اعتبرته أول من سمى المعاني التي يخرج إليها الاستفهام معاني مجازية ،ذلك أنه أشار إلى ذلك في عدة مواضع، ثم تحققت من الموضوع فثبت لي أن المتأخرين قد خاضوا في هذه المسألة من أصحاب الشروح والحواشي .

ثم ذكرت بعض معاني الاستفهام عند الفخر منها الإنكار والتقرير والأمر والتعجب والتبكيت والتهكم والتعظيم ،وفي أكثر ملاحظاته كان يشير إلى مايثيره الاستفهام من معاني لا تكون في غيره من الأساليب ويذكر أن المستفهم عنه هو مايلي الهمزة متأثراً في ذلك بما قاله عبد القاهر ويقيسه بالتقديم في النفي ،ويذكر أن الهمزة تدخل على الفعل أحياناً ويراد به إنكار الفعل ، وقارنته بما قاله الزمخشرى ،وثبت أن الفخر فاقه من حيث كشفه عن سره البلاغي .

ثم تناولت الاستفهام الذى يأتي مع جوابه فقد يأتي للإيضاح أو لبيان ظهور الأمر ووضوحه.

ولاحظت أنه يتحدث عن دخول الهمزة على واو العطف وأن في دخولها سراً لا يكون عند حذفها ، وينكر أن تكون زائدة متابعاً في ذلك الزمخشرى ،ويخرج منها إلى بيان الفرق بين الفاء والواو بعد حرف الاستفهام. ولم يتعرض إلى آيات كثيرة في هذا النوع.

ثم تحدثت عن الأمر : وذكرت تعريف الفخر له في التفسير ، ومن ثم إحالته إلى المحصول في شأنه ، فرجعت إلى المحصول فوجدته يتحدث

عن الأمر ، ويذكر فيه خمسة عشر وجهاً لخروجه عن معناه الحقيقي ،وناقشت ابن السبكي في قوله إن الفخر لا يشترط الاستعلاء عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ثم تعرضت للمعاني التي ذكرها للأمر في التفسير منها الزجر والنهي والتهديد ، وقد يأتي للإهانة والتنكيل والاستبعاد والدعاء والخضوع وغير ذلك، وقد لاحظت أن الفخر كان يستدرك في بعض الآيات فيذكر أن الأمر لا يراد به معناه الحقيقي .

وقد تتعدد الوجوه البلاغية للأمر الواحد فأقف عندها لأبين أقربها لمعنى الآية مستدلة على ذلك بأقوال المفسرين . ويذكر الفخر أن الأمر والخبر قد يتعاقبان فيأتي الأمر ويراد به الخبر ويأتي الخبر ويراد به الأمر ،ويضرب لذلك أمثلة من القرآن ،وهو في هذا متأثر بالزمخشرى ناقل عنه بعض الأسرار .

ثم تعرضت للنهي بعد أن عرفته وذكرت حكمه الذى ذكره في المحصول، ثم تناولت المعاني التي أفادتها أساليب النهي كما يراها ، فمن المعاني أنها تأتي لمواصلة التنبيه عن ارتكاب أمر لم يرتكب وذلك عند مخاطبة الرسول : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُوراً ﴾ وهذا ما سماه الزمخشرى الإلهاب والتهييج والإثارة لشدة التمسك بما هو عليه. وقد يأتي النهي للتغليظ والزجر أو للدعاء والتضرع .

وقد لاحظت أن النهي في التفسير قد يأتي بأساليب النفى لأسرار بلاغية فتناولت عدة صور منها ، منها الحث على المسارعة في الامتثال ،والوثوق بوقوع الفعل ،ويرد الفخر على من أول النهي في آية ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ بأنه نفي ودعمه بحجج قوية. ويتوالى الأمر والنهي في بعض الآيات فيذكر أن ذلك يكون للتوكيد فالأمر يفيد أن الفعل لا يقع إلا مرة واحدة ،والنهي يتناول كل الأوقات .

وللفخر في مبحث الحذف كلام يبين فيه أغراض الحذف فيرجعه إلى ثلاثة أوجه: لعلم المخاطب، أو لاختصار العبارة أو لطول القصة.

وعند التطبيق على آيات القرآن يرجع سر الحذف إما إلى دلالة ما قبله، أو إلى علم المخاطب به، أو إلى الاختصار والإيجاز، أو إلى سر بلاغي راجع إلى سياق الآية، فقد يحذف الحرف إظهاراً لقوة المعنى وأهميته، وقد يحذف حرف الجر من العبارة حتى تكون مجازاً، وقد رد أبو حيان عليه واتهمه بالجهل؛ لأن حذف حرف الجر ليس له مسوغ، وأكثر المفسرين اتبعوا الفخر في قوله، وقد يحذف الفعل عند شدة الموقف، وقد يحذف المنادى لإحساس النفس بالقربى، ويحذف متعلق الفعل لعظم المحذوف وفخامته، ويحذف الخبر ليذهب الوهم كل مذهب. وهنا يبدو تأثره بالرماني الذي يعد أول من أرجع الحذف إلى ذهاب النفس كل مذهب. ويهتم الفخر بحذف جواب (لو) فهو إما أن يقدره في الكلام دون التعرض لسره البلاغي، أو يذكر السر البلاغي لحذفه، ويؤكد أن حذفه أبلغ في المعنى من إظهاره.

وفي باب الإيجاز يتحدث عنه بنوعيه، إيجاز الحذف وهو داخل تحت باب الحذف، فقد أشار في قليل من المواضع إلى أن الحذف يأتي للاختصار والإيجاز، أما القصر فقد تناول فيه بعض الآيات وبين ما تضمنته من إيجاز، فتناول آية: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ وقارنها بمثل العرب (القتل أنفى للقتل) وأسهب في بيان التفاوت بينهما، وظهر لي أنه استعان في بيان هذا الفرق ببعض ممن سبقوه.

ثم وقف عند بعض الآيات الموجزة وبيّن المعاني التي تحطها وتحيط بها فيقول: (هذا كلام جامع) (كلمة جامعة حاوية) وغير ذلك من العبارات، كما كشف عن وجه الإيجاز في أساليب المجاز كالاستعارة والكناية.

وفي مبحث التوكيد تحدث الفخر عن قصة المبرد مع الكندى ثم نقل بعض ما قاله عبد القاهر عن دواعي التوكيد . وقد تعرضت للتوكيد عنده من ناحيتين : الأولى : دواعي التوكيد ، والثانية : عناصر التوكيد . وفي الأولى وجدته لا يهتم بدواعي التوكيد إلا في مواضع يسيرة ، فيذكر أن التوكيد يأتي لمواجهة تكذيب المكذبين ، ويأتي التوكيد بضمير الفعل في الأمر الذى يظن الإنسان أنه من فعله وليس كذلك في الحقيقة ، ولا يؤكد به فيما لا يتوهم أنه من فعله ، فالتأكيد يتصاعد بحسب الاعتقاد ، ويأتي التأكيد كذلك ليؤكد صحة ما اعتقده الإنسان . ويأتي التوكيد بطرق عدة فقد يكون بالحروف أو بالتكرار أو بالمصدر أو بالصفة وغير ذلك من أساليب التوكيد .

وفي مبحث القصر اقتصر حديث الفخر في نهاية الإيجاز على القصر بإنما والنفي والاستثناء ، لكنه يتسع في التفسير فيذكر طرقاً أخرى كالتقديم وتعريف الطرفين . فصور تقديم الجار والمجرور تفيد عنده القصر دائماً ، ومن صور التعريف التعريف بضمير الفصل ، ولا يعده أكثر البلاغيين من طرق القصر . وذكر الفخر صوراً كثيرة له ، أما تعريف الطرفين فتفيد القصر الحقيقي . وتعرض لإنما فذكر أن هناك من قال إنها للحصر وآخرون قالوا إنها موصولة ، وذكر احتجاجات كل فريق ، ثم رأى أنها لا تكون إلا للقصر ، واتفق مع الزمخشرى في أن (أنما) بالفتح يفيد القصر بينما رد أبو حيان أن تكون للقصر لأنها إذا أفادت ذلك كان القصر حقيقياً وسياق الآية لا يتناسب معه ، وقد رد الفخر على مثل قول أبي حيان من أن القصر هنا يكون ادعائياً وما عداه غير منظور إليه . وقد رجعت إلى تفاسير عدة فوجدتها تؤيد رأى الفخر . أما النفي والاستثناء فلم يتناوله مفيداً للحصر إلا في مواضع قليلة ، وعندما يأتي يؤوله على معنيين فهو إما استثناء متصل وعندئذ يدل على القصر ، أو منقطع فيخرج عنه إلى باب تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وقد لاحظت أن الفخر اهتم بأسرار كثير من الصفات في القرآن فجمعتها ووضعتها تحت مبحث الوصف، فقد يأتي الوصف لتمييز الموصوف الذى تتعدد أجناسه أو يوصف لشهرته، أو يوصف للمبالغة، أو لبيان قدرة الله، أو لشدة الهول، أو لغيرها من الأسرار التي ذكرتها.

ويقف الفخر عند قيود الجملة التي قال عنها العلماء أنها تأتي لتربية الفائدة، ويذكر أسرار كثير منها. فقد تأتي لتوكيد المعنى، ولإثبات كمال قدرته وعلمه، وللنهي عن الرياء، وللتعظيم وللمبالغة، ولإظهار البهجة والسرور بالعمل وغير ذلك.

وفي مبحث وضع المظهر موضع المضمر بينت قيمة المبحث كما ذكره عبد القاهر وموقعه في النفس، ولم يهتم الفخر بذكر أسراره إلا في مواضع قليلة من التفسير، فالاسم الظاهر يأتي موضع المضمر للتفخيم والتعظيم، أو لزيادة التقبيح أو للتعجب، كما يستغني عن الظاهر بضميره لأغراض منها الشهرة، ويقارن الفخر بين آيتين إحداهما جيء فيها بالضمير والأخرى بالاسم الظاهر فيبين السر البلاغي لكل منهما، كما كان يلجأ أحياناً إلى الحقائق العلمية لبيان سر مجيء المضمر بدل الظاهر، وقد تتبعت بعض الآيات التي يعود فيها ضمير الشأن على ما بعده فلم أجد الفخر يهتم بنكاتها البلاغية أو أثرها في النفس، بل كان يكتفي بتخريجها نحوياً.

٣ - البحث في الجمل :

بدأته بباب المناسبات، وهو من أطول المباحث البلاغية في التفسير، وهو ما يميزه عن غيره من كتب التفسير، وقد ذكرت مقدمتي تعريف هذا العلم، وأول من ظهر على يديه، وكلام أهل العلم فيه، وبداياته ثم مكانته عند الفخر، وإرجاعه الإعجاز إليه، وإرجاع كثير من أسرار القرآن ودقائقه له،

وأشرت إلى ما كان يراه من أنه علم لا يتأتى إلا بالعلم والرياضة الروحية ، وقد وجدت الفخر كثير الإعجاب به ، دائم الثناء عليه ، والنعت له ، ثم تتبعته في التفسير فوجدته ستة أنواع :

١ - مناسبة جزئيات الآية الواحدة .

٢ - مناسبة بين آية وآية .

٣ - مناسبة بين أجزاء وموضوعات السورة الواحدة .

٤ - مناسبة بين أول السورة وآخرها .

٥ - مناسبة بين أول السورة وآخر ما قبلها .

٦ - مناسبة بين سورة وسورة أو عدة سور .

وقد وقفت عند كل نوع ، وكشفت عن طريقته في تناوله ، وأيدت ذلك بأمثلة اخترتها من التفسير .

ويتسع مبحث الفصل والوصل في التفسير الكبير عما هو عليه في النهاية فلا يختص بالجمل التي لا محل لها من الإعراب ، ولا بالواو من بين حروف العطف ما دام هناك سر بلاغي تشير إليه الجملة . وبدأت بوصل الجمل بالواو فهي تأتي لتعطف الخاص على العام ، ويمنع الفخر عطف الجملة الخبرية على الإنشائية فلذلك يؤوله حين يرد في القرآن ، ويقبح عطف الجملة الاسمية على الفعلية لكنه يجيزه عند وجود سر بلاغي ، وقد رجعت إلى كتب النحو فوجدت ابن هشام في مغني اللبيب يرجع هذا المنع للفخر الرازي مستدلاً على ذلك بتأويله للعطف في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وقد رأيت أن أتحقق من كلام ابن هشام هذا فرجعت إلى تفسيره للآية فلم أجده يذكر هذا التأويل فيها ، وخرجت من هذا إلى أن الفخر لا يمنع العطف مطلقا ، لأنه يجيزه عند وجود سر بلاغي مستأنساً في ذلك بقول عبد القاهر من أن الاسم يدل على الثبوت والدوام ، والفعل على التجدد والحدوث ، فإذا أريد

بالجملتين هذين المعنيين جاز العطف ،ثم تساءلت إذا كان قد وافقه أحد من البلاغيين في ذلك فوجدت السكاكي يوافقه فيه .

ويذكر أن النحاة يشترطون في عطف الأفعال التماثل في الزمن لكنه يجيزه إذا وجدت نكتة بلاغية ،وقد تعطف الجملة على مرادفتها في المعنى وذلك للتأكيد ،وقد تعطف آية على آية بينهما آيات متفرعة من الآية الأولى، ولم يحرص الفخر هنا على بيان وجه الارتباط بينهما ،وإن كان قد اهتم في النهاية بعطف الجمل وبين كيف تترابط وتتواصل .

ثم تناولت الفصل بين الجمل فوجدته يذكر أن الجملة تفصل عما قبلها للتوضيح أو للاستئناف والقطع ، ويكثر من ذكر الجمل المستأنفة التي تأتي جواباً عن سؤال تثيره الجملة الأولى ،وقد تفصل الجملة لأنها توكيد لها ، وقد تتتابع الجمل ولا رابط بينها لتعدد النعم أو لبيان ما قبله وإيضاحه .

وكثيراً ما يجمع الفخر بين الحديث عن سر فصل الآيات ووصلها بالواو في آيات متتابعة كبداية سورة الرحمن ، الذى نجده فيه شارحاً لكلام الزمخشرى . وقد تأتي آيتان متتاليتان إحداهما وصلت بما قبلها والأخرى فصلت فبين سر ذلك ناظراً إلى ما قبلها من مقتضيات الأحوال . كما يذكر سر فصل ووصل الآيات ذات الغرض الواحد في سور متفرقة. ويلحظ تكرار بعض الأساليب في الآية الواحدة مفصولة وموصولة فبين سرها كما في : ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ في سورة البقرة. ويدخل في هذا المبحث عطف الجمل بالفاء ومقارنتها بنظيراتها مما عطف بالواو . ويرى أن اختلاف الموضوع يؤدى إلى اختلاف النسق فما جاء حديثاً عن الدلائل الآفاقية يعطف بالواو، وما تحدث عن الدلائل النفسية يعطف بالفاء . وقد يلجأ الفخر إلى التفريق بين ما عطف بالواو والفاء على نظرات خاصة يفهمها من إيحاءات

الآية فيعمم الحكم، وقد ثبت لي خطؤها بالرجوع إلى آيات أخرى من القرآن .

وفي التكرار استقصيت أكثر أساليب التكرار في التفسير فوجدتها أنواعا فصنفتها حسب ما يلي : تكرار في اللفظ والمعنى - تكرار في المعنى دون اللفظ - تكرار في اللفظ دون المعنى . النوع الأول : يمثل أكثر صور التكرار في التفسير ، وقد ذكر لها أغراضاً كثيرة منها التلطف لصرف النفس المنغمسة في الضلال ، أو يأتي للتحقير ، وكان الفخر يحرص أحياناً على ربطه بمذاهب القوم في أساليب لغتهم، ويدل على التوكيد في آيات كثيرة ، وقد يفيد التكرار الحث على غرس العبارة في النفس ، أو للدلالة على بقاء الأمر . وذكر وجوهاً لتكرار قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ولكنه في النهاية لا يعدها من الإيجاز وذلك في مقام الرد على من طعن في التكرار في القرآن ، لأن المعنى في كل مرة يختلف عن المعنى في الآخر. وكان الفخر يستأنس بأقوال العلماء قبله ثم يذكر ما يراه .

وتعرض الفخر لجملة الاعتراض في الكلام ، واهتم بذكر قيمتها البلاغية في أداء المعنى ، وقد وجدتها عنده في التفسير تفيد إما التوكيد وهو المعنى الذى اشتهر به العرب ، وإما معاني بلاغية أشار إليها . فبينت أولاً ما تفيده جملة الاعتراض من توكيد ، ورأيته أحياناً يشرح معنى التوكيد في جملة الاعتراض ، وتأتي جملة الاعتراض لتصور أدق ما يتطلبه المعنى وكأنها تعليق جانبي على المشهد ، وتأتي لتبين شدة أحوال من يتحدث عنهم كالمنافقين بسبب أعمالهم السيئة ، ويذكر الفخر أن من شروط جملة الاعتراض أن يكون لها تعلق بما قبلها من كلام ، كما تأتي بين المعطوف والمعطوف عليه لإبداء العذر ، وتأتي بين الصفة والموصوف للقطع بجهل الكفار في : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وقد تفرد الفخر بذكر هذا السر وإن كان أكثر المفسرين

قد أجمعوا على أنه للتأكيد ، وتعرضت لرأي أبي السعود والألوسي ،وقد لاحظت أنه سكت عن بيان سر جملة الاعتراض : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ التي وقعت بين المقسم والمقسم عليه وكأنه لا يرى فيها اعتراضاً ،ولا يعتبره ابن عطية اعتراضاً ، كما تقع جملة الاعتراض بين المشبه والمشبه به وفي كثير من صور الاعتراض كنت أقارن بين ما قاله الفخر وغيره من العلماء لأبين مكانة قوله.

وفي مبحث الالتفات : عرجت أولاً على رأى الفخر فيه في نهاية الإيجاز فوجدته يذكر له تعريفين : الأول : تعريف ابن المعتز ، وقد حصره في العدول من الغيبة إلى الخطاب والعكس . والثاني : يعرفه بأنه تعقيب الكلام بجملة تامة ملاقية إياه في المعنى ليكون تتميماً لها ،وقد ذكرت أن هذا هو التذييل الذى جعله المتأخرون من أنواع الإطناب ،ولم أجد أحداً من المتقدمين يذكره تعريفاً للالتفات ، وقد وجدت رشيد الدين الوطواط يذكر هذين التعريفين في : (حدائق السحر) ورجحت أن يكون الفخر ناقلاً منه. ثم رجعت إلى التفسير لأتبين رأيه فيه ،فلاحظت أن الالتفات عنده هو ما انتقل فيه الأسلوب من طريق إلى آخر من طرق الخطاب ، ثم يذكر سر بلاغة وحسن هذا الأسلوب ،ويأخذ على العلماء عدم اهتمامهم ببيان سر مواقع الالتفات ، لأنه لاحظ أنهم يقولون إن في الكلام التفاتاً دون بيان لسره ،وقد يقصد بهذا الكلام عبد القاهر الذى لم يتناول هذا الأسلوب بالدراسة ، ثم يقول إنه أسهب في الحديث عن سر بلاغة الالتفات في آية : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ وقد رجعت إلى هذه الآية فوجدته يذكر أن الانتقال من الغيبة إلى الحضور يدل على التقريب ،والانتقال من الحضور إلى الغيبة يدل على المقت، وذكر هذا الوجه في سبب انتقال بعض الآيات ،لكنه لا يطرد في كل التفسير ،لأنه لا يمكن تحديد سر بلاغي واحد للطريق الواحد من طرق الانتقال ،فالمعانى تتنوع والأساليب تختلف والسياق هو الذى يولد الوجه ويحدده.

وفي مبحث الفواصل القرآنية : بينت رأيه في أواخر الآيات ،فوجدته يتفق أن تأتي الفاصلة لمراعاة أواخر الآيـة ،ويرى أن القرآن يراعى في الفاصلة جانب اللفظ والمعنى ،وهذا معجز فيه ،وقد أخذ على الذين أرجعوا التقديم والتأخير من أجل الفاصلة ، ثم وقف عند كثير من فواصل القرآن فبين سرهـا وصلتها بما قبلها وهي عنده نوعان : نوع يسهل فيه إقامة العلاقة بيـن الفاصلة ومضمون الآية بأن يأتي توكيداً لها ،وذكرت أن هذا النوع يدخـل تحت باب التذييل في الإطناب . ونوع آخر يعتد من اتصال الفاصلة بما قبلها من آيات . ويبحث الفخر عن الفرق بين فاصلة ﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ و﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ ورأى أن التفكر يكون حين يحتاج مضمون الآية إلى كثير من التأمل والنظـر ، والتعقل يأتي حين تتم الدلائل ولم يبق إلا مجرد العقل . وقد خالفته في رأيه هذا مستدلة على ذلك بما لاحظته وبما قاله العلماء. وقد تناول كثيـراً من الآيات وبين صلتها بالمعنى سواء كانت متتالية أو متباعدة ، كما أنه تناول فواصل بعض القصص القرآني المتكررة وبين الفرق بينها ،كما أن نظراتـه امتدت إلى ما قبل الفواصل .

٤ - إعجاز القرآن في التفسير :

ذكرت بدءاً اتصاله بعلم المعاني من جهة النظم ،ثم تعرضت لأول حديث للفخر عن الإعجاز في سورة البقرة فوجدته يعرفه من طريقين : الأول : أن القرآن في مستوى كلام العرب يقدر ينقض العادة ، الثاني : أن القرآن إن لم يكـن معجزاً ببلاغته فهو بالصرفة . ثم جره هذا إلى الحديث عن وجود وجوه فـي القرآن تقتضي نقصان بلاغته ،وهي معيبة في كلام البشر ، لكن القرآن بلغ الغاية من الفصاحة ،وكنت أوضح عما غمض منها ،كما بينت تأثره بالقاضي الباقلانـي في بعض الوجوه . ثم ذكر آيات في موضوعات مختلفة دلت على علو الفصاحـة ،

وقد تناولت بعض هذه الآيات وحللتها وبينت فيها وجه علوها في الفصاحة، ويبدو تأثره في الوجه القائل بأن القرآن يشتمل على أصول جميع العلوم بأبي حامد الغزالي . ثم عرضت للوجه الثاني الذى ذكره وبناه على افتراضين :

الأوّل : أن يكون القرآن معجزاً ببلاغته .

الثاني : إن لم يكن كذلك فهو معجز بالصرفة ،

ثم نراه يجمع بينهما في النهاية دون ترجيح واحد منهما ، ثم ذكرت آراء العلماء في مذهب الصرفة ،ورأيت أن الفخر متبع فيه قول بعض العلماء في أن الله قد سلب دواعيهم عن المعارضة مع توفر الأسباب . ثم تتبعت هذا المذهب في التفسير فوجدته يذكره مرات ،بل إنه في موضع يقول إن الإعجاز في السور القصار راجع إلى الصرفة ، وما عداها من سور يكون الإعجاز بالبلاغة ،ورجعت إلى كتابه (النهاية) فوجدته ينقض القول بالصرفة وله فصل في بيان إعجاز القرآن في سورة الكوثر وهي من السور القصار . ثم رجحت أن طريقة الفخر هذه تقوم على مذهب مجاراة الخصم الطزم للحق في النهاية . ولا يزال يردد رأيه هذا حتى فى الآيات التي تدل دلالة واضحة على نفي هذا المذهب ، ثم رأيته في موضع آخر ينفي كل وجوه أقوال العلماء في الإعجاز بما فيها الصرفة إلا القول بالبلاغة ،يرجع إليه الإعجاز ،وهذا ما استقر عليه رأيه في الإعجاز فى (نهاية الإيجاز) ،ووجدته في موضع آخر يرجع الإعجاز إلى فصاحة اللفظ وشرف المعنى وترتيبات القرآن ،فوقفت عند رأيه وناقشته ،وفي مواضع كثيرة من التفسير يجمع بين عدة وجوه قد تصل إلى خمسة وجوه ، ثم تحدثتُ في نهاية المبحث عن السبب الذى جعله يضطرب - حسب ظني - في تحديد وجه الإعجاز تحديداً قاطعاً في التفسير .

تأثر الفخر بمن قبله وأثره فيمن بعده :

فبدأت بتأثره بمن قبله فتناولت تأثره بعبد القاهر على حدة ثم بالزمخشري لأثرهما البارز في التفسير ، ثم تناولت تأثره بباقي المفسرين ثم بالنحاة . وقفت عند تأثره بعبد القاهر وأجملتها في ثلاثة طرق :

الأول : أنه ينقل منه القاعدة ثم يطبقها على الآية التي هو بصدد تفسيرها .

الثاني : يستشهد بكلامه في الرد على بعض المسائل البلاغية .

الثالث : يأخذ منه أخذاً غير مباشر وهذا يظهر في مسائل كثيرة كنت أقف عندها وأنا أبحث في أبواب المعاني .

ثم وقفت عند تأثره بالزمخشري ، ولاحظت أن أثره يبدو بارزاً جداً في التفسير ، ويتنوع هذا الأثر فهو إما أن ينقل منه ، وهذا كثير جداً ومنتشر في كل مباحث التفسير ، أو قد يشرح فكرته ويفصل ما يجمله لإيضاحها وبيانها أو يضيف إلى ما يقوله في الآية من نكات بلاغية ، وفي قليل من الأحيان كان الفخر يعترض على الزمخشري في بعض اللفتات البلاغية ، وفي أغلب الأحوال وجدت الفخر يلتقط القاعدة البلاغية ويطبقها على كثير من الآيات .

كما يبدو تأثره بالمفسرين واضحاً فهو كثير النقل عنهم ، بما في ذلك المسائل البلاغية ، فينقل عن أبي مسلم الأصفهاني الذي كان يقول عنه : (أبومسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص في الدقائق واللطائف) فينقل عنه ما يتصل بمناسبة بعض الآيات في القرآن الكريم كما ينقل عن القفال أيضاً دون أن يذكر اسمه فحاولت أن أعرف من هو حيث وجدت ثلاثة من العلماء يلقبون فرجحت أحدهم لأن له تفسيراً في القرآن ، وكان الفخر كثير الثناء عليه يقول : (إنه حسن الكلام في التفسير) ، نقل عنه أوجه نظم كثير من آيات القرآن

واستفاد الفخر كذلك من القاضي عبد الجبار وإن كان معتزليا،وعني بالنقل عنه فيما يتعلق بنظم الآيات وترابط بعضها مع بعض،كما أنه كان كثير النقل عن الواحدي ،وذكر اسم تفسيره : (البسيط) في مواضع كثيرة ،وناقشه ورد عليه بعض الآراء البلاغية .

وتأثر الفخر أيضاً بكثير من النحاة في تدعيم الوجه البلاغي كسيبويه مثلاً الذي ردد بعض أقواله ،كما يظهر تأثره بابن جني في معرفة معنى الكلمة عن طريق تقاليب حروفها التي عني بها كثيراً في التفسير،كما نقل عن الفراء والزجاج والفارسي، وكان يصرح بهذا النقل فيما يتصل بالنكات البلاغية. ثم ختمت الفصل بأن ذكرت أن تأثر الفخر لم يقتصر على هؤلاء ،لأن عقلية العالم لا تحد بعلم أو بعالم يتأثر به ، ذلك أنا رأينا تشابهاً بين أفكاره وأفكار غيره من السابقين واضحاً في ثنايا معالجتي لكثير من قضايا البحث كالباقلاني في إعجاز القرآن ،والخطابي في الفروق بين الكلمات المتشابهة والرماني في أسرار الحذف، ورشيد الدين الوطواط في الالتفات وغيرهم مما لمحته وسجلته في البحث ، وإنما اكتفيت في هذا الفصل بذكر أبرزهم وأوضحهم في التأثير .

أثر الفخر فيمن بعده :

لقد وجدته شائعاً في ثلاثة مجالات :

الأول : أثره في كتب البلاغة : لا يبدو أثر التفسير في كتب البلاغة واضحاً وضوح أثر (النهاية) ،وقد حاولت أن أتحسس أثر التفسير في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي من نواحي متعددة ،وكذلك تناولت المطول للتفتازاني وأوجدت أوجه التشابه بينه وبين التفسير من عدة نواحي أيضاً .

الثاني : أثره في كتب التفسير : وجدت أن كثيراً من كتب التفسير تمتلىء بأقوال الفخر من الناحية البلاغية . فتناولت ثلاثة من كتب التفسير وبينت تأثرها بتفسير الفخر وهي : تفسير البيضاوي وتفسير الخازن وتفسير أبي حيان ، وختمت البحث ببيان أثر التفسير في كتب علوم القرآن والإعجاز، حيث أنها اهتمت بنقل كثير من نظراته البلاغية الخاصة ،فتعرضت للزركشي في كتابه :(البرهان في علوم القرآن) وبينت ما أخذه وما نقله عن الفخر ، ثم تعرضت للسيوطي في كتابه (معترك الأقران) وبينت أيضاً ما أخذه من الفخر وطريقته في هذا الأخذ .

ب - نتائج عامة للبحث

توصلت إلى نتائج عامة في بلاغة الفخر في التفسير أجملها فيما يأتي :

١ - بلاغة الفخر في التفسير بلاغة تذوقية خالية من الأحكام العقلية والقواعد التقريرية التي نجدها في (نهاية الإيجاز) .

٢ - تتسع المسائل البلاغية وتتفرع في الباب الواحد من أبواب علم المعاني عند تطبيقها على القرآن ، مع أنها محدودة في كتابه البلاغي : (نهاية الإيجاز) كبحث الالتفات والفصل والوصل والتقديم . . وغيرها .

٣ - كثير من أبواب المعاني التي نجدها متسعة في التفسير لم يذكرها في كتابه (النهاية) كالتنكير والجمع والإفراد والفواصل والتكرار وغيرها .

٤ - تغلب عليه العقلية الأصولية في مناقشة بعض القضايا البلاغية فيذكر دليل الخطاب ، وسلب العموم وغيرها .

٥ - له نظرات بلاغية تفوق غيره من المفسرين كالزمخشري الذي عرف بنظراته البلاغية المتفوقة .

٦ - كان أحياناً يثبت القاعدة البلاغية المنقولة عن البلاغيين ، ثم يطبق عليها الآية التي هو بصدد تفسيرها ، كما رأينا في باب التقديم ، والتوكيد ، وعطف الاسم على الفعل .

٧ - قد تتناقض أقواله في المسألة البلاغية الواحدة في التفسير ، فيذكر رأياً ثم يذكر ما يناقضه كما في مسألة الإعجاز .

٨ - يستعين بالأمثلة البسيطة الدائرة على ألسن العامة وذلك لتفهيم القاعدة البلاغية التي يشرحها ، وهي منتشرة في أكثر نظراته البلاغية .

٩ - في قليل من الأحيان كان لا يقتصر في نظراته البلاغية إلى ما ترمي إليه دلالات اللغة من معاني ،بل كان يستنبط معاني خاصة يفهمها من النص هي أقرب إلى نظرات الصوفية وشفافيتهم العالية في فهم النص .

١٠- أكثر من استنباط المعاني المتعددة للوجه البلاغي الواحد ، فيميل إلى الإطناب والتطويل ،وهذه سمة بارزة في كل أبواب المعاني ،تدل على قدرته الفائقة على تقليب الكلمات والتقاط فرائد المعاني التي قد تخفى .

١١- أرجع أسرار بعض الآيات البلاغية إلى الظواهر الكونية مما لا نراه عند غيره من البلاغيين .

١٢- أكثر ما امتاز به التفسير من الناحية البلاغية في علم المعاني اهتمامه بالمناسبات.

١٣- يبدو تأثره بالزمخشري واضحاً جداً في كل أبواب البحث و يتنوع هذا الأخذ .

١٤- أرى أن نظراته البلاغية في التفسير تمثل الرأي الأخير له لأنه ألفه بعد (النهاية) كما ذكر في تفسير سورة البقرة.

وفي نهاية هذه الرحلة المباركة الممتعة في رحاب تفسير القرآن الكريم أقف لأفي بحق الله سبحانه وتعالى وأحمده وأشكره، وأنَّى لي ذلك وحقه لا يُوفَّى وشكره لا يُؤدَّى . فقد وفقني وأسبغ علي نعمته في أن جعلني من خدمة هذا الكتاب الكريم، ولكن كيف أشكرك يا إلهي ؟ سأقول كما علمتني :

* رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ
الصَّالِحِينَ *

وأقول :

* رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا
مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا
فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

ربنا .. بدأت باسمك وأختم به، فلك الحمد في الأولى والآخرة ولك الحكم وإليك تصير الأمور، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

جـ - فهرس المصادر والمراجع

جـ - فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،
مصر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

- أثر النحاة في البحث البلاغي : د . عبد القادر حسين ،
القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، ١٩٧٥م .

- إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد الغزالي ،
بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- إرشاد العقل السليم : أبو السعود محمد بن محمد العمادي ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي .

- أساس البلاغة : جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ،
تحقيق : الأستاذ عبد الرحيم محمود ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم : د . صبّاح دراز
مصر : مطبعة الأمانة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ،
تحقيق : محمد رشيد رضا .
بيروت : دار المعرفة .

- أسرار التكرار في القرآن : محمود بن حمزة الكرماني ،
تحقيق : عبد القادر أحمد عطا
مصر : دار الاعتصام ، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م .

- الإشارة إلى الإيجاز : ابو محمد عز الدين بن عبد السلام ،
بيروت : دار المعرفة.
- الإعجاز البلاغي : د. محمد أبو موسى ،
مصر : مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره : د. محمد يوسف القاسم
القاهرة : دار المطبوعات الدولية ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- الإعجاز في دراسات السابقين : د. عبد الكريم الخطيب
مصر : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.
- إعجاز القرآن : أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ،
تحقيق : الشيخ عماد الدين احمد حيدر
بيروت : موسسة المكتبة الثقافية ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعي ،
بيروت : دار الكتاب العربي ، الطبعة التاسعة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
- الأعلام : خير الدين الزركلي ،
بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة السابعة ١٩٨٦م.
- الإمام فخر الدين الرازي - حياته وآثاره : د. علي العماري ،
مصر : المجلس الاعلى للشوءون الإسلامية - الكتاب الثالث ١٣٨٨هـ
- ١٩٦٩م.
- الأمالي الشجرية : ضياء الدين هبة الله بن علي بن الشجري ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي ،
بيروت : دار صادر.

- الإعجاز والإيجاز : أبومنصورالثعالبي ،

بغداد : مكتبة دار البيان - بيروت : دار صعب.

- الإيضاح : الإمام الخطيب القزويني ،

شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ،

بيروت : دارالكتاب اللبناني ،الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي ،

بيروت : دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

- بدائع الفوائد : ابوعبدالله محمد بن أبي بكر المشتهر بابن قيم الجوزية

القاهرة : مكتبة ابن تيمية - مكتبة العلم بجدة

- البداية والنهاية : الحافظ بن كثير ،

بيروت : مكتبة المعارف.

- البديع : ابن أبي الأصبع المصرى ،

تحقيق : حفني محمد شرف ،

القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر- الطبعة الثانية

- البديع : عبدالله بن المعتز ،

نشره وعلق عليه : المستشرق اغناطيوس كراتشقوفسكي ،

دمشق : دارالحكمة.

- البرهان في علوم القرآن : بدر الدين الزركشي ،

تحقيق : محمد أبوالفضل ابراهيم .

بيروت : دارالمعرفة ،الطبعة الثانية ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

- بغية الإيضاح : عبد المتعال الصعيدى ،

مصر : مكتبة الآداب ومطبعتها ،الطبعة السادسة .

- البلاغة تطور وتاريخ : د . شوقي ضيف .

مصر : دارالمعارف ،الطبعة السابعة.

- البلاغة عند السكاكي : د . أحمد مطلوب .

بغداد : منشورات مكتبة النهضة ،الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : د . محمد أبوموسى .

القاهرة : مكتبة وهبة ،الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

- البيان العربي : د . بدوي طبانة،

بيروت : دارالعودة ،الطبعة الخامسة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

- البيان والتبيين : أبوعثمان عمروبن بحر الجاحظ ،

تحقيق : عبد السلام محمد هارون

مصر : مكتبة الخانجي ،الطبعة الرابعة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة ،

تحقيق : السيد أحمد صقر ،

القاهرة : دار التراث ،الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- التصوير البياني : د . محمد أبو موسى ،

القاهرة : مكتبة وهبة ،الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- التفسير البلاغي للاستفهام : د . عبد العظيم المطعني ،

مصر : المكتبة التوفيقية ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م

- تفسير القرآن العظيم : أبوالفداء اسماعيل بن كثير ،

القاهرة : دارالكتب المصرية ،

- التفسير الكبير : فخر الدين حسين بن عمر الرازي ،

١ - بيروت : دارالفكر ،الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

٢ - مصر : المطبعة الخيرية ،الطبعة الاولى ١٣٠٧هـ

- تفسير النصوص في الفقه الاسلامي : د . محمد أديب الصالح ،

دمشق : المكتب الاسلامي ،الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

- التفسير ورجاله : الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ،
القاهرة : مجمع البحوث الاسلامية ،الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي ،
مصر : الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م،
- التكرار - مظاهره وأسراره - : عبد الرحمن الشهري ،
رسالة ماجستير مقدمة من قسم اللغة العربية - جامعة أم القرى .
- التلخيص في علوم البلاغة : جلال الدين محمد القزويني الخطيب ،
ضبط وشرح : عبد الرحمن البرقوقي
مصر : المكتبة التجارية ،الطبعة الثانية ١٣٥٠هـ - ١٩٣٢م.
- تهذيب اللغة ، للأزهرى ،
تحقيق : عبد الحليم النجار - مراجعة : محمد علي النجار
مصر : الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : الخطابي - الرماني - الجرجاني ،
تحقيق : محمد خلف الله ،د . محمد زغلول سلام
مصر : دار المعارف ،الطبعة الثالثة .
- جامع البيان عن تأويل آى القرآن : أبوجعفر محمد بن جرير الطبرى ،
بيروت : دار الفكر ،١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- الحجة في علل القراءات السبع : أبوعلي الحسن بن أحمد الفارسي ،
تحقيق : علي النجدى ناصف - د . عبد الفتاح شلبي
مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- حدائق السحر في دقائق الشعر : رشيد الدين الوطواط ،
تحقيق : إبراهيم أمين الشواربي .
القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والنشر ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

- الحيوان : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،
تحقيق : عبد السلام هارون ،
بيروت : المجمع العلمي العربي الاسلامي .
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ،
تحقيق : محمد علي النجار ،
بيروت : دار الهدى للطباعة والنشر .
- خصائص التراكيب : د . محمد أبو موسى ،
القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .
- درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافي ،
بيروت : دار الآفاق الجديدة ، الطبعة الثانية ١٩٧٧م .
- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ،
تحقيق : محمود محمد شاكر ،
القاهرة : مكتبة الخانجي .
- دلالات التركيب : د . محمد أبوموسى ،
القاهرة : مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .
- ديوان أمية بن أبي الصلت :
قدم له وعلق على حواشيه : سيف الدين الكاتب ، أحمد عصام الكاتب .
بيروت : دار مكتبة الحياة .
- ديوان النابغة الذبياني .
شرح وتقديم : عباس عبد الساتر ،
بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى .
- ديوان كثيّر .
جمع وشرح : د . إحسان عباس .
بيروت : دار الثقافة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

- الرسالة الشافية : عبد القاهر الجرجاني ،
القاهرة : مكتبة الخانجي (ملحق بدلائل الإعجاز)
- روح المعاني : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- روضات الجنات : محمد باقر الموسوي الخوانساري الأصبهاني ،
تحقيق : أسد الله إسماعيليان
قم : خيابان ارم
- الريح والرياح في القرآن وفي كلام العرب : د . علي العماري ،
بحث مخطوط .
- سر الفصاحة : الأمير أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي ،
بيروت : دار الكتب العلمية .
- سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ،
تحقيق : شعيب الأرنؤوط
بيروت : مؤسسة الرسالة - الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- شذرات الذهب : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ،
بيروت : المكتب التجاري للطباعة والنشر
- شروح التلخيص : مختصر سعد الدين التفتازاني ،
مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ،
عروس الأفراح ، لبهاء الدين السبكي ،
مصر : المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ
- الصاحبي : أبو الحسين احمد بن فارس ،
تحقيق : السيد أحمد صقر
القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٧٧م .

- الصناعتين : أبوهلال الحسن العسكرى ،

تحقيق : د . مفيد قميحة ،

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

- طبقات الشافعية : أبونصر عبد الوهاب بن علي السبكي ،

تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو - محمود محمد الطناحي ،

مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

- الطراز : يحيى بن حمزة العلوى اليمنى ،

بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

- العمدة : أبوعلي الحسن بن رشيد القيرواني ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

بيروت : دار الجيل للنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م .

- عيار الشعر : محمد احمد بن طباطبا العلوى ،

تحقيق : عباس عبد الساتر ،

بيروت : دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدى ،

العراق : وزارة الثقافة - دار الرشيد للنشر - سلسلة المعاجم

والفهارس (٤٣) .

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد النيسابورى ،

تحقيق : إبراهيم عطوة عوض ،

مصر : شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الأولى ،

١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م .

- فخر الدين الرازى بلاغياً : ماهر مهدى هلال ،

العراق : منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية .

- الفروق اللغوية : أبوهلال العسكرى ،
ضبطه وحققه : حسام الدين القدس ،
بيروت : دارالكتب العلمية .
- الفصل في الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهرى ،
وبهامشه الملل والنحل : لأبي الفتح محمد الشهرستاني ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .
- الكامل في ضعفاء الحديث : الإمام الحافظ أبو أحمد عبدالله بن عدى الجرجاني ،
تحقيق : لجنة من المختصين بإشراف الناشر ،
بيروت : دارالفكر للطباعة والنشر .
- الكتاب : عمرو بن عثمان بن قنبر ،
تحقيق : عبد السلام محمد هارون ،
الرياض : دار الرفاعي ،القاهرة : مكتبة الخانجي .
- كتاب الإقناع في القراءات السبع : أبوجعفر أحمد بن علي الأنصارى ابن الباذش ،
تحقيق : د . عبد المجيد قطامش ،
مكة : مركز البحث العلمي وإحياء التراث الاسلامي ،
- الكشاف : أبوالقاسم جار الله محمود الزمخشرى ،
وبهامشه الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال : أحمد بن المنير .
وحاشية السيد الجرجاني ،
بيروت : دار المعرفة للطباعة والنشر .
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ،
دارالفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ،
بيروت : دار صادر .

- لسان الميزان : الإمام شهاب الدين علي بن حجر العسقلاني ،
بيروت : منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات .
- المباحث البيانية في تفسير الفخر الرازى : د . احمد هنداوى هلال ،
رسالة دكتوراة مقدمة من جامعة الأزهر ١٤٠١ هـ .
- المثل السائر : ضياء الدين بن الأثير ،
تحقيق : د . احمد الحوفي - د . بدوى طبانة ،
القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة .
- المجاز في اللغة والقرآن : د . عبد العظيم المطعني ،
القاهرة : مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- مجاز القرآن : أبوعبيدة معمر بن المثني ،
علق عليه : د . محمد فوءاد سزكين ،
مصر : مكتبة الخانجي .
- المحتسب : أبوالفتح عثمان بن جني ،
تحقيق : علي النجدى ناصف - د . عبد الحليم النجار - د . عبدالفتاح شلبي ،
دار سزكين للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .
- المحرر الوجيز : أبو محمد عبد الحق بن عطية الاندلسي ،
١ - تحقيق : الرحالي الفاروق - عبدالله بن إبراهيم الأنصارى ،
السيد عبد العال السيد إبراهيم - محمد الشافعي صادق العناني ،
قطر : مؤسسة دار العلوم .
٢ - تحقيق : المجلس العلمي بفاس ،
المملكة المغربية : وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية .
- المحصول في علم الأصول : فخر الدين محمد بن عمر الرازى ،
دراسة وتحقيق : طه جابر فياض العلواني ،
الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية - لجنة البحوث والنشر .

- المدخل إلى علم الاسلوب : د . شكري عياد ،
الرياض : دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- مرآة الجنان : الإمام أبوعبد الله اليافعي ،
بيروت : موسسة الاعلمي ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .
- المزهر : جلال الدين السيوطي ،
مصر : مطبعة السعادة ، ١٣٢٥هـ .
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ،
بيروت : المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .
- المطول على التلخيص : سعد الدين التفتازاني ،
مصر : مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ .
- معاني القرآن : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ،
بيروت : عالم الكتب - الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين السيوطي ،
تحقيق : علي محمد البجاوي ،
مصر : دار الفكر العربي .
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ،
القاهرة : دار الحديث .
- معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي .
- المغني في أبواب التوحيد والعدل : القاضي أبي الحسن عبد الجبار ،
تحقيق : محمود محمد الخضيري ، ج ١٦ .
مصر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .
- مغني اللبيب : أبو محمد عبد الله بن هشام الأنصاري ،
تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،
بيروت : دار إحياء التراث العربي ،

- مفتاح السعادة ومصباح السيادة : أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكبرى زاده ،
مراجعة وتحقيق : كامل كامل بكرى -عبد الوهاب أبو النور ،
مصر : دارالكتب الحديثة .

- مفتاح العلوم : أبو يعقوب يوسف السكاكي ،
بيروت : دار الكتب العلمية .

- المفردات في غريب القرآن : أبوالقاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ،
تحقيق : محمد سيد كيلاني ،
بيروت : دار المعرفة.

- المفصل : أبوالقاسم محمود بن عمر الزمخشرى ،
بيروت : دارالجيل ،الطبعة الثانية .

- مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس ،
تحقيق عبد السلام محمد هارون ،
ايران : دارالكتب العلمية - اسماعيليان نجفى ،

- المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ،
القاهرة : المجلس الأعلى للشئون الاسلامية -لجنة إحياء التراث العربي
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ،
بيروت : دار القلم ،الطبعة الخامسة ١٩٨٤م.

- من أسرار التعبير في القرآن : د . محمد أبو موسى ،
مصر : دارالفكر العربي -١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

- من أسرار التعبير في القرآن : د . عبد الفتاح لاشين ،
شركة مكتبة عكاظ ،الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- من أسرار القرآن : د . على العمارى (بحث مخطوط) .

- من أسرار اللغة : د . إبراهيم أنيس ،

القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة ١٩٧٨م .

- من الإعجاز البلاغي للقرآن : د . صبّاح دراز ،

القاهرة : دار التوفيقية للطباعة بالأزهر .

- من بلاغة القرآن : أحمد أحمد بدوى ،

القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ،

- الموازنة بين الطائيين : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ،

تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،

بيروت : مكتبة العلمية .

- النبأ العظيم : د . محمد عبدالله دراز ،

الكويت : دار القلم ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م .

- النجوم الزاهرة : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ،

مصر : وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ابو الحسن ابراهيم بن عمر البقاعي ،

الهند - حيدر آباد مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،

١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

- نقد الشعر : أبو الفرج قدامة بن جعفر ،

تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ،

القاهرة : مكتبة الكليات الازهرية - الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

- نقد النثر : أبو الفرج قدامة بن جعفر ،

بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

- نهاية الإيجاز : الإمام فخر الدين الرازى ،

تحقيق : د . بكرى شيخ أمين .

بيروت : دار العلم للملايين الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل الصفدى ،

باعتناء : هلموت ريتر ،

المانيا : دارالنشر فرانز شتانير ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

- وفيات الأعيان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان ،

تحقيق : د . إحسان عباس ،

بيروت : دار صادر .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
المقدمة	أ - جـ
التمهيد : حياة الفخر الرازي :	١ - ٣٥
اسمه ولقبه وكنيته - مولده - نشأته - صفاته - مذهبه العقدي والفقهي - عصره - مؤلفاته - شعره - تفسيره - آراء العلماء حول التفسير - هل أكمل التفسير؟ مكانته البلاغية - وفاته .	
الباب الأول	
علم المعاني قبل الفخر الرازي	٣٦ - ١١٦
الفصل الأول :- ما المراد بعلم المعاني ؟	٣٧ - ٤٤
الفصل الثاني : علم المعاني عند البلاغيين .	٤٥ - ٨٣
المفردات - التقديم - الاستفهام - الأمر والنهي - الحذف - الإيجاز - الفصل والوصل - الالتفات - الاعتراض .	
الفصل الثالث : علم المعاني عند المفسرين وعلماء الإعجاز.	٨٤ - ١١٦
المفردات - التقديم - الاستفهام - الأمر والنهي - الحذف - الإيجاز - الفصل والوصل - الالتفات - الفواصل القرآنية.	

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني

علم المعاني في تفسير الفخر الرازى ١١٧ - ٥٥٦

الفصل الأول : النظم في التفسير . ١١٨ - ١٣٥

الفصل الثاني : المفردات. ١٣٦ - ٢٤٠

الكلمة القرآنية - الإفراد والجمع - الفعل والمشتقات - التعريف - التنكير - أدوات الربط : حروف الجر ، أدوات الشرط - صيغ العموم - حروف العطف - حروف النفي .

الفصل الثالث : بناء الجملة . ٢٤١ - ٣٦٢

التقديم - الاستفهام - الأمر - النهي - الحذف - الإيجاز - التوكيد - القصر - الوصف - القيود - وضع المظهر موضع المضمر وعكسه .

الفصل الرابع : بناء الجمل . ٣٦٣ - ٥٢٤

المناسبات والترتيبات - الفصل والوصل - الاعتراض - الالتفات - التكرار - الفواصل - مشكلات الفواصل - التحليلات والموازنات.

الفصل الخامس : الإعجاز القرآني في تفسير الفخر . ٥٢٥ - ٥٥٦

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث	
تأثر الفخر وأثره فيمن بعده	٥٥٧ - ٦٤٣
الفصل الأول : تأثر الفخر بمن قبله .	٥٥٨ - ٦٠٠
أ - تأثره بعبد القاهر الجرجاني .	٥٥٩
ب - تأثره بالزمخشري .	٥٧٢
جـ - تأثره بالمفسرين .	٥٨٤
د - تأثره ببعض النحاة.	٥٩٦
الفصل الثاني : أثره فيمن بعده.	٦٠١ - ٦٤٣
أ - أثره في الدراسات البلاغية.	٦٠٢
ب - أثره في كتب التفسير .	٦١٣
جـ - أثره في كتب علوم القرآن .	٦٣٤
الخاتمة :	٦٤٤ - ٦٩٢
أ - خلاصة البحث.	٦٤٥
ب - أهم نتائج البحث .	٦٧٥
جـ - فهرس المصادر والمراجع .	٦٧٨
فهرس الموضوعات	٦٩٣ - ٦٩٦